

قصة الحضارة

ول وَايرئيل ديورانت

الإصلاح الديني

مراجعة
الأستاذ عماد أدهم

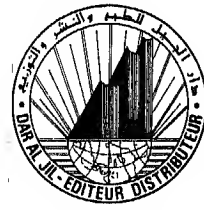
ترجمة
الدكتور عبد الحميد يونس

الجزء الرابع من المجلد السادس

٢٥



تونس



بيروت

حقوق الطبع محفوظة

دار الحديث : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - فاكس: ٢٣٤٢٠
العنوان البرقي: دار الحديث - بيروت - لبنان

فهرس الجزء الرابع من المجلد السادس

سنة

لفصل الثاني والعشرون : فرانسيس الأول والإصلاح الدينى فى

فرنسا (١٥١٥ - ٥٩)

١ - الملك الأنف للكبير

٢ - فرنساقى عام ١٥١٥

٣ - مرجريت أميرة ناغار

٤ - للفرنسيون البروتستانت

٥ - هابسبورج وقالوا (١٥١٥ - ٢٦)

٦ - الحرب والسلام (١٥٢٦ - ٤٢)

٧ - ديهان دى پواتيه

لفصل الثالث والعشرون : هنرى الثامن والكاردينال ولزى

١ - ملك واعد (١٥٠٩ - ١١)

٢ - ولزى

٣ - ولزى والكنيسة

٤ - طلاق الملك

لفصل الرابع والعشرون : هنرى الثامن وتوماس مور

(١٥٢٩ - ٣٥)

١ - برلمان الإصلاح الدينى

٢ - مؤلف المدينة الفاضلة

٣ - الشهيد

صفحة

٤ - حكاية ثلاث ملكات ١١٨

الفصل الخامس والعشرون : هنرى الثامن والأديار (١٥٣٥ - ٤٧) ١٢٥

١ - تقنية الحل ١٢٥

٢ - الإيرلندى العنيد ١٣٠٠ - ١٥٥٨ - ١٣٥

٣ - ملك من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ١٣٨

٤ - التنين يتقاعد ١٤٣

الفصل السادس والعشرون : إدوارد السادس ومارى تيودور

(١٥٤٧ - ١٥٥٨) ١٥٤

١ - حماية سومرت ١٥٤

٢ - حماية وارويك (١٥٤٩ - ٥٣) ١٦١

٣ - الملكة الرقيقة (١٥٥٣ - ٥٤) ١٦٨

٤ - ماري الدموية (١٥٥٤ - ٥٨) ١٧٨

الفصل السابع والعشرون : من روبرت بروس إلى جون نووكس

(١٣٠٠ - ١٥٦١) ١٩٢

١ - الاسكوتلنديون الذين لا يقهرون ١٩٢

٢ - وقائع ملكية (١٣١٤ - ١٥٥٤) ١٩٥

٣ - جون نووكس (١٥٠٥ - ٥٩) ٢٠٠

٤ - جماعة أتباع يسوع المسيح (١٥٥٧ - ٦٠) ٢١٤

الفصل الثامن والعشرون : هجرات الإصلاح الدينى (١٥١٧ - ٦٠) ٢٢٣

١ - المشهد الاسكنديناوى (١٤٧٠ - ١٥٢٣) ٢٢٣

٢ - الإصلاح الدينى السويدي ٢٢٧

(٥)

صفحة

- ٢٣٣ ٣ - الإصلاح الدينى الدنمركى
٢٣٦ ٤ - البروتستانتية فى شرقى أوروبا
٢٤٢ ٥ - شارل الخامس والأراضى المنخفضة
٢٥١ ٦ - إسبانيا (١٥٢٠ - ٢٢)
٢٥١ ١ - ثورة العامة (١٥٢٠ - ٢٢)
٢٥٤ ٢ - البروتستانت الإسبان
٢٥٨ ٣ - الإمبراطور يموت (٥٥٦ - ٥٨)

الفصل الثاني والعشرون

فرانسييس الأول والإصلاح الديني في فرنسا

١٥١٥ - ٥٩

١ - الملك الأنف الكبير

ولد تحت شجرة في كوفياك في اليوم الثاني عشر من سبتمبر عام ١٤٩٤ ؛ وجده هو شارل أورليان الشاعر ، وربما كان الغناء وحب الجمال في دمه ؛ وأبوه شارل أمير فالوا وأورليان ، كونت أنجوليم ، الذي مات بعد أن اقرض الكثير من الآثام ، وكان فرانسييس لم يتجاوز بعد العام الثالث من عمره . وأمه لويز أميرة سافوى ، وهي امرأة على جمال واقتدار وطموح ، تتعشق الثراء والسلطة . وقد ترملت في السابعة عشرة من عمرها ، وأبنت الزواج من هنري السابع ملك إنجلترا ، ووقفت جهدها - إذا استثنينا بعض العلاقات المحرمة - على إعداد ابنها ليكون ملكاً على فرنسا ؛ ولم تشعر بالأسى عندما وضعت آن أميرة بريتاني ، زوجة لويس الثاني عشر ، ولدأ ميثاً ، وتركت لفرانسييس ولاية العهد . وعين لويس ، وقلبه مفعم بالحزن ، فرانسييس دوقا لفالوا ، ورتب له المربين لتلقيه فن تدبير الملك . وأسبغت عليه لويز ، وكذلك أخته مرجريت ، من عاطفة الأمومة ما وصل إلى درجة الوله ؛ وأعداه ليكون ملكاً على قلوب النساء . وكانت لويز تناديه « مليكي » مولاي ، قيصرى ؛ وغذته بقصص الفروسية وتباهت بمغامراته الغرامية ، وكان يغمى عليها عندما ترى الضربات تكال

له في المبارزات التي شغف بها . وكان شاباً وسيماً مرحباً أنيساً شجاعاً ، يواجه الأخطار بصدر رحب وكأنه رولان أو أماديس ، وعندما أفلت خنزير برى من قفصه ، وانطلق يعيثُ فساداً في فناء قصر فرانسيس ، واجه الأمير الوحش ، وذبحه في بطولة رائعة ، في الوقت الذي فرّ فيه الآخرون لا يلوون على شيء .

وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره (١٥٠٦) خطبوا له كلود أميرة فرنسا ، ابنة لويس الثاني عشر ، البالغة من العمر سبع سنوات . وكانت موعودة بأن تكون خطيبة للصبي الذي قدر له أن يصبح الإمبراطور شارل الخامس ، إلا أن الخطبة فسخت لكي تتجنب فرنسا الوقوع في براثن أسبانيا ، وكان هذا موضوعاً واحداً من مئات موضوعات الاستفزاز التي حفزت إلى الصراع بين بيتي هابسبورج وقالوا من الفتوة إلى الموت . وعندما بلغ فرانسيس الرابعة عشرة من عمره ، أمر بأن يهجر والدته وأن ينضم إلى لويس في شينون ، وتزوج كلود عندما بلغ العشرين ، وكانت فتاة بدينة بليدة عرجاء ، ولودا صالحة ، وأنجبت منه أطفالاً في أعوام ١٥١٥ ، ١٥١٦ ، ١٥١٨ ، ١٥٢٠ ، ١٥٢٢ ، ١٥٢٣ ، ومات عام ١٥٢٤ .

وفي غضون ذلك أصبح ملكاً (أول يناير عام ١٥١٥) ، ونمزت السعادة قلوب الجميع ، وعلى رأسهم أمه التي أنعم عليها بدوقيتي أنجوليم وأنجو . وكونتيتي ماين وبوفور ، وبارونية أمبواز . بيد أنه لم يكن أقل كرمًا مع الآخرين - النبلاء والفنانين والشعراء والوصفاء العشيقات . وكان صوته المرح ودماثته وهدوء طبعه وحيويته المتدفقة وجاذبيته ، وجمعه بين سمات الفروسية ومزايا عصر النهضة كل ذلك جعله أثيراً لدى أبناء جلدته ، بل وحاشيته . واغتبطت فرنسا وعلقت عليه آمالاً عريضة . كما حدث في إنجلترا لإبان تلك السنوات التي حكم فيها هنري الثامن ، وفي الإمبراطورية لإبان عهد شارل الخامس ، وبدا العالم فتياً من جديد منتعشاً

بشباب الملك . وصمم فرانسس ، وكان في تصميمه أقوى من ليو العاشر ، على أن ينعم بعرشه .

ترى ماذا كان في الواقع ذلك الرجل الذى يجمع بين صفات آرثر ولانسلوت ؟ إنه كان رائع التكوين من الناحية البدنية ، لو لم يكن أنفه كبيراً على ذلك النحو . وقد أطلق عليه بعض معاصريه الذين يفتقرون إلى الاحترام لقب « الملك الأنف الكبير » . وكان فارح القامة ، طوله ست أقدام ، عريض المنكبين ، خفيف الحركة قوى البنية . وكان في وسعه أن يجرى ويقفز ، ويصارع ويبارز أمهر الخصوم ، وكان يستطيع أن يستعمل سيفاً بمقبضين أو رمحاً ثقيلًا . وكانت لحيته الخفيفة وشاربه الرفيع لا يخفيان شبابه ، فقد كان في الحادية والعشرين عندما توج ملكاً . وكانت عيناه الضيقتان تمان على التيقظ وخفة الروح ، وإن كانتا لا تدلان على الدهاء أو العمق . وإذا كان أنفه يدل على الفحولة ، فإنه كان يطابق شهرته . وقد كتب برانتوم ، الذى لا يعد كتابه « نسوة عاشقات » مصنفًا تاريخياً ، فى ذلك الوقت يقول : « لقد عشق الملك فرانسس الكثيرات ، وأحب الكثيرات إلى حد الإفراط ، ولما كان شاباً فتياً حراً فقد كان يحتضن الواحدة حيناً ، والأخرى أحياناً بلا اكتراث . . . ومن أجل ذلك أصيب بمرض الجدرى الذى عجل بنهايته » (١) . ويروى أن أم الملك قالت إنه لقي جزاءه حيث اقترف خطيئته (*) . وربما بالغ التاريخ فى تنوع غرامياته . ومهما كان عددها ، فإنه ظل وفياً مخلصاً فى الظاهر أولاً لفرانسواز دى فوا ، كونتيسة دى شاتوبريان ، ثم لأن دى بسليو التى أنعم عليها بلقب دوقة ديتامت ، وذلك من عام ١٥٢٦ إلى أن قضى نحبه ونشرت عنه

(*) وما هو أقرب إلى الأسطورة ، قصة الحامى الذى وقع الاختيار على زوجته لابل فرونييز (بياعة الأدوات الحديدية الجميلة) للمخدع الملكى ، فما كان منه إلا أن أصاب نفسه بمرض فنتقل إليها مرض الزهرى حتى تصيب به الملك .

الشائعات الباطلة ماثت من الحكايات التي تدور حول مغامراته الغرامية - وأنه حاصر ميلان لاحقاً في ميلان ، ولكن من أجل سواد عيني فتاة لا تنسى ، رآها هناك (٢) ، أو لأن امرأة لعوبا في بافيا أغرته وقادته إلى مجور مأساته (٤) . ولا يسعنا على أية حال إلا أن نخالطنا شيء من العطف على ملك مرهف الحس إلى هذا الحد ، لقد كان قادراً على الحنان والوله إلى درجة الخيال : وعندما رأى أن يطلق ابنه من كاترين دي مديتشي بعد ان ثبت أنها عاقرة أئنته دموعها عن عزمه (٥) . وفي هذا قال أرازموس « لا يمكن أن يتخيل امرؤ وجود شخص أرق عاطفة من فرانسيس (٦) . » وإذا كان قد قال ذلك بسبب العطف لبعده المسافة ، فإن بودس عالم الإنسانيات المتخصص في شتون فرانسيس وصفه بأنه « مهذب رقيق من السهل الحصول على رضاه (٧) » .

وكان معجباً بنفسه للدرجة لا تفتظر من رجل . وكان ينافس هنرى الثامن في فخامة ثيابه الملكية وفي إهمال فراء قلعسوته . واتخذ السمندل رمزاً له ، مما يدل على الإصرار على البعث من كل احتراق ، بيد أن الحياة لسعته مع ذلك بشواظها . وكان يجب أن يقابل بمظاهر التبرجيل والامتياز والتلق ، ويضيق ذرعاً بالنقد . وأمر بجلد ممثل لأنه هجا الحاشية ، وقد واجه لويس الثاني عشر للذعات نفس الملاحظات الساخرة فاكتفى بالابتسام (٨) . وكان جاحداً للجميل ، كما حدث مع آن دي مومورنسى ، وظالماً كما كان مع شارل البوربوني ، وقاسياً كما كان مع ممبلانساي ، ولكنه كان على الحملة معروفاً بالصنم والكرم . وكان الإيطاليون يتعجبون من سخائه (٩) . ولم يظهر في التاريخ حاكم يفوقه في الرفق بالفنانين ، وكان يعشق الجمال عشقاً يتسم بالقوة والفتنة ، وكان على استعداد لأن ينفق على الفن كما ينفق على الحرب ، وقدم نصف ما أنفق من مال في عصر النهضة الفرنسية .

ولم تكن قدرته الذهنية تضارع جاذبية شخصيته ، وكان يعرف القليل من

اللاتينية ، ولا يعرف شيئاً من اليونانية ، بيد أنه أدهش الكثيرين بتنوع معارفه ودقتها عن الزراعة والصيد والجغرافية والعلوم الحربية والأدب والفن ، وكانت الفلسفة تلذ له عندما لا تتعارض مع الحب أو الحرب ، وكان شديد التهور والاندفاع إلى درجة لا يصلح معها قائداً عظيماً ، خفيف الروح يعشق المتعة إلى حد لا يصلح معه لأن يكون سياسياً كبيراً ، وكانت تسحره المظاهر فلا ينفذ إلى جوهر الأمور . ويتأثر في لطف بالخللان والحظايا فلا يستطيع أن يختار أصالح من لديه من القادة والوزراء ، وكان شديد الصراحة لا يخفى أمراً إلى حد لا يصلح معه لأن يكون دبلوماسياً قديراً . وحزنت أخته مرجريت بسبب عجزه عن الحكم ، وتلبأت بأن الإمبراطور الداهية العنيد سوف يزيحه عن فرسه في مقارعتهما التي دامت مدى الحياة . أما لويس الثاني عشر الذي كان يعجب به « بوصفه شاباً شهماً رقيقاً » . فقد رأى في توجس إفراط خلفه في الملذات . وقال : « لا فائدة من كل ما نعمل ، إن هذا الولد العظيم سوف يفسد كل شيء » (١٠) .

٢ - فرنسا في عام ١٥١٥

كانت فرنسا وقتئذ تنعم برخاء تجود به تربة بخية ، ويتحقق على يد شعب ماهر يحسن التدبير وحكم خير . وكان عدد السكان زهاء ١٦ر٠٠٠ر٠٠٠ نسمة في مقابل ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ نسمة في إنجلترا و ٧ر٠٠٠ر٠٠٠ نسمة في أسبانيا . وكانت باريس بسكانها البالغ عددهم ٣٠٠ر٠٠٠ نسمة تعد أكبر مدينة في أوروبا بعد القسطنطينية . وكان البناء الاجتماعي نصف إقطاعي : فكل الفلاحين تقريباً كانوا يملكون الأرض التي يفلحونها ، ولكنهم كانوا يحتفظون بها عادة في إقطاع من الأرض - وكانوا يدفعون مكوساً أو يؤدون خدمات - لسادة وفرسان مهمتهم تنظيم الزراعة وتقديم الحماية العسكرية لإقليمهم وللأمة . وأدى التضخم الناتج من تكرار خفض العملات والتعددين

أو استيراد المعادن الثمينة إلى تيسير دفع المكوس المالية التقليدية ، وأتاحت للفلاحين إمكانية شراء الأرض رخيصة من الملاك الأثرياء والنبلاء الفقراء ، ومن ثم انتشر في الريف رخاء أشاع المرح في نفس الفلاح الفرنسي وجعله يتشبث بعقيدته الكاثوليكية ، بينما كان الفلاح الألماني يقوم بثورة اقتصادية ودينية ، وحفزت الملكية الطاقاة الفرنسية فجنت من الأرض أفضل أنواع القمح والكروم في أوروبا ، وسمت الماشية وتضاعف عددها ، وكان اللبن والزبد والجبن يقدم على كل مائدة ، والدجاج وغيره من الدواجن تربي في كل فناء تقريباً ، وتقبل الفلاح الرائحة المنبعثة من حظيرة خنازيره كما لو كانت شذى مباركاً من أعراف الحياة .

أما العامل في المدينة - وهو في الغالب صانع ماهر يعمل في حانوته - فلم يكن له نسبياً نصيب من هذا الرخاء ، لقد أدى التضخم إلى سرعة ارتفاع الأسعار بصورة تفوق زيادة الأجور ، وساعدت التعريفات الجمركية التي فرضت لحماية السلع المحلية والاحتكارات الملكية ، مثل استخراج الملح ، على ارتفاع نفقات المعيشة . وأضرّب العمال المتدمرون ، ولكنهم جميعاً ، على وجه التقريب ، لم يظفروا إلا بالفشل والخيبة . وحرّم القانون على العمال الاتحاد لأغراض اقتصادية . وكانت القوافل التجارية تنتقل متراخية على طول الأنهار الفيضاضة وتسير بصعوبة على طول الطرق السيئة ، وتدفع لكل سيد ضريبة للمرور في أملاكه ، وكانت ليون التي تلتقي فيها تجارة البحر الأبيض المتوسط القادمة صعوداً من الرون بسيل البضائع القادمة من سويسرة وألمانيا ، تعد ثاني مدينة بعد باريس في الصناعة الفرنسية . والثالثة بعد أنتورب باعتبارها سوقاً للأوراق المالية أو مركزاً للاستثمار والتمويل . وكانت التجارة تنطلق من مارسيليا ، وتجوب البحر الأبيض المتوسط ، وتجنّي الربح بفضل العلاقات الودية التي جرؤ فرانسييس على الاحتفاظ بها مع سليمان والأتراك .

وغنم فرانسيس من هذا الاقتصاد ، على غرار ما كانت تفعله الحكومات ، دخولا وصلت إلى الحد الذى يدفعه إلى التسامح . وكانت ضريبة الملك أو السيد ، التى تفرض على الرعوس والأموال ، تنقل كاهل الجميع ، ما عدا النبلاء ورجال الدين ، وكان الأخيرون يدفعون للملك ضرائب عشور ومنحا كنسية ، أما النبلاء فكانوا يقدمون الفرسان ويجهزونهم ، وكان هؤلاء الفرسان لا يزالون عماد الجيوش الفرنسية وقوتها الضاربة . وتلقى فرانسيس درساً من البابوات فباع - وأنشأ للبيع - ألقاباً للنبلاء ومناصب سياسية . وبهذا كونا الأغنياء الجدد على الأيام طبقة أرستقراطية جديدة (كما حدث فى إنجلترا) ، وأسس المحامون بشرائهم للمناصب ، بيروقراطية قوية كانت تدير حكومة فرنسا - وأحياناً بغير علم الملك .

ولم يجد الملك بسبب انهماكه فى الملذات وقتاً كافياً يدير فيه شئون الحكم ، فأتاب عنه فى تولى مهامه ، حتى فى رسم سياساتها ، رجلاً مثل أمير البحر - بونيفيه وآن دى مونمورنسى والكردينالين دوبرا ودى تورنون وللفيكونت دى لوتريك . وكانت هناك ثلاثة مجالس تعاون هؤلاء الرجال والملك وتشير عليهم بالرأى ، وهى : مجلس خاص من النبلاء ، ومجلس أخص للشئون ، ومجلس موسع ينظر فى طلبات الاسترحام المقدمة إلى الملك . وفيما عدا هذا كان المجلس النيابى فى باريس ، ويتألف من ٢٠٠ عضواً من العلمانيين ورجال الدين ، يعينهم الملك مدى الحياة ، بمثابة محكمة عليا . وكان له الحق فى الاعتراض عليه عندما يرى أن مراسيمه تتعارض مع قوانين فرنسا الأساسية ، وكانت مراسيمه تظل تفتقر إلى قوة القانون إلى أن تقوم هذه الهيئة القديمة بـ « تسجيلها » - بل بالتصديق عليها فى واقع الأمر .

ولما كان المحامون والشيوخ يغلبون على المجلس النيابى فى باريس ، فقد أصبح الجهاز القومى السياسى للطبقات الوسطى وأضحى - بعد السوربون -

أكبر هيئة محافظة في فرنسا . وكانت المجالس النيابية المحلية والمحافظون الذين يعينهم الملك ، يديرون شئون الحكم في المقاطعات ، وتجاهل الجميع حينما مجلس الطبقات ، وحلت جباية الضرائب محل المنح التي تقدم على سبيل المساعدة ، وتضائل دور طبقة النبلاء في الحكومة .

وكان النبلاء يقومون بوظيفة مزدوجة : تنظيم الجيش وخدمة الملك في البلاط . وكانت الحاشية التي تتألف من الرؤساء الإداريين ورؤوس النبلاء وزوجاتهم وأبناء الأسرة وأصفياء الملك ، قد أصبحت وقتذاك على رأس فرنسا وفي الصدر منها ، ومرآة تعكس البدع والمهرجان الملكي الدائم المتحرك ، وعلى قمة هذه الدورة كان مدير قصر الملك الذي كان ينظم كل شيء ويرعى البروتوكول ، ثم الحاجب المكلف بغرفة نوم الملك ، ثم أربعة من السادة الموكلين بمخدع الملك ، أو كبار الوصفاء الذين كانوا دائماً رهين إشارة الملك لتلبية رغباته ، وكان هؤلاء الرجال يستبدل بهم آخرون كل ثلاثة أشهر ، وذلك لمنح غيرهم من النبلاء فرصة يحل فيها الدور عليهم للقربى البهيجة من الذات الملكية . ولكيلا يتعترض أحد للإغفال كان هناك عدد من السادة يتراوح بين عشرين وأربعة وخمسين لمخدع الملك يخدمون الأربعة الكبار ، يضاف إلى هؤلاء اثنا عشر وصيفاً للمخدع ، وأربعة حجاب للمخدع ، وكانت أجنحة نوم الملك تلقى العناية المناسبة ، وكان هناك عشرون سيداً يعملون مشرفين على مطبخ الملك ، وينظمون أعمال جماعة تتألف من خمسة وأربعين رجلاً وخمسة وعشرين من سقاة الخمر . وكان هناك نحو ثلاثين غلاماً من وصفاء الشرف - أولاد لهم نسب جليل - يعملون وصفاء للملك ، ويتألقون في زى مفضل خاص ، وجمع من أمناء السريضاغفون من طاقة الملك على التدوين والتذكر ، وكان القس الأكبر للكنيسة الملكية كردينالا ، ويشرف أسقف على المحراب أو المصلى ، وسمح لخمسين من الأساقفة الأبروشيين بإسباغ البركة على اليلاط ، وبذلك

يزدادون شهرة . وأنشئت مناصب شرف مثل : « خدم الغرفة الخاصة بمرتب قدره ٢٤٠ جنياً ، وقد منحت للقيام بمهام مختلفة ، كالتي أنعم بها على علماء مثل بوديه وشعراء مثل مارو . ولا يفوتنا أن نذكر سبعة أطباء وسبعة جراحين وأربعة حلاقين وسبعة مرتلين وثمانية صناع ماهرين وثمانية كتبة للطبخ وثمانية حجاب بقاعة الاجتماعات . وكان لكل ولد من أبناء الملك خدمه الخاصون به . . مشرفون وكتاب سر ومربون ووصفاء وخدم : وكان لكل واحدة من الملكتين في البلاط - كلود ومرجريت - بطانة خاصة تتألف من خمس عشرة سيدة أو عشر سيدات يعملن وصيفات وست عشرة أو ثمان من وصيفات الشرف - آنسات . ومن أعظم ما اشتهر به فرانسيس أنه جعل للنساء مكانة عليا في بلاطه ، وأنه كان يغمز بعين الخبير إلى علاقتهن غير الشرعية ، ويشجع ويستمتع باستعراض حلين ومفاتهن الرقيقة . وقال : « أى بلاط يخلو من السيدات حديقة مجردة من الأزهار (١١) » : ولعل النساء - اللاتي وهبن جمال الفن ، الذي لا تلحقه الشيخوخة - هن اللاتي أضفين على بلاط فرانسيس الأول رونقاً جميلاً وحافظاً على البهجة لا نظير لهما حتى في القصور الإمبراطورية بروما : وكان كل الحكام في أوروبا يفرضون المكوس على شعوبهم ليهيئوا لأنفسهم صورة مصغرة لهذا الحلم الباريسي .

وتحت هذا السطح المصقول كانت هناك قاعدة عريضة من الخدم : أربعة من الطهارة ، وستة من مساعدى الطهارة ، وظهارة متخصصون في أطباق الحساء أو المرقق المتبل أو الشواء ، وعدد لا يحصى من الأشخاص ، لتقديم الطعام إلى الملك وخدمته على المائدة ، وفي المطبخ المشترك للحاشية ، وتلبية احتياجات السيدات والسادة والسهر على راحتهم ، وكان هناك موسيقيو البلاط يقودهم أشهر المغنين والملحنين والعازفين على الآلات في أوروبا خارج روما ، ويشرف على الحظائر الملكية مدرب للخيل ، وخمسة وعشرون من

من رؤساء الركائب النبلاء ، وحشد من الخوذية والسواس ، وهناك رؤساء يشرفون على الصيد ، ومائة كلب و ٣٠٠ صقر يدرّبها ويعنى بها مائة مدرب للصقور تحت إشراف كبير مدربي الصقور . وتألّف حرس الملك من أربعائة من الرماة ، يضيئون البلاط بأزيائهم الملونة .

ولم يكن هناك مبنى في باريس يكفي لمآدب البلاط وحفلاته الراقصة وحفلات الاستقبال الدبلوماسية . وكان قصر اللوفر وقتذاك حصناً كبيراً ، فانصرف عنه فرانسيس إلى القصور المنسقة المعروفة باسم ليه تورنل (الأبراج الصغيرة) قرب الباستيل ، أو إلى القصر الفسيح الذى اعتمد المجلس النيابي أن ينعقد فيه ، ومع أنه كان لا يزال يعشق الصيد فقد انتقل إلى فونتينباو أو إلى قصوره الممتدة على نهر اللوار في بلوا أو شامبور أو امبواز أو تور - ساحباً معه نصف الحاشية وثروة فرنسا . وقد وصف شليني بمبالغته المعهودة ولى نعمته الملك بأنه كان يسافر ومعه بطانة مكونة من ١٨٠٠٠ شخص و ١٢٠٠٠ جواداً (١٢) . واحتج السفراء الأجانب على ما يتكبّدونه من نفقات ومشقة ، فى سبيل لقاء الملك أو مسابرة ، وإذا وجدوه فإنه يكون على الأرجح ، نائماً فى فراشه حتى الظهر ، يفتق من المتع التى نعم بها فى الليلة الماضية ، أو منصرفاً إلى ما يلزم لرحلة صيد أو مباراة للفروسية . وكانت نفقات هذا المجد الطواف باهظة ؛ وكانت الخزانة دائماً على شفا الإفلاس ، والضرائب ترتفع على الدوام ، والمصرفيون فى ليون يُكرهون على تقديم قروض للملك ، يتعرضون فيها للمخاطر . وعندما أدرك الملك عام ١٥٢٣ أن نفقاته تتجاوز موارده ، وعد بوضع حد لإشباع رغباته الشخصية « وهى لا تشمل على أية حال المطلب العادى لاحتياجاتنا ومتعنا القليلة (١٣) » . وكان يلتمس لنفسه عندياً فى تبذيره بحاجته إلى التأثير فى المبعوثين والتغلب على النبلاء الطموحين ، وإدخال البهجة على قلوب العامة ، ورأى أن الباريسيين يتعطشون للعروض ، وأن إعجابهم بأبهة ملكهم يفوق استيائهم منه .

وأصبحت حكومة فرنسا آنذاك مزدوجة الجنس . فكان فرانسس يحكم في الظاهر حكماً مطلقاً ، بيد أنه كان يعشق النساء إلى درجة جعلته يخضع لأمه وشقيقته بل وزوجته . ولا بد أنه كان يحب كلود إلى حد ما لأنها ظلت على الدوام حاملاً منه ، وقد تزوجها لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ، وشعر بأن من حقه أن يقدر نساء أخريات خلقن في صورة فنية أجمل منها . وحذت الحاشية حذو الملك في ممارسة فن فحش ظريف . ووطن رجال الدين أنفسهم على قبول هذا الوضع بعد إبداء الاعتراض المناسب ، أما الشعب فلم يبد أي اعتراض ، ولكنه قلد شاكرآ ستة الحاشية الدمثة - ما عدا فتاة واحدة ، قيل لنا إنها شوهدت جالها عمداً لتنجو من الفسق الملكي (١٥٢٤) (١٤) .

وكانت أقوى النساء نفوذاً في البلاط والدة الملك ، وقالت لويز أميرة سافوى إلى قاصد رسولى : « وجه خطابك لى ، وسوف نسير في طريقنا ، وإذا شكنا الملك فإننا سنتركه يتكلم كما يشاء (١٥) » ، وكثيراً ما كانت على صواب في نصيححتها . وعندما تولت الحكم كقائمة للملك ، أصبحت البلاد خيراً مما كانت عليه بين يديه المترخيتين . ولكن أطعها دفعت دوق بوربون إلى خيانة الوطن ، وأدت إلى هلاك جيش فرنسى جوعاً في إيطاليا . وغفر لها ابنها كل شيء ، وشعر بالشكر لأنها جعلت منه لها .

٣ - مرجريت أميرة ناغار

ولعله كان يحب شقيقته حباً لا يفوقه إلا حبه لأمه ، وإن كان يزيد على حبه لعشيقاته - وقد منحته موازرتها شيئاً أقل خلوداً وعمقاً من تمجيدها المجرد من الأنانية . وكانت لا تعيش إلا للحب - حب أمها وشقيقها وزوجها ، وهو حب أفلاطونى وحب دينى صوفى . وثمة حكاية لطيفة تقول : « لقد ولدت وهى تبسم ، وتمد يدها الصغيرة لكل

قادم^(١٦) » وقد أطلقت على أمها وشقيقتها ونفسها اسم « ثالوثنا » ، وقنعت بأن تكون « الزاوية الصغرى » في ذلك « المثلث المتساوي الأضلاع^(١٧) » . وكانت بحكم مولدها مرجريت أميرة أنجوليم وأورليان وقالوا . وتكبر فرانسيس بعامين ، فأسهمت في تنشئته وشاركته ألعاب الطفولة ، وكانت بمثابة « أمه وعشيقته وزوجته الصغيرة^(١٨) » . وسهرت عليه في كلف شديد كما لو كان إلهاً مخلصاً قد تحول إلى إنسان ، وعندما وجدت أنه كان مسرفاً في شهواته الجنسية مثل « الساطير » تقبالت ذلك التصرف منه باعتباره حقاً لإله من آلهة الإغريق ، على الرغم من أنها بالذات لم تلحقها أى لومة من بيتها . وقد فاقت فرانسيس في الدراسات ، ولكنها لم تضارعه قط في تقدير الفن بعين خبيرة . وتعلمت الإسبانية والإيطالية واللاتينية واليونانية وبعض العبرية ، وأحاطت نفسها وقد تملكها رغبة جامحة ، بالأدباء والشعراء وعلماء اللاهوت والفلاسفة ، ومع ذلك فإنها كانت تمحول يوماً بعد يوم إلى امرأة جذابة ، ولم تكن جميلة الجسد إذ كان لها ذلك الأنف الطويل الذى اشتهر به آل فالوا ، ولكنها كانت ذات سحر أخاذ بفضل مفاتن شخصيتها وذكائها . وكانت عطوفاً ، لطيفة كريمة حنوناً ، وكثيراً ما كانت تندفع في مجون مرح . وكانت تعد من أبرع الشواعر في هذا العصر ، وكان بلاطها في نراك أوبو من أعظم المراكز الأدبية تألقاً في أوروبا ، وكان كل إنسان يحبها ويود أن يكون بقربها ، وأطلق عليها أهل ذلك العصر الرومانسى الساخر لقب لؤلؤة آل فالوا — لأن مرجريتا Margarita باللاتينية معناه لؤلؤة ، وانتشرت أسطورة جميلة تقول إن لؤلؤة أميرة سافوى حمات بها بعد أن ابتلعت لؤلؤة .

وتعد رسائلها لأخيها من أجمل وأرق ما كتب في الأدب . ولا بد أنه كان يطوى جوانحه على الكثير من الخير ، ليفترع منها مثل هذا الإخلاص . وكانت غرامياتها الأخرى تتفاوت مدأً وجزراً وتأنجج أو تفتقر ، أما هذه

العاطفة الطاهرة فقد استمرت نحسين عاماً وكانت قوية على الدوام : وإن فسأت ذلك الحب كادت تطهر هواء ذلك العصر المعطر .

وقد أثار جاستون دى فوا ، ابن أخى لويس الثانى عشر ، أول مشاعر غرامها ، ثم انطلق إلى إيطاليا ليغزو ويقضى نحبه فى رافنا (١٥١٢) ، وسقط جيوم دى بونيفيه صريع هواها ، ولكنه وجد أن قلبها لا يزال مشغولاً بجاستون ، فنزوح لإحدى وصيفاتها ، ليكون بالقرب منها ، وزفت فى السابعة عشرة من عمرها (١٥٠٩) إلى شارل ، دوق أنسون ، وكان بدوره سليلاً لأسرة ملكية . وقد دعا فرانسيس إلى هذا الزواج توثيقاً لأواصر المصاهرة بين أسر متنافسة إلى درجة مزعجة ، بيد أن مرجريت وجدت أن من العسير عليها أن تحب هذا الشاب ، وعرض عليها بونيفيه أن تلتمس السلوى عن ذلك بالحناء ، فشوهت وجهها بحجر حاد لتخمد سحر فتنتها له ، وذهب كل من لانسون وبونيفيه إلى إيطاليا للقتال من أجل فرانسيس ، ومات بونيفيه مبيعة الأبطال فى بافيا ، أما لانسون فيقال إنه فر وقت تآزم المعركة ، وعاد إلى ليون ، ليجد نفسه موضع الاحتمار من الجميع ، وانتهرته لويز أميرة سافوى ، ووصفته بأنه جبان ، فسقط مريضاً يداء ذات الحب ، ووصفت عنه مرجريت ، ومهرت على تمريره فى حنان ولكنه مات (١٥٢٥) .

وبعد عامين من ترميل مرجريت ، تزوجت ، وكانت وقتذاك فى الخامسة والثلاثين ، من هنرى دلبريه ، الملقب بملك نافار ، وهو شاب فى الرابعة والعشرين من عمره ، ولما كان هنرى مبعداً عن إمارته بسبب مطالبة فرديناند الثانى وشارل الخامس بنافار ، فإن فرانسيس نصب هنرى حاكماً على غينا ، وأنشأ بلاطاً مصغراً فى نيراك وأحياناً فى بو فى جنوب غربى فرنسا ، وعامل مرجريت معاملة الأم بل الحماة تقريباً ، ولم يحذ حذوها فى إخلاصها لعهود الزواج ، واضطرت إلى أن تلتمس لنفسها السلوى بالقيام

بدور المضيئة والحامية لكتّاب وفلاسفة ولاجئين من البروتستانت . وأنجبت عام ١٥٢٨ ابنة هنرى هى جان دلبريه ، التى قلدر لها أن تحظى بالشهرة باعتبارها أم هنرى الرابع ، وبعد عامين أنجبت ابنا مات فى مرحلة الطفولة ، ومنذ ذاك لم تلبس إلا ثياب الحداد . وكتب لها فرانسيس رسالة تفيض ورعا وحنانا كأى رسالة يمكن أن نتوقعها من يراعها . ومهما يكن من شىء فإنه سرعان ما أمرها هى وهنرى بتسليم جان له ، لتنشأ بالقرب من البلاط الملكى . فقد خشى أن يخطبها هنرى لفيليب الثانى ملك أسبانيا ، أو أن تشب بروتستانتية . وكان هذا الفراق أشد النوائب الكثيرة التى أصابت مرجريت قبل وفاة الملك ولكنه لم يصددها عن الإخلاص له . ولأنه لأمر يدعو إلى الأسى ، وإن كان هذا ضروريا أن نروى ما حدث عندما أمر فرانسيس جين بالزواج من الدوق دى كليف ، ورفضت جين ، فأيدت مرجريت الملك إلى حد أنها أصدرت تعليماتها لمربية جين بجلبها إلى أن تلدعن . وضربت جين مرارا عديدة ، ولكن جين الشجاعة - وكانت فتاة فى الثانية عشرة من عمرها - أصدرت وثيقة موقعة منها نصت على أنها إذا أكرهت على الزواج فإنها سوف تعتبره لاغيا . ومع ذلك فقد أعدت الترتيبات للزفاف على أساس نظرية تقول إن حاجات الدولة هى القانون الأعلى ، وقاومت جين حتى آخر لحظة ، وكان لا بد من حملها إلى الكنيسة حملا . وما أن انتهت مراسم الحفل حتى فرت ، وذهبت لتعيش مع أبويها فى بو حيث كاد تبديرها فى الإنفاق على الثياب والبطانة وإسرافها فى التبرعات يؤدى بها إلى الخراب ،

وكانت مرجريت نفسها المثال المجسم للإحسان . وكانت تسير دون أن يرافقتها حارس فى شوارع بو « مثل أى فتاة هسيطة » ، وتسمح لكل من يريد بمقابلتها ، وتستمتع مباشرة إلى أشجان شعبها وقالت : « ينبغى ألا ينصرف أحد حزيننا أو مغموما من حضرة أمير ، لأن الملوك هم رعاة الفقراء . . . والفقراء عيال الله » (١٩) . وأطلقت على نفسها لقب « رئيس

وزراء الفقراء » وكانت تزورهم في دورهم وتبعث إليهم بالأطباء من حاشيتها ، وشارك هنرى تماما في هذا لأنه كان حاكما ممتازاً ، بقدر ما كان زوجا مقصراً ، وكانت الأشغال العامة التي أدارها تصلح أنموذجا لفرنسا ، فقد مول هو ومرجريت تعليم عدد كبير من الطلبة الفقراء من بينهم أميو الذى ترجم فيما بعد كتاب بلوتارخ ، وقدمت مرجريت المأوى والأمان لمارو ورابليه وديبريه وليفيير دينابل وكالفن ولكثيرين غيرهم ، إلى حد أن أحد من أسبغت عليهم حمايتها قارنها به « دجاجة تتعهد أفرانها بعناية وترفرف عليهم بجناحيها (٢٠) » .

وإلى جانب ما كانت تقوم به من أعمال البر كانت تهتم بثلاثة أمور غلبت على حياتها فى نيراك وبووهى : الأدب والحب الأفلاطونى واللاهوت الصوفى الذى وجد متسعا للكاثوليكية والبروتستانتية على السواء ، وتسامح حتى مع الفكر الحر . وكان من عاداتها أن تدعو الشعراء ليقروا عليها أشعارهم وهى تتلهى بالتطريز ، وكانت تنظم أشعاراً تستحق بعض التقدير ، يمتزج فيها الحب البشرى بالحب الإلهى فى وجد واحد مبهم . ونشرت إبان حياتها عدة مجلدات فى الشعر والدراما ، ليست فى جودة رسائلها التى لم تطبع إلا عام ١٨٤١ . ويعرف العالم بأسره كتابها الأيام السبعة ، بسبب ما اشتهر به من حكايات بديثة . ولكن أنصار الأدب المكشوف سوف ينجيب ظنهم فيها . فهذه الحكايات رويت بأسلوب العصر ، الذى وجد أعظم فكاهاة فى الخدع والأعمال ، التى تتسم بالشذوذ وتقلبات الحب ، وانحرافات الرهبان عن عهودهم ، والحكايات نفسها تروى بتحفظ . وهذه الحكايات هى التى رواها الرجال والنساء من حاشية مرجريت ، أو من حاشية فرانسيس ، وقد دونتها بنفسها أو دونت لها (١٥٤٤ - ٤٨) ، ولكنها لم تنشرها قط . وظهرت مطبوعة بعد وفاتها بعشر سنوات . وكانت تعزم أن تؤلف بها مجموعة قصص أخرى على غرار « الأيام العشرة » ، ولكن لما كان الكتاب قد توقف

في اليوم السابع من رواية الحكايات ، فإن الناشر أطلق عليه اسم الأيام السبعة ، ويبدو أن كثيراً من القصص الواردة فيه واقعية ، أخفيت شخصياتها بتغيير أسمائهم ؛ ويقول لنا برانتوم إن أمه ، وكانت إحدى رواة القصص ، تعرف حقيقة الأشخاص الذين تخفوا بأسماء مستعارة في الحكايات ، ويؤكد لنا مثلاً أن الحكاية الرابعة من اليوم الخامس هي قصة محاولات بونيفيه مع مرجريت نفسها (٢١) .

ويجب التسليم بأن ذوق عصرنا ، المعترف به ، سوف يكره على الإحساس بالخجل أمام قصص الإغراء التي رواها السادة والسيدات من الفرنسيين ، الذين كانوا يتلهون ويقضون أيامهم في التلهي انتظاراً لفيضان يهبط عليهم ويسمح لهم بالعودة من حمامات كوتيريه ؛ وتثير بعض الملاحظات العارضة الذعر : « أتريد إذن أن تقول إن كل شيء مباح لمن يعشقون بشرط ألا يعرف أحد ؟

أجل ، في الحقيقة ، إن الأغبياء فقط هم الذين يكتشف أمرهم (٢٢) . وإن الفلسفة العامة للكتاب لتجد ما يعبر عنها في جملة لها مغزاها ، وردت في الحكاية الخامسة : « ما أتوسى السيدة التي لا تحرص على الحفاظ على كنزها ، الذي يمنحها الحفاظ التام عليه الكثير من الشرف ، والذي يجلبها بالكثير من العار إن ظلت حريصة عليه (٢٣) » .

ويتخلل الحكايات كثير من العبارات الساخرة المرحة تشبع فيها البهجة ، من ذلك أننا نسمع عن صيدلى ووع من بو « لم يكن له شأن مع زوجته إلا في أسبوع الآلام على سبيل التفكير » (٢٤) وكما هو الحال في كتاب بوكاشيو فإن نصف ما في كتابها من فكاهة يعتمد على لهُو الرهبان . وتقول شخصية في الحكاية الخامسة : « إن هؤلاء الآباء الصالحين يعظوننا بالتزام العفة وهم يريدون أن يدنسوا شرف زوجاتنا » . ويوافق على هذا زوج

انتهك شرفه ويقول : « لمنهم لا يتجاسرون على لمس المال ولكنهم على استعداد لأن يمسكوا بأفخاذ النساء وهي أخطر بكثير » . ولا بد أن يضاف إلى هذا كله أن رواة الحكايات المرححة يستمعون إلى القديس كل صباح ويطهرون كل صفحة يقدونها بعد ذلك بأناشيد التقوى .

والقول بأن مرجريت قد استمتعت بهذه الحكايات أو جمعتهما يشير إلى مزاج العصر ، ويدفعنا إلى الخنز من تصويرها قديسة ، وأنها ظلت كذلك حتى سنوات ذبولها ، ومع ما يبدو من أنها هي بالذات كانت مثابرة على أن تحتفظ بطهارتها ، إلا أنها كانت تبيع لغيرها الانحلال ، ولم تكن تبتدى اعتراضات مدونة على توزيع الملك لسلطاته واستمرت بينها وبين عشيقاته للواحدة إثر الأخرى ، علاقة صداقة حميمة ، والظاهر أن الرجال ومعظم النساء كانوا يفكرون في تبادل الحب بين الجنسين بألفاظ جنسية لا تعرف الاحشام . وشاعت بين الفرنسيات عادة جذابة إبان ذلك العهد الطروب ، هي تقديم هدايا من أربطة سيقانين لرجال لا وجود لهم إلا في الخيال (٢٥) . وكانت مرجريت ترى أن الرغبة الجسدية من الأمور التي يمكن أن يترخص فيها ، إلا أنها هي نفسها أفسحت في قلبها مجالاً للحب الأفلاطوني والديني . وقد انتقلت عبادة الحب الأفلاطوني بين « نوادي الحب » في القرون الوسطى ، وتدعت بأناشيد إيطالية مثل أنشودة بمبو في نهاية قصة « رجل البلاط » . وشعرت مرجريت بأن من الخير أن تقبل النساء ، بالإضافة إلى العاطفة الجنسية المعتادة ، ولاء رجال لا ينالون من الجزاء إلا صداقة دقيقة وبعض صلات الود التي لا ضرر منها ، وأن هذا الارتباط قيم بترويض الحساسية الجمالية في الذكر وتهذيب سلوكه ، وتعليمه الالتزام بقواعد الأخلاق ، ومن ثم فإن المرأة تقوم بتهذيب الرجل . ولكن كان في فلسفة مرجريت حب أرفع من الحب الجلسي أو الأفلاطوني هو حب الخير أو الجمال أو أي كمال ، ومن ثم كان فوقها جميعاً حب الله . ولكن لكي يجب المرء الله لا يله

له اولاً من أن يجب مخلوقاً بشرياً حياً تاماً (٢٧) ، وكانت عقيدتها الدينية معقدة ومبغلة مثل مفهومها عن الحب ، وكما أن ألانية أخيها لم تكدر ولاءها له فإن ما تعرضت له حياتها من مآسٍ وأحداث قاسية تركت عقيدتها الدينية خالصة متحمسة وغير محافظة على أية حال ، وكانت تمر بها لحظات يراودها فيها الشك ، فقد اعترفت في كتاب : « مرآة الروح الخاطئة » بأنها قد شككت في بعض الأوقات في الكتاب المقدس وفي الرب على السواء ، واتهمت الرب بالقسوة ، وتساءلت هل هو حقاً الذي أنزل الكتاب المقدس؟ (٢٧) . وفي عام ١٥٣٣ استدعتها السوربون لتجيب على اتهام بالهرطقة ، فتجاهلت الاستدعاء ، وقال راهب لجمهور أبريشيته لأنها تستحق أن توضع في جوال ويخاط عليها وتلقى في نهر السين (٢٨) ، ولكن الملك أبلغ السوريون والرهبان بأن يتركوا شقيقته وشأنها ، ولم يصدق ما وجه إليها من اتهام وقال : « إنها تحبني كثيراً إلى حد أنها لا تؤمن إلا بما أومن به (٢٩) » . وكانت سعادته بالغة وثقته بنفسه لا حد لها إلى درجة جعلته يحلم بأنه من الهوجنوت . ولكن مرجريت استطاعت أن تفعل ذلك ، وكان لديها إحساس بالإثم ، وصنعت من هفواتها فنن جبال . وكانت تحتقر الهيئات الدينية وترى أنها تافهة لا جدوى منها . ولا هم لها إلا الإصراف في ارتكاب الخطايا ، وشعرت بأن الإصلاح قد فات أوانه من عهد طويل ، وقرأت طرناً من الأدب اللوثري واستحسننت هجائه على فجور رجال الدين وجشعهم ، ودهش فرانسيس عندما وجدها تصلي يوماً مع فرويل (٣٠) - وهو يوحنا المعمدان - عند كالفن . وبينما كانت لا تنقطع عن الصلاة للعدراء في نيراك وبوفي ورع الواثق بنفسه ، فإنها أسبغت حمايتها على اللاجئيين من البروتستانت ومنهم كالفن نفسه . ومهما يكن من شيء فإن كالفن ساءه كثيراً أن يجد في بلاطها مفكرين أحراراً مثل إيتين دوليه ، بونافتير ديبزييه وعنفها على تساهلها ولكنها استمرت فيه . ولكم كان يسرها لو أنها صاغت مرسوم

نانت لحفيدها ، ولقد اجتمعت في مرجريت في لحظة من اللحظات خصائص عصر النهضة وعهد الإصلاح الديني (٣١) .

وانتشر تأثيرها في فرنسا وكانت كل نفس حرة تتطاع إليها باعتبارها حامية لها وممثالا للحرية . وقد أهدى إليها رابليه كتابه *Oargantua* . وكان رونسار ويواقيم دى بلاى يحدوان حدودها بين آن وآخر في صوفيتها الأفلاطونية والأفلاطينية . وإن ترجمات مارو للمزامير لتفوح منها أنفاس روحها نصف الهيوجونوتية . وترنم بايل في القرن الثامن عشر بنشيد لها في معجمه ، وفي القرن التاسع عشر قدم لها ميشليه البروتستانتى في المحفوظة الشعرية المطولة الرائعة التي لا يمل الناس سماعها والمسماة « تاريخ فرنسا » ما يعبر عن شكره بقوله : « فلتتذكر دائماً ما.كة نافار الرقيقة ، هذه الملكة التي وجد قومنا الهاربون من السجن أو المحرقة في أحضانها الأمان والاحترام والصدقة . إننا نعبر عن شكرنا لك أيتها الأم الحبيبة لنهضتنا . لقد كان بيتك دار قديسينا وكان قلبك عشاً لحرابتنا (٣٢) » .

٤ - القرنسيون البروتستانت

لم يحاول أحد البحث في أن الحاجة ماسة لإصلاح ديني ، وظهر هنا رجل الدين الصالح والشريير كما ظهر في أى مكان آخر : قساوسة مخلصون وراهبان متبتلون وراهبات قديسات . وظهر هنا وهناك أسقف نذر نفسه للدين أكثر مما نذرهما للسياسة ، وقساوسة جهلة أو خائرو العزيمة . وراهبان كسالى وفاسقون وراهبان ينبشون عن المال ويتظاهرون بالفقر . وأخوات ضعيفات في الأديان وأساقفة يوثرون عرض الدنيا ويعرضون عن ثواب الآخرة . وبينما ارتفع شأن التعلم هوى الإيمان ، وبينما كان لرجال الدين النصيب الأكبر في التعليم فإنهم أظهروا بسلوكهم أنهم لم يعودوا يتأثرون بفلسفة الحشر والنشر المروعة ، التي أمانتها عليهم يوماً عقيدتهم الرسمية . وخص بعض

الأساقفة أنفسهم بعدد وافر من المناصب والكرامى الأسقفية ، وعلى هذا احتفظ جين دى لورين وتمتع بإيرادات من أسقفيات منز ونول وفردان وأبرشيات ريمس وليون وناربون وألبى وماكون وآجن ونانت وأديار جورز وفيكامب وكلوتى ومارموتيين وسالنا - أورين وسان ده لاون وسان جرميه وسان مدار ده سواسون وسان - مانس دى تول (٣٣) . ولم تكف هذه لتلبية احتياجاته وشكا من الفقر (٣٤) . وندد الرهبان بتكالب الأساقفة على عرض الدنيا ، وندد القساوسة بالرهبان ، ويستشهد برانثوم بعبارة شاعت فى فرنسا وقتذاك وهى : « إنه شحيح أو فاسق كأنه قسيس وراهب (٣٥) » . وأول جملة فى الأيام السبعة تصف أسقف سيس بأنه يتلهف على إغراء امرأة متزوجة . وهناك اثنتا عشرة قصة فى الكتاب تروى بالتفصيل الأعمال المائلة لرهبان مختلفين ، وتقول إحدى الشخصيات : « عندما تقع عينى على راهب يتملكنى رعب شديد ، إلى حد أنى لا أستطيع حتى أن اعترف لهم ، لأنى أعتقد أنهم أسوأ من كل الرجال الآخرين (٣٦) » . وتسلم وازيل - وهو الاسم الذى أطلقتته مرجريت على أمها فى الأيام السبعة - بأن بينهم رجالا صالحين ولكن هذه السيدة نفسها لويز أميرة سافوى كتبت فى يومياتها تقول : « فى عام ١٥٢٢ . . . بدأنا أنا وابنى ، بنعمة الروح القدس نعرف المنافقين ، الأبيض والأسود والأشهب والقاتم . ومن كل الألوان أولئك الذين يحفظنا الرب برحمته الواسعة منهم ويدفع عنا أذاهم ، لأنه إذا لم يكن المسيح كاذبا فليس بين كل أبناء البشرية جيل أخطر منهم (٣٧) » .

ومع ذلك فإن جشع لويز وتعدد نساء ابنها وأخلاق حاشيتها النزاعة إلى الفوضوية لم تكن نموذجا يحتذى به رجال الدين الذين كانوا خاضعين للملك إلى حد كبير . وفى عام ١٥١٦ حصل فرانسيس من ليو العاشر على اتفاقية بابوية تخوله الحق فى تعيين أساقفة فرنسا ورهبانها ، ولكنه لما أسرف

في هذا التعيين الذى بلحا إليه لمكافأة من أدوا له خدمات سياسية ، تأكدت الصفة الدنيوية للأسقفية . ونصت الاتفاقية البابوية السارية المفعول على أن تكون الكنيسة الجاليقية مستقلة عن البابوية وتابعة للدولة . وهذه الوسيلة حقق فرانسيس قبل أن ينشر لوثر رسائله بعام ، في الواقع ، وإن لم يبد ذلك لحسن الحظ في الشكل ، ما كان قيناً بأن يكسبه الأمراء الألمان وهنرى الثامن بالحرب أو الثورة ألا وهو تأميم المسيحية . وماذا كان في وسع الفرنسيين البروتستانت أن يقدموه للملك فرنسا أكثر من هذا ؟

لقد سبق أولهم لوثر . ففي عام ١٥١٢ قام جاك ليفيفر ، المولود في أتابل في بيكاردي والذى قام بالتدريس في جامعة باريس بعد ذلك ، بنشر ترجمة لاتينية لرسائل بولس مع شرح يفسر ، بين هرطقات أخرى ، اثنتين منها ، كانتا حريتين بأن تكونا بعد عشر سنوات متفتحتين في الأساس مع لوثر وهما : « إن الناس يمكنهم أن يظفروا بالخلاص لا بالأعمال الصالحات ، ولكن بالإيمان برحمة الله التى بناؤها بتوضيح المسيح للتكفير عن خطايا البشر ، وإن المسيح موجود في القربان المقدس بفعله وإرادته الطيبة ، لا بأى تجسيد كهنوتى للخبز والتبند . وطالب ليفيفر مثل لوثر بالعودة إلى الإنجيل ، وسعى مثل أرازموس إلى استعادة النص الصحيح للعهد الجديد ، وتوضيحه كوسيلة لتطهير المسيحية من أساطير القرون الوسطى والزيادات الكهنوتية . وأصدر عام ١٥٢٣ ترجمة فرنسية للتوراة وللمزامير بعد ذلك بعام . وقال في إحدى تعليقاته : « ما أشد حزينا عندما نرى أسقفاً يطلب من الناس في إلحاح أن يشربوا معه ، لا هم له إلا المقامرة . . . والصيد باستمرار . . . والتردد على البيوت سيئة السمعة (٢٨) » وأدانته السربون وقضت بأنه هرطيق ففر إلى شتراسبورج (١٥٢٥) ، وتشفعت له مرجريت فاستدعاه فرانسيس وعينه أميناً للمكتبة الملكية في بلوا ومرربياً لأطفاله . وفي عام ١٥٣١ عندما أغضبت أعمال البروتستانت التى تجاوزوا

فيها الحد الملك ، بلخا ليفيفر إلى مرجريت في جنوبي فرنسا وعاش هناك حتى وفاته بالغاً من العمر سبعة وثمانين عاماً (١٥٣٧) .

وشرع تلميذه جيوم بريسونيه الذي عين أسقفاً لمو (١٥١٦) في إصلاح الأستقفية بروح أستاذه ، وبعد اربع سنوات من العمل الحماسي شعر بأنه من القوة بحيث يستطيع أن يقدم على ابتداع تغييرات لاهوتية . فعين للإشراف على الصدقات مصاحين معروفين من أمثال ليفيفر وفاريل ولوري ده بركان وجيرار روسل وفرانسوا فاتابل وشجعهم على أن ينادوا في عظاتهم بـ « العودة إلى الإنجيل » . وأثنت عليه مرجريت وعينته موجهة روحياً لها . ولكن عندما أعلنت السوربون مدرسة اللاهوت التي تسيطر الآن على جامعة باريس - أداثها للوثر (١٥٢١) أمر بريسوفيه زملاءه بمسألة الكنيسة فقد كانت وحدة الكنيسة في نظره ، مثله في هذا مثل أرازموس ومرجريت ، أهم من الإصلاح .

ولم تستطع السوربون أن توقف تدفق الأفكار اللوثرية عبر نهر الراين ، فقد كان الطلبة والتجار يجلبون مؤلفات لوثر من ألمانيا باعتبار أنها تمثل أعظم الأخبار لإثارة وقتذاك ، وأرسل فروبن نسخاً من بازيل لتباع في فرنسا . وتلقف العمال الساخظون العهد الجديد واعتبروه وثيقة ثورية واستمعوا بابتهاج إلى مبشرين استخلصوا من الإنجيل مدينة فاضلة تتحقق فيها المساواة الاجتماعية .

وعندما نشر الأسقف بريسونيه عام ١٥٢٣ على أبواب كاتدرائيته كتاباً للبابا عن صكوك الغفران مزقه جان لكليز ، وكان يعمل في تمشيط الصوف في مو ووضع مكانها إعلاناً ملصوقاً يصف البابا بأنه مناهض للمسيحية ، فقبض عليه ، ووسم بالنار على جبهته (١٥٢٥) بناء على أمر المجلس النيابي لباريس . فانتقل إلى ميتر وهناك حطم التماثيل الدينية ، التي كان من المقرر

أن يمر أمامها موكب لتقديم البخور . وقطعت يده اليمنى واجتث أنفه ، وانزعت حلمتا ثدييه بمالقط ، وربط رأسه بشريط من الحديد المحسى إلى درجة الأحرار . وأحرق حياً (١٥٢٦) (٢٩) . وأرسل عدد كبير من المتطرفين الآخرين إلى المحرقة في باريس بتهمة « التجديف » أو لإنكارهم ما للعذراء والقديسين من تفويض في الشفاعة (١٥٢٦ - ٢٧) .

وكان شعب فرنسا يؤيد بوجه عام عمليات الإعدام هذه (٤٠) وكان يجب عقيدته الدينية ويرى أنها وحى من لدن الله ومن قوله ، ويمتت الهراطقة لأنهم يسلبون من الفقراء أعظم عزاء عندهم ولم يظهر في فرنسا رجل مثل لوثر . يثير الطبقة الوسطى ضد طغيان البابا ، فقد كانت الانفاقية البابوية تمنع استنائة مثل هذه ولم يكن كالفن قد وصل بعد إلى الشهرة الجنيقية التي تتيح له أن يبعث بدعوته الصارمة للإصلاح . ووجد الثائرون بعض التأييد بين طبقة الأرسقراطية بيد أن السادة والسيدات كانوا قليلي الاهتمام إلى درجة أنهم لم يتشبهوا بالأفكار الجديدة إلى الحد الذي يخل بعقيدة الشعب أو يقض مضاجع الحاشية ، وقد تسامح فرانسس نفسه مع الدعاية اللوثرية ما دامت غير منطوية على أى تهديد بقيام فتنة اجتماعية أو سياسية ، وكانت له بدوره شكوكه الخاصة - في سلطات البابا وبيع صكوك الغفران ووجود المطهر (٤١) ، ولعله رأى أن يستخدم تسامحه مع البروتستانتية سلاحاً يشهره ضد بابا يميل كثيراً إلى الانحياز لشارل الخامس . وكان يعجب بارازموس وسعى إليه لتعيينه في الكلية الملكية الجديدة ، وكان يؤمن معه بتشجيع التعليم والإصلاح الكهنوتي - ولكن بخطوات لا تقسم للشعب إلى نصفين متحاربين أو تضعف تأثير الخدمات التي تقدمها الكنيسة لتهذيب أخلاق الأفراد والنظام الاجتماعي (٤٢) . وكتبت مرجريت إلى بريسونيه عام ١٥٢١ تقول : « إن الملك والسيدة (لويز أميرة سافوى) على أهبة الآن أكثر من أى وقت مضى لإصلاح الكنيسة (٤٣) » ، وعندما قبضت

السوربون على لوى ده بركان لقيامه بترجمة بعض مصنفات لوثر (١٥٢٣) أطلق سراحه بفضل تشفع مرجويت له عند الملك . ولكن فرانسيس أفرعته ثورة الفلاحين في ألمانيا التي يبدو أنها نشبت نتيجة الدعاية البرتستانية ، وقبل أن يرحل ليلقى الهزيمة في بافيا أمر الأساقفة بسحق الحركة اللوثرية في فرنسا .

وبينما كان الملك أسيراً في مدريد ، سجن بركان مرة أخرى ولكن مرجريت حصلت ثانية على أمر بإطلاق سراحه . وعندما فك إسار فرانسيس نفسه انهمك في يوبيل للتحرر ، ولعله فعل هذا إقراراً بفضل شقيقته التي سعت كثيراً ، لتحريره ، فاستدعى ليفيغور وروسل من المنفى وشعرت مرجريت بأن الحركة من أجل الإصلاح الديني قد ظفرت بيومها الموعود .

ووقع حادثان دفعا الملك إلى العودة لعقيدة المحافظين . فقد كان في حاجة للمال لافتداء ولديه اللذين كان قد سلمهما لشارل مقابل حصوله على حريته . ووافق رجال الدين على منحه ١٣٠٠٠٠٠٠ جنيه ولكنهم أرفقوا بالمنحة التماساً بوقفه أكثر حزمًا مع الهرطقة ، فوافق (١٦ ديسمبر سنة ١٥٢٧) ، وفي يوم ٣١ مايو سنة ١٥٢٨ هاله أن يعلم بتحطيم رأس العذراء والابن في تمثال لها خارج كنيسة في أبرشية سان جرمان أثناء الليل . وصاح الناس يطالبون بالانتقام ، وعرض فرانسيس ألف كراون مكافأة لمن يعثر على المخربين وقاد موكباً حزيناً من الأساقفة وموظفي الدولة والنبل وعامة الناس لترميم التمثال المحطم برأسين من الفضة . وانتهزت السوربون فرصة رد الفعل لسجن بركان مرة أخرى وبينما كان فرانسيس غائباً في بلوا ودفعت باللوثرى الذي رفض التوبة إلى المحرقة (١٧ إبريل عام ١٥٢٩) وسط فرحة الحاضرين من الجمهور (٤٤) .

وكان مزاج الملك يتغير تبعاً لتغيرات دبلوماسيته ، ففي عام ١٥٣٢ ، وقد أغضبه تعاون كليمنت السابع مع شارل الخامس قدم عروضاً للأمرء

اللوثريين الألمان وأذن لمرجريت بتنصيب روسل مبشراً للجهير كبيرة في اللوفر ، وعندما احتجت السوربون نفى زعماءها من باريس .

وفي أكتوبر سنة ١٥٣٣ كان علي وفاق مع كليمنت ، فوعد بانخاذ لإجراءات فعالة ضد الفرنسيين البروتستانت . وفي أول نوفمبر ألقى نيكولاس كوب خطابه في الجامعة ، فاستشاطت السوربون غضباً وأمر فرانسيس باضطهاد جديد . ولكن اشتدت وقتذاك حدة نزاعه مع الإمبراطور فأرسل جيوم دى بلاى المناصر للإصلاح إلى فينبرج ليطلب من ملانكتون أن يتوصل لصيغة توفيق بين العقيدة القديمة والأفكار الجديدة (١٥٣٤) وبهذا يجعل في الإمكان عقد تحالف بين ألمانيا البروتستانتية وفرنسا الكاثوليكية . فأذعن ملانكتون وأخذت الأمور تتحرك بسرعة عندما قامت جماعة متطرفة من المصلحين الفرنسيين بلبصق إعلانات في شوارع باريس وأورليان وغيرهما من المدن ، بل وحتى على أبواب منجدع الملك في أمبواز تندد بالقداس وتصفه بأنه من قبيل عبادة الأوثان وبالبابا ورجال الدين الكاثوليك ، وتصفهم بأنهم « ذرية دودة . . . مارقون ، ذئاب ، كذابون ، كافرون ومزهقون للأرواح » (١٨ أكتوبر سنة ١٥٣٤) (٤) . فاستشاط فرانسيس غضباً وأمر بسجن جميع المشتبه فيهم بدون تمييز وامتلات السجون . وقبض على عدد كبير من الطابعين ، وظلت الطباعة قاطبة محظورة لفترة ما . وانضمت مرجريت ومارو وكثير من البروتستانت المعتدلين إلى من استنكروا الإعلانات الملصقة . وسار الملك وأولاده والسفراء والنبلاء ورجال الدين في صمت مهيب ، يحملون شموعاً موقدة ليستمعوا إلى قداس أقيم للتكفير في كاتدرائية نوتردام (٢١ يناير سنة ١٥٢٥) . وأعلن فرانسيس أنه سيقطع رأس أولاده إذا اكتشف أنهم يطوون جوارحهم على مثل هذه الهرطقات الخارجة على الدين . وفي عشية تلك الليلة أحرق ستة من البروتستانت حتى الموت في باريس بطريقة رثى

أنها تصلح لتهدئة المعبود . فقد علقوا فوق نار وكانوا يدلون إليها ويرفعون منها مراراً وتكراراً وذلك لإطالة أمد عذابهم^(٤٦) . وأحرق في باريس أربعة وعشرون من البروتستانت وهم أحياء من العاشر من نوفمبر عام ١٥٣٤ والخامس من مايو عام ١٥٣٥ . وزجر البابا بول الثالث الملك لهذه القسوة التي لا داعي لها وأمره بوقف الاضطهاد^(٤٧) .

وقبل أن ينصرم العام كان فرانسيس يخطب ود البروتستانت الألمان من جديد . وكتب بنفسه إلى ملانكتون (٢٣ يوليو سنة ١٥٣٥) يدعو إلى الحضور « والتباحث مع بعض المبرزين من الكاترة عندنا عن الوسيلة لإعادة توطيد دهرهم ذلك التناسق السامى فى الكنيسة ، الذى أرى أنه أحرز أمنية لدى على الإطلاق^(٤٨) » . ولم يحضر ملانكتون ولعله ارتاب فى أن فرانسيس يستخذه شوكة فى جنب الإمبراطور ، وربما أثناءه عن عزمه لوثر أو أمير ساكسونيا المختار الذى قال : « إن الفرنسيين ليسوا من الإنجلييين بل هم إرازميون^(٤٩) » . وكان هذا صحيحاً بالنسبة لمرجريت وبريسونيه ليفيفر وروسل ، ولم يكن صحيحاً بالنسبة لأنصار لصق الإعلانات والهوجينوت الكالفينيين الذين بدأوا يتكاثرون فى جنوب فرنسا . وتغلى فرانسيس عن كل جهوده لاسترضاء البروتستانت بعد مسألة شارل (١٥٣٨) .

ولم يكن أعظم خذى لحق بعهدة إلا نتيجة خطئه إلى حد ما فقد سمح للفروديين أو الولدانيين ، الذين كانوا لا يزالون يحبون الآراء شبه البروتستانتية لبيرت والد ومؤسس طائفتهم فى القرن الثانى عشر ، بالاحتفاظ بوجودهم الذى يشبه نظام طائفة الكويكر ، فى ظل الحماية الماسكية ، فى نحو ثلاثين قرية على امتداد نهر دورانس فى بروفانس : وفى عام ١٥٣٠ شرعوا فى مكاتبة المصلحين فى ألمانيا وسويسرة ، وبعد عامين استخلصوا اعترافاً معقدة تقوم على آراء بوسر وأويكولامبادريوس ، وعقد قاصد رسول

بينهم محكمة للتفتيش فاستغاثوا بفرانسييس ، فأمر بوقف الاضطهاد (١٥٣٣) : ولكن الكردينال ده تورنون ادعى أن الولدانيين كانوا يدبرون مؤامرة تنطوي على خيانة للحكومة ، وأقنع الملك للعليل المتذبذب بتوقيع مرسوم (أول يناير سنة ١٥٤٥) ينص على أن كل الولدانيين الذين يكتشف أنهم مذنبون وتثبت عليهم تهمة الهرطقة يجب أن يعدموا . وفسر موظفو المجلس النيابي في إكس - ان - بروفانس - الأمر بأنه يعنى الإبادة الجماعية . وأبى الجنود في مبدأ الأمر إطاعة الأمر وعلى أية حال فإنهم حملوا على قتل فئة قليلة ثم ألهبهم حرارة القتل فحولوه إلى مذبحه . وفي خلال أسبوع واحد (١٢ - ١٨ أبريل) أحرقت بضع قرى حتى سويت بالأرض ، وفي إحداها ذبح ٨٠٠ رجل وامرأة وطفل ، وفي مدى شهرين أزهقت أرواح ٣٠٠٠٠ نفس ، وهدمت اثنتان وعشرون قرية ، وأكراه ٧٠٠ رجل على العمل في السفن . ولقيت خمس وعشرون امرأة مذعورة لجأن إلى كهف حتفهن ختفاً بنار أشعلت عند مدخله . ورفعت سويسرة وألمانيا البروتستانتيتان احتجاجات مروعة وبعثت أسبانيا بالتهاني إلى فرانسس (٥٠) وبعد عام اكتشفت جماعة لوثرية صغيرة مجتمعة في سو برناسة ببيير لكبير شقيق جين الذى وسم بالنار وعذب أربعة عشر من الجماعة وأحرقوا كما أحرق ثمانية منهم بعد أن انتزعت ألسنتهم (٧ أكتوبر سنة ١٥٤٦) .

وكانت هذه الاضطهادات أعظم فشل منى به عهد فرانسييس . وأضفت شجاعة الشهداء جلالاً وروعة على قضيتهم ، ولا بد أن ألوفا من المشاهدين قد تأثروا وانزعجوا ، ولولا عمليات الإعدام المشهودة هذه لما كلفوا أنفسهم قط عناء تغيير عقيدتهم الموروثة ، وعلى الرغم من الإرهاب المتكرر فإن « حشودا » سريعة من البروتستانت وجدت عام ١٥٣٠ في ليون وبوردو وأورليان وريمس وأميان وبواتييه وبورج ونيم ، ولا روشيل وشالون وديجون وتولوز . وكان الأرض قد انشقت عن فرق من الهوجينوت :

ولا بد أن فرانسيس قد عرف وهو على فراش الموت أنه قد ترك ابنه تمهدق به العداوة من إنجلترا وألمانيا وسويسرة ولم يكن يواجه هذا فحسب بل يواجه أيضاً إرثاً من الكراهية في فرنسا نفسها .

٥ - هابسبورج وقالوا ١٥١٥ - ٢٦

لم يكن من المتوقع أن يرضى ملك متقلب مثل هذا بالتخلي عن كل الآمال التي كانت قد أثارت أسلافه إلى ضم ميلان ، ونابلي إذا أمكن ، ليكونا دوتين في التاج الفرنسي . وقد قبل لويس الثاني عشر الحدود الطبيعية لفرنسا - أي أنه اعترف للألب بالسيادة . وبموجب فرانسيس الاعتراف وتحدى حق الدوق مكسميليان سفورزا في ميلان . وفي غضون المفاوضات التي دارت بينهما بضعة شهور حشد قوة هائلة وجيهاها في أغسطس عام ١٥١٥ سار على رأسها وسلكت طريقاً جديداً مخفوفاً بالمخاطر - واقتنم طريقه عبر جبال صخرية - فوق الألب وانحدر منها إلى إيطاليا - والتقى الفرسان والمشاة الفرنسيون في مارينيانو على مسيرة تسعة أميال من ميلان ، بجنود سفورزا من السويسريين المرتزقة ، واستمر بينهما القتال يومين (١٣ - ١٤ سبتمبر سنة ١٥١٥) حدثت فيهما مقتلة كبيرة لم تعرفها إيطاليا منذ الغزوات البربرية ، وتوكت جثث ١٠٠,٠٠٠ رجل مطروحة على الأرض . وخيل في فترة ما أن الفرنسيين قد هزموا وعندئذ اندفع الملك إلى الأمام وهاجم ونظم صفوف جنده وجعل من نفسه مثالا للجرأة . وجرى العرف أن يكافئ الحاكم المنتصر من يظهرون شجاعة خاصة بتنصيب طبقة جديدة من الفرسان في الميدان ، ولكن فرانسيس قبل أن يفعل هذا أقدم على حركة لها مغزاها لم يسبقه إليها أحد . فقد ركع أمام بيير ، سنيوردى بايار ، وطلب تنصيبه فارساً على يد الفارس المشهور ، الذي لم يتطرق إليه الخوف ، ولم يوجه إليه اللوم ، فاحتج بايار بأن الملك ، بحكم

وظيفته ، فارس الفرسان ، ولا حاجة به إلى تشريف إلا أن الملك الشاب ، كان لا يزال في الحادية والعشرين من عمره ، أصر على ذلك ومضى بإيار يقوم بالمراسم التقليدية بجلال ، ثم طرح سيفه وهو يهتف « لا شك يا سيدي العزيز أنك سوف تحفظ كأى أثر ، وتناك من التشريف فوق ما تناله السيوف الأخرى جميعاً ، لأنك في هذا اليوم أضفيت على ملك وسيم قوى صفة الفروسية ، وإنى لن أحملك قط بعد ذلك إلا لمحاربة الأتراك والمغاربة والعرب (٥١) » . ودخل فرانسيس ميلان بصفته صاحبها وبعث بدوقها المعزول إلى فرنسا ، وخصص له مرتباً مجزياً ، واستولى أيضاً على بارما وبياتشزا ووقع مع ليوالعاشر ، في احتفالات رائعة في بولونيا ، معاهدة واتفاقية يخولان البابا والملك على السواء أن يدعيا الحصول على نصر دبلوماسى .

وعاد فرانسيس إلى فرنسا معبوداً لمواطنيه بل ولأوروبا تقريباً ، فقد سحر جنوده بمشاطرته لإياهم ما لاقوه من مشاق وتفوقه عليهم في الشجاعة ، وعلى الرغم من أنه في غمرات انتصاره قد انغمس في التيه بنفسه ، فإنه خفف من غلوائه ، بالثقة بآخرين وتلطيف حدة كل أنانية بكلمات الثناء والتمجيد . وارتكب وهو ثمل بالشهرة أكبر خطأ في حياته . ذلك أنه رشح نفسه لنتاج الإمبراطورى . وانزعج ، وهو على حق ، باحتمال أن يصبح شارل الأول ، ملك أسبانيا ونابلى وكونت الفلاندرز وهولنده على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة — بكل تلك المطالب في لومباردى ومن ثم ميلان ، التى غزا مكسمليان من أجلها إيطاليا مراراً ، وسوف تكون فرنسا ، فى نطاق إمبراطورية جديدة مثل هذه ، محاطة بأعداء لا يقهرون فى الظاهر .

وقدم فرانسيس الرشا ، وخسر أمام شارل الذى قدم مع الرشا أكثر منه وفاز (١٥١٩) ، وبدأت المنافسة المريرة التى جعلت غربى أوروبا يعج بالاضطرابات إلى ما قبل وفاة الملك بثلاث سنوات .

ولم يعد شارل وفرانسيس من الأسباب ما يدعو إلى تبادل العداء ، فقد زعم شارل ، حتى قبل أن يصبح إمبراطوراً أن له الحق في أن يطالب ببورغندي لأنه حفيد ماري ابنة شارل الجسور ، وأبي أن يعترف باتحاد بورغندي مع التاج الفرنسي . وكانت ميلان من الوجهة الرسمية إقطاعية في الإمبراطورية ، واستمر شارل في فرض الاحتلال الإسباني لنافار ، وأصر فرانسيس على أن تعود إلى هنري دلبريه . وطرح بواعث الحرب هذا السؤال العويص : من هو سيد أوروبا : شارل أم فرانسيس ؟ وأجاب الأتراك بل سايمان .

ووجه فرانسيس الضربة الأولى ، فعندما لاحظ أن شارل مشغول بثورة سياسية في أسبانيا وثورة دينية في ألمانيا أرسل جيشاً عبر جبال البرانس للاستيلاء على نافار من جديد ، فهزم في حملة أهم حادث فيها هو إصابة أجناسيوس لويولا بجرح (١٥٢١) . وانطلق جيش آخر جنوباً للدفاع عن ميلان ، وتمرد الجند بسبب عدم دفع المرتبات ، وهزمتهم الجنود الإمبراطورية المرتزقة هزيمة منكرة في لايبيكوكا ، وسارعت ميلان لترتمي في أحضان شارل الخامس (١٥٢٢) وانطلق قائد الجيوش الفرنسية لمقابلة الإمبراطور لكي يتغلب على هذه الحوادث .

وكان شارل ، دوق أف بوروبون رأس أسرة قوية قدر لها أن تحكم فرنسا من عام ١٥٨٩ إلى عام ١٧٩٢ . وكان أغنى رجل في البلاد بعد الملك ، وبين تابعيه ٥٠٠ نبيل ، وكان آخر البارونات العظام الذين يستطيعون أن يتحدوا ملك الدولة المتمركزة وقتذاك . وقدم لفرانسيس خدمة جليلة في الحرب ، وقاتل بشجاعة في مارينيانو ، أما في الحكم فلم يخدمه بهذا القدر إذ دفع أهالي ميلان إلى النفور منه بسبب حكمه الجائر ، ولما وجد أن الملك لم يزوده بالأموال الكافية قدم ١٠٠٠٠٠٠ جنيه من ماله الخاص ، وهو يتوقع أن تسدد له ، ولكنه لم يتسلم شيئاً . وكان فرانسيس ينظر بعين الارتياب والحسد إلى هذا القليل الذي يوشك أن يكون ملكاً ، فاستدعاه

من ميلان ، ووجه إليه إهانات حمقاء أو مقصودة تسببت في أن يكون بوربون خصمه اللدود ، وكان الدوق قد تزوج سوزان أميرة بوربون التي أوصت أمها بأن تعود ضياعها الشاسعة إلى التاج إذا ماتت سوزان دون أن تعقب ذرية . وماتت سوزان (عام ١٥٢١) ولكن بعد أن حررت وصية تركت فيها كل أملاكها لزوجها . وطالب فرانسيس وأمه بالأملاك باعتبارهما أقرب سليلين لدوق بوربون السابق . وعارض شارل هذا الادعاء وأصدر المجلس النيابي بباريس قراراً ضده . واقترح فرانسيس عقد صلح بمقتضاه يكون للدوق الحق في ربع الأملاك حتى وفاته ؛ بيد أنه رفض الاقتراح . وعرضت لويز ، وكانت وقتذاك في الحادية والخمسين على الدوق البالغ من العمر واحداً وثلاثين عاماً أن يتزوجها مع صك ملكية صريح بالأملاك كبادرة لها ، فرفض . وقدم له شارل الخامس عرضاً يبر العرض السابق : هو أن يزوج شقيقته اليونورا وأن يؤيد مطالبه تأييداً كاملاً بجنود الإمبراطورية ، وقبل الدوق وفر ليلاً عبر الحدود ، وعين قائداً برتبة لفتنانت جنرال للجيوش الإمبراطورية في إيطاليا (١٥٢٣) .

وأثناء فرانسيس ضده لونيقيه . وأثبت عشيق مرجرت أنه غير كفء . وسحق الدوق جيشه في رومانيا ، وفي أثناء تفهقر الجيش أصيب الشيفاليه دي بابار ، قائد حرس المؤخرة الخطيرة بجرح قاتل بطلقة من سلاح نارى (٣٠ أبريل سنة ١٥٢٤) ووجده بوربون الظافر محتضراً تحت شجرة ، فقدم له بعض عبارات الثناء على سبيل المواساة فرد عليه بايار « هولاى إنى أستحق الرثاء ، أنا أدوت بعد أن أدبت واجبى ، ولكنى أرئى لك إذ أراك تعمل ضد مليكك وبلدك وتحنث بقسمك (٥٢) » . وتأثر الدوق ولكنه كان قد أحرق خلفه كل الجسور وعقد اتفاقاً مع شارل الخامس وهنرى الثامن ينص على أن يقوم الثلاثة بغزو فرنسا في آن واحد ، وأن يتغابوا على كل الثورات الفرنسية ، ويقسموا البلاد بينهم . وكان نصيب الدوق من الصنفة أن يدخل

بروفالس ، وأخذ إكس ويضرب حصاراً على مرسلينا ، ولكن حملته كانت تفتقر إلى المون وقوتها بمقاومة عنيفة غير متوقعة وانهارت فراجع إلى إيطاليا (سبتمبر سنة ١٥٢٤) .

ورأى فرانسيس أن من الحكمة أن يطارده ، ويستولى من جديد على ميلان وأشار عليه بونيفيه ، وهو أحمق حتى النهاية ، بأن يستولى أولاً على بافيا ثم ينتفض على ميلان من الجنوب ، فوافق الملك وضرب عليها الحصار (٢٦ أغسطس سنة ١٥٢٤) ، ولكن الدفاع هناك أيضاً كان أقوى من المتوقع ، وظل الجيش الفرنسي محجوزاً عند الخليج أربعة أشهر ، وفي غضون ذلك جمع بوربون وشارل أمير لانوى (نائب الملك في نابلي) والمركيز دى بسكارا (زوج فتوريا كولونا) جيشاً جديداً قوامه ٢٧٠٠٠ رجل . وفجأة ظهرت هذه القوة خلف الفرنسيين . وفي اليوم نفسه (٢٤ فبراير سنة ١٥٢٥) وجد فرانسيس قواته يهاجمها هذا الحشد غير المتوقع من جانب ، وقوات المحاصرين في بافيا من جانب آخر . وحارب كالعادة في طبيعة المشبكين ، وقتل بسيفه الكثيرين من الأعداء ، حتى ظن أن النصر قد تحقق ، ولكنه ضحى بقيادته العسكرية في سبيل إظهار شجاعته ، وكالت قواته موزعة توزيعاً سيئاً ، ومشاته يسرون بين مدفعيته والعدو ، وبهذا جعلوا المدفعية الفرنسية المتفوقة عديمة الجدوى ، وتفشى الاضطراب في صفوف الفرنسيين ، وفر دوق النسون ، وسحب معه حرس المؤخرة ، وصاح فرانسيس في جيشه الذي دبت فيه الفوضى أن يسير وراءه إلى ساحة القتال ، ولكن لم يرافقه إلا أعظم نبلائه شهامة ، وأعقب هذا مذبحاً في الفرسان الفرنسيين ، وأصيب فرانسيس بجروح في وجهه وذراعيه وساقه ، ولكنه ظل يضرب بلا كلل ، وتهاوى فرسه تحته ومع ذلك ظل يقاتل . وسقط فرسانه المخاضون واحداً إثر الآخر إلى أن ترك وحيداً ، وأحدق به جنود الأعداء ، وكان على وشك أن يلتقي مصرعه ، عندما تعرفت عليه

ضابط فأنقذه واقتاده إلى لانوى ، الذى تقبل سيفه ، وهو يقوم بالحناءات
خفيفة للدلالة على الاحترام .

واعقل الملك فى قلعة بيزيجيتون بالقرب من كريمونا ، حيث سمح له بأن
يرسل إلى أمه التى كانت تحكم فرنسا أثناء غيابه رسالته التى كثيراً ما
نقلت كما هى ، وكثيراً ما نقلت محرقة :

« إلى نائبة الملك فى فرنسا : سيدتى ، بودى أن تعرفى مدى معاندة
البقية الباقية من سوء حظى : لم يبق لى فى العالم سوى الشرف وحياتى التى
أنقذت ، ولكى تحمل إليك هذه الأنباء ، وأنت بوئسك ، القليل من
العزاء ، توصلت إليهم أن يسمحو لى بكتابة هذه الرسالة إليك . . . وأنا
أتوسل إليك ألا تقدمى على أى عمل طائش ، وأنت تباشرين ما عرفت به
من فظظة معاندة ، لأنى أرجو ، بعد كل شيء ألا يتخلى عنى الله (٥٣) .

وبعث برسالة مماثلة إلى مرجريت التى ردت على الخطابين :

« مولاي : إن الفرحة التى ما زلنا نشعر بها عند ما تلقينا خطابيك
الكريمين ، اللذين أسعدك أن تكتبهما لى ولأمك ، تجعلنا نحس بالسعادة
لاطمئناننا على صحتك التى تتوقف عليها حياتنا ، ويخيل لى أننا يلغى
ألا نفكر فى شيء سوى أن نحمد الله وأن نتوق إلى أن تصلنا باستمرار
أنبؤك الطيبة ، وهى خير زاد نستطيع أن نعيش عليه . وبما أن الخالق قد
من علينا بأن يبقى ثلوثنا متحداً أبداً فإن الاثنين الآخرين يتوسلان إليك
أن تتقبل هذا الخطاب ، عند ما يقدم إليك ، وأنت الثالث ، بنفس
المودة القلبية التى تقدمها إليك خادماتك المتراضعتان المطيعتان والدتك
وشقيقتك . »

لوز ، مرجريت (٥٤)

وكتب فرانسيس إلى الإمبراطور فى مدريد رسالة جد متواضعة بقول
له فيها « إذا كان يسرك أن ينطوى قلبك على قدر قليل من العطف ،
فمأخذ على عائقك مهمة إنقاذ حياة ملك فرنسا الأسير إنقاذاً يستحقه عن

جدارة . هـ ففى وسعك أن تكون على ثقة من الحصول على كسب بدلا من أسير لا نفع منه ، وبهذا تجعل ملك فرنسا عبدك إلى الأبد . ولم يكن فرانسيس قد تدرب على احتمال المساة (٥٥) .

وتلقى شارل أبناء انتصاره بهدوء ورفض أن يحتفل به ، كما اقترح كثيرون فى مهرجان رائع . وانسحب إلى مخدعه (كما يقال لنا) وركع يصلى . وأرسل إلى فرانسيس ولويز ما خيل له أنها شروط معتدلة لتحقيق السلام وتحرير الملك :

(١) على فرانسيس أن يتخلى عن بورغندي وأن يتنازل عن كل مطالبه فى الفلاندرز وأرتوا وإيطاليا .

(٢) يجب تسليم الدوق بوربون كل الأراضى والمناصب التى يطالب بها .

(٣) يجب منح الاستقلال لكل من بروفانس ودوفنى .

(٤) يجب أن تعيد فرنسا إلى إنجلترا كل الأراضى الفرنسية التى كانت تابعة فيما سبق لبريطانيا - أى نورماندى وانجو وغسقوليا وجين .

(٥) على فرانسيس أن يوقع حلفا مع الإمبراطور وينضم إليه فى حملة توجه ضد الأتراك .

فأجابت لويز بأن فرنسا ان تتنازل عن قيراط واحلهم من الأراضى ، وأنها مستعدة للدفاع عن نفسها حتى آخر رجل ؛ وتصرفت نائبة الملك وقتذاك بقوة وعزم وذكاء مما حمل شعب فرنسا على أن يصفح عن أخطائها التى ركبت فيها رأسها . وعملت فى الحال على تنظيم وإعداد جيوش جديدة وأقامتها لحراسة كل المراكز المحتمل أن تتعرض للغزو . ولكنى تصرفت ذهن الإمبراطور عن فرنسا حث سليمان عاهل تركيا على إرجاء هجومه

على بلاد الفرس وأن يقوم بدلا من ذلك بحملة تتجه غربا ، ولا نعرف الدور الذى لعبه توسلها في القرار الذى اتخذه السلطان ، ولكنه زحف عام ١٥٢٦ إلى هنغاريا وألحق هزيمة منكرة بجيش المسيحيين في موهاكس ، بلغت من الشدة حدا جعل قيام شارل بأى غزو لفرنسا بمثابة خيانة للعالم المسيحى . وفي الوقت نفسه أوضحت لويز هنرى الثامن وكليمنت السابع أن إنجلترا والبابوية على السواء سوف تنحدران إلى مرتبة العبودية إذا سمح للإمبراطور بالحصول على كل الأراضى التى طلبها ، وتردد هنرى فألحت لويز وعرضت عليه تعويضا قدره ٢٠٠٠٠٠٠ كروان فوق حلفا دفاعيا هجوميا مع فرنسا (٣٠ أغسطس سنة ١٥٢٥) وفتحت هذه الدبلوماسية الأندوية عيون الرجال وحطمت ثقة شارل بنفسه .

ونقل الملك الأسير إلى أسبانيا بمقتضى اتفاقية بين لويز ولانوى والإمبراطور ، وعند ما وصل فرانسيس إلى بلنسية (٢ يوليو سنة ١٥٢٥) بعث إليه شارل برسالة رقيقة ، ولكن معاملته لأسيره لم ترتفع إلى مقام الفروسية . وخصصت لفرانسيس غرفة ضيقة في قاعة قديمة في مدريد ووضعت عليه حراسة مشددة ، وكانت الحرية الوحيدة التى منحت له هى أن يمتطى ظهر بغل بالقرب من القاعة تحت رقابة حراس مسلحين راكبين . وطلب مقابلة شارل ولكن شارل أجل هذه المدايلة وسمح بسجن فرانسيس أسبوعين سجنا أثار قلقه وغيظه ، حتى يخضع فرانسيس لدفع ثمن باهظ مقابل الحصول على حريته . وعرضت لويز أن تقابل الإمبراطور وتتفاوض معه ولكنه رأى من الأفضل أن يلعب على سجيته بدلا من أن يتعرض لفتنة امرأة تجعله ينجح إلى التساهل . فأبلغته بأن ابنتها مرجريت ، وهى أرملة وقتذاك سوف يسعدها أن تجدها جلالته الإمبراطورية ، مناسبة له ، ولكنه آثر عاها إيزابلا أميرة البرتغال ، بصداقتها البالغ قدره ٩٠٠٠٠٠ كراون . فهى تستطيع

أن تزوده في الحال بالمخدع والمأوى ، وبعد أن أمضى فرانسيس شهرين في سجن يتلهف فيه على حربته منقطع صريع مرض خطير . وانطلق الأسبان إلى كنائسهم يصلون من أجل الملك الفرنسي أسفين لقسوة الإمبراطور . وصلى شارل أيضاً ، لأن الملك إذا مات فلن يكون له أهمية كرهينة سياسية ، وزار فرانسيس زيارة قصيرة ووعده بقرب إطلاق سراحه وبعث لمرجريت يأذن لها بالحضور ومواياة أخيها .

وسافرت مرجريت بحرا من ايجمورت (٢٧ أغسطس سنة ١٥٢٥) إلى برشلونه وهناك حملت في هودج بطيء ملئوا اخترق بها نصف طول أسبانيا إلى مدريد ، ووجدت الساوى في قرض الشعر وبعث رسائل حارة متميزة إلى الملك ، وقالت « مهما يطلب منى ، حتى ولو كان أن أنثر رماد عظامى في مهب الريح لأؤدى لك خدمة ، فليس فيه أمر غرب أو صعب أو شاق بالنسبة لى ، وحسبى أن أجد فيه السلوى والراحة والطمأنينة والشرف (٥٦) » . وعندما وصلت بعد لأى إلى مخدع أخيها وجدته يتعافى بشكل ملموس ، بيد أنه أصيب بنكسة يوم ٢٥ سبتمبر ودخل في غيبوبة ، وخيل لمن حوله أنه يحتضر . وركعت مرجريت هى والأسرة يصلون ، وناوله أحد التساوسة القربان المقدس . وتلت هذا فترة نقاهة مضمية . ولبتت مرجريت شهرا مع فرانسيس ثم انطلقت إلى طليطلة لتطلب من الإمبراطور الرحمة ، فتلقى توسلاتها بفتور ، وكان قد علم بحلف هنرى مع فرنسا وتلهف على معاقبة حليفه الأخير على رياته ولويز على جراتها .

ولم تبق في يد فرانسيس إلا ورقة واحدة يلعب بها ، ولو أن من المحقق أو يكاد أنها قد تعنى سجنه مدى الحياة ، وبعد أن أنذر شقيقته بمغادرة أسبانيا بأمرع ما يمكن وقع (نوفمبر سنة ١٥٢٥) خطابا رسميا أعلن فيه تنازله عن العرش لابنه الأكبر ، ولما كان فرانسيس الثانى هذا صهيا لا يتجاوز

عمره ثماني سنوات ، فقد عين لويز - وتعل محلها في حالة وفاتها - مرجريت وصية على عرش فرنسا ، وأدرك شارك في الحال أن ملكا بلا مملكة ، لا يملك شيئاً يتنازل عنه ، لا فائدة ترجى منه ، بيد أن جلد فرانسيس من الناحية البدنية كان أقوى من شجاعته المعنوية ، ففي يوم ١٤ يناير سنة ١٥٢٦ وقع مع شارل معاهدة بليريد وكانت شروطها في جوهرها هي بعينها التي عرضها الإمبراطور على لويز ، بل كانت أقسى منها ، لأنها اقتضت أن يسلم أكبر ابنين للملك إلى شارل رهينتين لضمان تنفيذ الاتفاقية بإخلاص ، وفضلا عن هذا فإن فرانسيس وافق على أن يتزوج إليو نوراشقيقة الإمبراطور ملكة البرتغال الأرملة ، وأقسم على أنه سيرجع إلى أسبانيا ليعود إلى السجن إذا لم ينفذ بنود المعاهدة (٥٧) . ومهما يكن من شيء فإنه أودع في يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٥٢٥ مع مساعديه وثيقة رسمية تلغى مقدا جميع العهود والاتفاقات والتنازلات والمخالفات وكل إلغاء وانتقاص وقسم يمكن أن يتعارض مع شرفه وصالح تاجه ، وفي عشية توقيع المعاهدة ردد هذه العبارة للمفاوضين معه من الفرنسيين وأعلن أنه وقع بطريق الإكراه ، والتسر والاعتقال وطول السجن ، وأن كل ما تضمنته الوثيقة كان ، ويجب أن يظل باطلا ولا أثر له (٥٨) .

وفي يوم ١٧ مارس ١٥٢٦ سلم نائب الملك لانوى وفرانسيس إلى المارشال لوتريك على ظهر نقالة مليئة في نهر بيداسوا ، الذي يفصل إرون الإسبانية عن هنداى الفرنسية ، وتسلم لانوى بدلا منه الأميرين فرانسيس وهنرى . ومنحهما أبوهما بركة ودمعة ، وهرع إلى الأرض الفرنسية . وهناك قفز على ظهر جواد وصاح في ابتهاج « ها أنذا ملك من جديد ! » وركب إلى بايون حيث كانت لويز ومرجريت في انتظاره ، وأضى في بوردو وكونياك ثلاثة شهور قضاها في اللهو والرياضة ليسترد صحته وشغل نفسه بحب صغير . ولم لا ؟ ألم يعش عاماً عيشة الرهبان ؟ وكانت لويز التي

اشتجر النزاع بينها وبين الكونتيسة دي شاتوبرهان قد أحضرت معها وصيفة شرف جميلة شقراء الشعر ، تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، هي آن دي هيلي دي بيسيليو التي أصابت بسهامها ، كما كان مقدرآ ، عيني الملك الجائعتين ، فتودد إليها في اندفاع ، وسرعان ما ظفر بها حظية له . وشاركت الحظية الجديدة منذ تلك اللحظة إلى أن فرقهما المات لوزير ومرجريت في قلب الملك . وتحملت في صبر زواجه باليونورا وعلاقاته غير الشرعية العارضة ، ومنحها لإنقاذ المظاهر زوجاً هو جين دي بروس ، وأنعم عليه بلقب دوق كما أنعم عليها بلقب دوقة ديتامب ، واهتم في إعزاز عندما انسحب جين إلى ضيعة نائية في بريتاني .

٦ - الحرب والسلام : ١٥٢٦ - ٤٧

عندما عرفت شروط معاهدة مدريد بصفة عامة أثارت تقريباً عداة عالمياً لشارل ؛ فقد ارتجف البروتستانت الألمان عندما توقعوا مواجهة عدو عزز قواه إلى هذا الحد ، واستاءت إيطاليا من ادعائه الحق في السيادة على لومباردى ، وأحل كليمنت السابع فرانسيس من قسمه الذي كان قد ارتبط به فرانسيس في مدريد ، وانضم إلى فرنسا وميلان وجنوا وفلورنسا والبندقية في تكوين حلف كونياك للدفاع المشترك (٢٢ مايو سنة ١٥٢٦) ، ووصف شارل ، فرانسيس بأنه « ليس بالسيد المهذب » ، وأمره أن يعود إلى سجنه الإسباني ، وأصدر أوامره بتشديد اعتقال ابني الملك ، وأطلق العنان لقواده لتأديب البابا ،

وتدفق جيش إمبراطوري ، احتشد في ألمانيا وأسبانيا ، إلى إيطاليا وتسلق بالسلام أسوار روما (مات الدوق بوربون في العملية) ، ونهب المدينة نهياً كاملاً أكثر مما فعل بها القوط أو الوندال من قبل ، وقتل ٤٠٠٠ روماني وسجن كليمنت في سان إنجلو . وأكد الإمبراطور ، الذي كان قد بتي في

أسبانيا لأوروبا المدعورة أن جيشه الجائع قد تجاوز تعليماته ، ومع ذلك فإن ممثليه في روما احتفظوا بالبابا سيجيناً في سان انجلو من ٦ مايو إلى ٧ ديسمبر سنة ١٥٢٧ ، وأكروهوا بابا يكاد يكون مفلساً على دفع تعويض قدره ٣٦٨٠٠٠ كراون .

واستغاث كليمنت بفرانسيس وهنرى وطلب منهما العون ، فبعث فرانسيس إلى إيطاليا لوتريك على رأس جيش نهب بافيا منتقماً منها في تمور لمقاومتها له عامين قبل ذلك ، وتساءل الإيطاليون هل الأصدقاء الفرنسيون أفضل من الأعداء الألمان ؟ ومر لوتريك على روما مرور الكرام وحاصر نابولي وبدأت المدينة تعاني من المجاعة . وفي غضون ذلك كان فرانسيس قد أغضب أندريا دوريا قائد بحرية جنوا ، فاستدعى دوريا أسطوله من حصار نابلي وانضم إلى جناب الإمبراطور ومون المحاصرين . وهلك جيش لوتريك جوعاً بدوره ، ومات لوتريك نفسه وذاب جيشه (١٥٢٨) .

ولا تكاد ملهأة الحكام تفرج كرب الشعب . وعندما ظهر مبعوث فرانسيس وهنرى في بوجوس لإعلان الحرب بصفة رسمية ، رد شارل على المبعوث الفرنسي رداً فاجعاً بقوله « إن ملك فرنسا ليس في موقف يسمح له بتوجيه مثل هذا الإعلان إلى ، إنه أسيرى . إن مولاكم قد تصرف مثل أى جبان أفاق بعدم محافظته على وعده الذى ارتبط به في معاهدة مدريد ، وإذا راقه أن يقول ما يخالف هذا فلننى سوف أحافظ على وعدى له بحياتى مقابل حياته (٥٩) » .

وقبل فرانسيس توا هذا التحدى إلى البراز وبعث إليه رسولا يقول له : « لقد قلت لإفكا وهيتاناً مبيناً » : واستجاب شارل بعظمة ، وعين مكان اللزال وطلب من فرانسيس أن يحدد موعد اللقاء ، بيد أن النبلاء الفرنسيين اعترضوا طريق الرسول وأدت لإجراءات التأخير المستأنية إلى تأجيل المباراة

إلى ما لا نهاية . فقد بلغت الأمم درجة من الفمولا يمكن عندها تسوية خلافاتها الاقتصادية أو مصالحها السياسية بنزال فردى أو بجيوش صغيرة من المرتزقة التي كانت تقوم بلعبة الحرب في إيطاليا إبان عصر النهضة ، ولا شك أن الطريقة الحديثة لحسم الأمور بالتنافس في التدمير قد اتخذت شكلها في هذا النزاع بين آل هامسبورج وفالوا (٥) .

واقترح الأمر أن تتصلبى امرأتان لتلقين الحاكين من السلام وحكمته ، فقد اتصلت لويز أميرة سافوى بمرجريت النسوية نائبة الملك في الأراضي المنخفضة ، واقترحت هاها أن يتخلى فرانسيس ، المتلهف على عودة ابلية ، عن كل مطالبه في الفلاندرز وارنوا وإيطاليا وأن يدفع فدية قدرها ٢٠٠٠٠٠٠٠ كراون ذهبي ، لإطلاق سراح ولديه ، على ألا يتنازل أبداً عن بورغنديا ، وأقنعت مرجريت ابن أخيها بإرجاء مطالبته ببورغنديا وأن ينسى مطالب الدوق بوربون ، الذي مات وقتذاك في الوقت المناسب .

وفي ٣ أغسطس عام ١٥٢٩ وقعت المرأتان ومعاونوهما الدبلوماسيون معاهدة صلح السيدات في كامبراي . وحصلت الفدية من التجارة والصناعة ودم فرنسا ، ونعم بالحرية من جديد أمير البيت المالك بعد أربع سنوات من الأسر ، وعادا بقصص تروى عن المعاملة القاسية التي أثارها فرانسيس وفرنسا . وبينما وجدت المرأتان القديرتان صلاماً دائماً - مرجريت

(٥) كانت المبارزة في العصور الوسطى بمثابة إجراء مشروع تمييزه الملكية أو القضاء ويشرفان عليه يحتكم به الخصمان إلى الله . وأصبحت في القرن السادس عشر بمثابة دفاع فردى وخاص عن الشرف المهيب . وتطورت قوانينها الصارمة الخاصة بها خارج قوانين الدولة ، وأسهمت إلى حد ما في تطوير قواعد السلوك المهذب والضبط الحصيف للنفس . وكانت المبارزة مصرحاً بها قانوناً في فرنسا بعد عام ١٥٤٧ ، وظل الرأي العام يميزها . أما في إنجلترا فلم تكن تمارس في عهد إليزابيث ، وعلى أي حال فإن الاحتكام إلى المبارزة ظل مشروعاً هناك حتى عام ١٨١٧ .

عام ١٥٣٠ ولويس عام ١٥٣١ - أخذ الملكان بعدان العدة لاستئناف الحرب بينهما .

وتلفت فرانسيس حوله في كل مكان يطلب العون ، فأرسل إلى هنرى الثامن مبلغاً من المال للتهديّة لأنه تجاهله تقريباً في تسوية كامبراي ، وتعهد هنرى ، وقد أغضبته شارل لمعارضته في « طلاقه » ، بتأييد فرنسا : وفي عام أو نحوه تفاوض فرانسيس للدخول في أحلاف مع الأمراء البروتستانت الألمان ومع الأتراك ومع البابا . ومهما يكن من أمر فإن الحرب الأعظم المتذبذب سرعان ما عقد صلحاً مع شارل وتوجّه إمبراطوراً (١٥٣٠) - هو آخر تنويع لإمبراطور في الإمبراطورية الرومانية المقدسة قام به بابا . ثم ارتاع كليمنت من ملك كان في الواقع قد حول إيطاليا إلى مقاطعة في مملكته ، فسعى إلى عقد رابطة جديدة مع فرنسا بعرضه تزويج ابنة أخيه كاترين دى مديتشي من ابن فرانسيس ، هنرى دوق أورليان ، والتقى الملك والبابا في مارسيليا (٢٨ أكتوبر سنة ١٥٣٣) ، وقام البابا بنفسه بمراسم الزواج ذى المغزى التاريخي . ومات كليمنت بعد عام ، ولم يكن قد استقر رأيه بعد على أى شيء .

وكان الإمبراطور ، الذى شاخ وهو فى الخامسة والثلاثين ، يحمل أعباءه الملقاة على عاتقه فى عزم واهن . وذعر عندما علم - من كلمة وزير السلطان إلى فرديناند ملك النمسا - أن حصار الأتراك لفينا عام ١٥٢٩ ، إنما تم استجابة لاستغاثة فرانسيس ولويس وكليمنت السابع لمساعدتهم ضد الإمبراطورية التى كانت تطوقهم^(٦٠) . وفضلاً عن هذا فإن فرانسيس تحالف مع الزعيم التونسى خير الدين بارباروسا الذى كان يكدر صفو التجار المسيحيين فى غربى البحر الأبيض المتوسط ، ويغير على المدن الساحلية ويسوق الأسرى من المسيحيين إلى أسواق النخاسة . وحشد شارل جيشاً آخر وأسطولا ثانياً وعبر البحر إلى تونس (١٥٣٥) ، واستولى عليها ،

وحرر ١٠ر٠٠٠ عبد مسيحي وكافأ جنوده الذين لم تدفع رواتبهم بإطلاق العنان لهم لنهب المدينة وذبح السكان المسلمين :

وعاد شارل إلى روما (٥ أبريل سنة ١٥٣٦) بعد أن ترك حاميات في بونا ولاجوليتا عودة المدافع المظفر للعالم المسيحي ضد العالم الإسلامي وملك فرنسا . وفي غضون ذلك كان فرانسيس قد جدد مطالبته بميلان ، وفي مارس عام ١٥٣٦ غزا دوقية سافوى لإزالة العقبة التي تعترض طريقه إلى إيطاليا . واستشاط شارل غضباً ، وفي خطاب حار ألقاه أمام بول الثالث البابا الجديد ومجمع الكرادلة بأسره أخذ يعدد مرة أخرى جهوده من أجل السلام . وانتهاك الملك الفرنسي لمعاهدتي مدريد وكامبواي و « الأحلاف التي عقدها جلالتة نصير المسيحية العظيم » (كما كان يسمى فرانسيس) مع أعداء الكنيسة في ألمانيا وأعداء المسيحية في تركيا وإفريقية ، وأنهى خطابه بتحدى فرانسيس مرة أخرى إلى البراز قائلًا : « دعونا لا نستمر في المجازفة بسفك دماء رعايانا الأبرياء ، دعونا نحسم النزاع بالنزال رجلا أمام رجل بأى أسلحة يروقه أن يختارها . . . وبعد ذلك دعوا القوات المتحدة لألمانيا وأسبانيا وفرنسا تستخدم لكسر شوكة الأتراك واستئصال الهرطقة من العالم المسيحي » .

كان خطاباً بارعاً لأنه أجبر البابا على أن ينحاز إلى صف الإمبراطور ، ولكن أحداً لم يأخذ عرضه الخاص بالمبارزة محمل الجد ، فقد كان القتال بالتفويض أسلم * وغزا شارل بروفانس (٢٥ يوليو سنة ١٥٣٦) بجيش قوامه ٥٠ر٠٠٠ رجل وكان يأمل أن يهاجم جناح الفرنسيين أو يشغلهم في سافوى بالزحف أعلى الرون . ولكن القائد آن دى مونمورانس أمر القوات الفرنسية الضعيفة بأن تحرق أثناء انسحابها كل شيء يمكن أن يتزود به جنود الإمبراطور ، وسرعان ما تخلى شارل عن الحملة وكان دائماً يعوزه

المال ولا يستطيع أن يقدم الطعام لرجالها ، وكان بولس الثالث يتلهف على إطلاق يد شارل للقيام بهجوم على الأتراك أو اللوثرين فأقنع العملاق المشلول بالالتقاء معه - في حجرات منفصلة تثير الحماسة - بمدينة نيس وتوقيع هدنة لمدة عشر سنوات (١٧ يونيو ١٥٣٨) . وبعد شهر قامت اليونورا ، وهى زوجة أحدهما ، وشقيقة الآخر ، بتدبير لقاء شخصى بين الملك والإمبراطور في إيجسمورت . وهناك نسيا أنهما ملكان وأصبحا إنسانين ، وركع شارل يحتضن أصغر أولاد الملك ، وأعطاه فرانسيس ماسة ثمينة مركبة على خاتم نقشت عليه عبارة : « شاهد ورمز للحب » ، وخلع شارل من جيبه طوق الخزفة الذهبية ، وانطلقا معاً لسباع القديس ، وابتهج أهل المدينة لشبوع السلام وهتفوا : « الإمبراطور ! الملك » ، وعندما ثارت غنت ضد شارل (١٥٣٩) وانضمت إلى بروجس وإيبرس في عرض نفسها على فرانسيس ، قاوم الملك الإغراء ، وعندما وجد شارل ، في اسبانيا أن سفن المتمردين أو خشية الإبحار « تسد الطرق البحرية ، أجاب فرانسيس طلبه المرور في فرنسا . وأشار على الملك مشروعه بأن يُكره الإمبراطور وهو في الطريق ، على توقيع تنازل عن ميلان للدوق أورليان ، ولكن فرانسيس رفض وقال : « عندما تقوم بشيء كريم يجب أن تفعله كاملاً وبجراً » . ووجد مهرج البلاط يكتب في « يوميات مهرج » اسم شارل الخامس . لأنه كما قال تريوييه أنه يكون أشد بلاهة منى لو أتى ليمر من خلال فرنسا ، فسأله الملك : « وماذا تقول إذا تركته يمر ؟ » فقال : « سوف أمحو اسمه وأدون اسمك مكانه » (٦١) . وترك فرانسيس ، شارل يمر دون أن يعوقه أحد وأمر كل مدينة في الطريق أن تستقبل الإمبراطور بما يستحق من تكريم ملكى واحتفالات .

وانتهت الصداقة المقلقلة عندما أسر الجنود الإسبان بالقرب من بافيا المبعوثين الفرنسيين وهم يحملون عروضاً جديدة من فرانسيس إلى سليمان

للتحالف معه (يوايو سنة ١٥٤١) . وفي هذه الفترة كان بارباروسا يغير مرة أخرى على المدن الساحلية في إيطاليا ، وسافر شارل بجرأ من مالوركا مع أرمادا (*) أخرى للقضاء عليه ، ولكن الأسطول واجه عواصف شديدة أجبرته على العودة خاوى الوفاض إلى أسبانيا . وكان حظ الإمبراطور في هبوط ، فقد ماتت زوجته الشاب (١٦٣٩) التي كان قد تعلم أن يجلبها وكانت صحته تتدهور ، وأعلن فرانسيس الحرب عليه عام ١٥٤٢ بسبب ميلان ، وكان حلفاء الملك وقتذاك السويد والدانمارك وبلدولاند وكليف وسكوتلنده والأتراك والبابا ، ولم يؤيد شارل إلا هنرى الثامن في مقابل ثمن ما ، ورفض المجلس التشريعى الإسباني الموافقة على إعانات مالية إضافية من أجل الحرب ، وانضم الأسطول التركى إلى الأسطول الفرنسى فى ضرب الحصار على نهس ، وكانت وقتذاك أرضاً تابعة للإمبراطور (١٥٤٣) ، وفشل الحصار ، إلا أن بارباروسا وجنوده المسلمين سمح لهم بقضاء الشتاء فى طولون حيث باعوا علناً عبيداً من المسيحيين (٦٢) . واسترد الإمبراطور فى صبر زمام الموقف فوجد وسيلة لإصلاح ذات البين مع البابا ، وكسب إلى صفة فيليب الهسى بالتفاوض عن زواجه من اثنتين ، وهاجم دوق كليف وتغاب عليه ، ووثق صلته بحلفائه الإنجليز وواجه فرنسا بقوة عظيمة جداً حملت فرانسيس على الانسحاب والتسليم له بأجماد الحملة (أكتوبر سنة ١٥٤٣) .

ورحب شارل مرة أخرى ، بعد أن وجد أنه فقير جداً إلى حد لا يستطيع معه أن يزود جيشه بالميرة ، بعرض للسلام ووقع مع فرانسيس معاهدة كريبى (١٨ سبتمبر سنة ١٥٤٤) . وتحلى الملك عن مطالبه فى الفلاندرز وأرتوا ونابلى ولم يعد شارل يطالب ببورغندي ، وسوف تزوج أميرة ، من آل هابسبورج ، من أمير فرنسى ، ونقدم إليه ميلان صداقاً لها . (كان يمكن تدهير معظم ذلك سلمياً عام ١٥٢٥) .

(*) أسطول حربى كبير شبيه بالإرمادا المشهورة .

وكان شارل وقتذاك مطلق اليد في التغلب على البروتستانت في ملبرج وقد صورته نيس-يان هناك ، وهو لا يشكو من داء النقرس ، فخوراً منتصراً ، منهوكتاً متعباً بعد ألف من التقلبات ومائة من انقلابات عجلة الجليظ الساخنة ،

أما فرانسيس فقد انتهى أمره وانتهت معه كذلك فرنسا أو كادت ، وهو إلى حد ما لم يفقد شيئاً سوى الشرف ، وقد حافظ على بلاده بتعجل ترك المثل العليا للفروسية ، ومع ذلك فقد كان يمكن قدوم الأتراك دون أن يوجه الدعوة إليهم ، وقد أعان مجيئهم فرانسيس على كبح جماح الإمبراطور الذى لو لم يجد مقاومة ، لنشر محكمة التفتيش الإسبانية في الفلاندرز وهولندا وسويسرا وألمانيا وإيطاليا ، وقد وجد فرانسيس فرنسا تنعم بالسلام والرخاء ، وتركها مفلسة على حافة حرب أخرى . وقبل وفاته بشهر ، وبينما كان يقسم مؤكداً صداقته لشارل ، أرسل ٢٠٠.٠٠٠ كراون إلى البروتستانت في ألمانيا لتأييدهم ضد الإمبراطور (٦٣) ، وهو - وأقل درجة من ذلك شارل - يتفق في رأى مع مكيافيللى بأن رجال السياسة الذين من واجبهم الحفاظ على بلادهم ، يمكنهم مخالفة القانون الأخلاقى الذى يطالبون به مواطنيهم الذين لا هم لهم إلا الحفاظ على أرواحهم . وقد يغتفر له الشعب الفرنسى حرابه ولكنه لم يستسغ حلاوة أبهة مناهجه وبلاطه عندما أدرك فداحة الثمن . وكان قد فقد شعبيته فعلاً عام ١٥٣٥ .

وواسى نفسه بالاستمتاع بالجمال حياً وميتاً . وقد اتخذ في أواخر سنى حياته من فونتبلو مقراً أثيراً له وأعاد بناءه وابتهج بالفن الأنثوى الرشيق الذى كان الإيطاليون يزينونه به . وأحاط نفسه بفرقة صغيرة من النسوة الصغيرات اللاتي كن يمتعنه بطلعاتهن البهية ومرحهن . وأصيب عام ١٥٣٨ فى عاصمته بمرض وبدأ منذ ذاك يتلثم تلثمًا مخجلاً . وحاول أن يعالج ما كان على الأرجح مرضى الزهري بأقراص الزئبق ، التى وصفها له

بارباروسا ، ولكنها لم تنجح معه^(٦٤) : وحطم روحه دمل عنيد كريبه للرائحة وأضفى على عينيه ، اللتين كانتا حادثين يوماً ، نظرة شوهاء ياكية ، ودفعته إلى الاعتصام بورع لا يناسبه . وكان عليه أن يراقب طعامه لأن الشك خامره في أن بعض رجال الحاشية الذين يتوقعون رفعة شأنهم في عهد خلفه ، يسعون إلى تسميمه . ولاحظ في حزن أن الحاشية تدور وقتذاك حول ابنه الذي كان بالفعل يوزع المناصب وينتظر في صبر حلول دوره في التحكم في موارد فرنسا . واستدعى وريثه الوحيد وهو على فراش الموت في رامبوييه وحلده من أن تسيطر عليه امرأة — لأن هنرى كان مخلصاً بالفعل لديان دى بواتيه — واعترف الملك بخطاياها في تلخيص متعجل ، ورحب بالموت وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة وهمس فرانسيس ، دوق دى جيز ، وكان واقفاً عند الباب ، إلى الذين كانوا في الحجرة المجاورة ، أن العاشق العجوز يحتضر^(٦٥) ، ومات وهو يردد اسم يسوع . وكان في الثالثة والخمسين من عمره ولقد حكم اثنتين وثلاثين عاماً . وشعرت فرنسا بأن حكمه دام طويلاً ، ولكن عندما استردت حريتها منه ، غفرت له كل شيء ، لأنه كان لبقاً حتى في ارتكاب آثامه ، ولأنه عشق الجمال وكان فرنسا مجسدة .

ومات هنرى الثامن في ذلك العام نفسه ، ولحقت به مرجريت بعد عامين ، وقد كانت بعيدة جداً عن فرانسيس ، بل كانت أبعد من أن تدرك أن الموت يترقبه . وعندما وصلتها كلمة ، وهى في دير بأنجوليم ، تنبها بأنه مصاب بمرض خطير كادت تفقد برشدها . وقالت : « إن من يأتى إلى عتبة بابى ، كائناً من يكون ، ويعلم لى أن شقيقى الملك قد أبل من مرضه ، ولا بد أن مثل هذا الرسول سيكون متعباً منهوك القوى ، تغطيه الأحوال والأوشاب ، ومع ذلك فسوف أذهب إليه وأقبله وأحتضنه كما لو كان أعظم الأمراء والسادة أناقة في فرنسا ، وإذا كان في حاجة إلى

فراش ، فسوف أمنحه فراشي ، وأرقد على الأرض مبتهجة لما حمله إلى من
أبناء طيبة^(٦٦) » وبعثت بالرسول إلى باريس فعادوا وكذبوا عليها ، وأكدوا
لها أن الملك سليم معافى ، إلا أن الدموع المختلصة التي انثالت من عيني راهبة
كشفت عن الحقيقة ، ولبتت مرجريت أربعةين يوماً في الدير وهي تعمل
رئيسة له ، تردد الأناشيد المقدسة القديمة مع الراهبات .

وعندما دادت إلى بو أونيراك أسلمت نفسها للتقشف الشديد ،
وخيانات زوجها ، وأهواء ابنتها المتقلبة ، ووجدت السلوى ، بعد السنوات
التي أمضتها في شجاعة نصف بروتستانتية ، في الشعيرة الكاثوليكية بألوانها
وبخبرها وموسيقاها الجذابة ، وأسقتها الكالفينية التي كانت تأسر جنوبي
فرنسا ، وأفرعتها ، فعدت إلى تقواها التي عرفت بها في الطفولة .

وفي ديسمبر عام ١٥٤٩ ، وبينما كانت ترقب مذنباً في السموات ، أصيبت
بحمى أثبتت أنها كانت عنيفة ، إلى حد أنها حطمت هيكلها وروحاً أو هنتهما
قساوات الحياة . وكانت قبل ذلك بسنوات قد كتبت سطوراً وكأنها نصف
عاشقة لخدرا الموت :

رباه متى يأتي اليوم
الذي طالما اشتقت إليه
والذي أجد نفسي بقوة الحب
منجذبة إليك ؟
ألا فلتجفف دموع عيني الخزيبتين
وسط تنهدات القراق
وامنن على بخير أنعمك على الإطلاق
وهي نعمة النوم اللذيذ .

٧ - ديان دى پواتيه

كان «العاشق العجوز» قد أنجب سبعة أطفال ، كلهم من كلود . وكان الابن الأكبر فرانسيس مثل أبيه ، وسما ، جذاباً مرحباً . أما هنرى المولود عام ١٥١٩ فكان هادئاً خجولاً ، وأهملاً قليلاً ، ولم ينافس أخاه إلا في البأساء . فقد أمضيا أربع سنوات من الشدة والإذلال فى إسبانيا ثم تركت عليهما بصيات لا تمحى . ومات فرانسيس بعد إطلاق سراحه بست سنوات ، أما هنرى فقد غدا نزاعاً للصمت أكثر من ذى قبل ، وانطوى على نفسه ، وأعرض عن المجون الذى انغمست فيه الحاشية ، وكان له رفقاء ، ولكنهم قلما رأوه مبتسماً ، وقال الناس إنه قد غدا إسبانيا فى إسبانيا .

ولم يترك له الخيار عندما تزوج من كاترين دى مديتشى ، وهذا هو شأنها عندما تزوجت به . فقد مرت هى أيضاً بمحن ، إذ مات والداها كلاهما متأثرين بمرض الزهري فى خلال اثنين وعشرين يوماً من مولدها (١٥١٩) ، وأخذت منذ ذلك الوقت حتى زواجها تنتقل من مكان إلى مكان ، لا حول لها ولا قوة ، ولا يرغب فيها أحد . وعندما أقصت فلورنسا حكايها من آل مديتشى (١٥٢٧) احتفظت بكاترينا رهينة لضمان حسن سلوكهم ، وعندما عاد هؤلاء المنفيون لحصار المدينة هددت بالإعدام إذا لم تصرفهم عنها . واستخدمها كليمنت السابع رهينة ، ليكسب تأييد فرنسا لسياسته البابوية ، وانطلقت طائعة إلى مرسيليا وهى فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ، وتزوجت من غلام فى الرابعة عشرة من عمره أيضاً ، لم يكده يتحدث معها إبان الاحتفال بكلمه . وعندما وصلا إلى باريس قوبلت باستقبال فاتر لأنها جلبت معها عدداً كبيراً من الإيطاليين ، وأصبحت فى نظر الباريسيين « الفلورنسية » ، وعلى الرغم من أنها حاولت جهداً أن تسحرهم ، فإنهم

لم يكنوا لها وداً قط ، لا هم ولا زوجها . وظلت عشر سنوات عاقراً ، على الرغم من الجهود العديدة ، وارتاب الأطباء في أنها أصيبت بعدوى مرض وبيل ، ورثته من أبويها . وعندما تبدد أمل كاترين دى مديتشي كما كانت تسمى في فرنسا ، في الحصول على ذرية ذهبت تبكي إلى فرانسيس وعرضت عليه أن تقدم طلباً بالطلاق وتنزوي في دير ، ورفض الملك في كرم منه هذه التضحية . وتفتحت أخيراً أبواب الأمومة ، وجاء الأولاد واحداً إثر الآخر كل عام تقريباً . وبلغ عددهم على الإجمال عشرة ، وهم يخاصة فرانسيس الثاني الذي قدر له أن يتزوج ماري ستيوارت واليزابث التي قدر لها أن تتزوج فيليب الثاني وشارل التاسع الذي شاءت الأقدار أن يصدر الأمر بمذبحة سان بارثولوميو وإدوارد الذي أصبح هنري الثالث بطل المأساة المعروفة ومرجريت دى فالوا التي قدر لها أن تتزوج هنري ملك نافار وتضطهده وطوال كل تلك السنوات العقيمة أو الخصبية باستثناء السنوات الأربع الأولى كان زوجها يمنح حبه لديان دى بواتيه في الوقت الذي كان ينجب فيه منها أولاداً .

وكانت دهان فريدة بين عشيقات الملوك اللاتي كان لهن دور رئيسي في التاريخ الفرنسي . ولم تكن جميلة . وعندما أحبها هنري ، وهو في السابعة عشرة من عمره (١٥٣٦) كالت في السابعة والثلاثين من عمرها ، وبدأ الشيب يغزو شعرها ، والتجاعيد تسجل سنوات عمرها على جبينها ، وكانت مفاتها الجسدية لا تعدو الطلاوة ، والبشرة الناضرة بفضل غسلها بالماء البارد في جميع الفصول ، ولم تكن عاهرة . وكانت فيما يبدو مخلصه لزوجها لويس دى بريزيه حقاً ، وفاته ، وعلى الرغم من أنها انغمست مثل هنري ، في هلاقتين جانبيتين أو ثلاث ، إبان علاقتها غير الشرعية بالملك ، فإنها كانت مجرد حوادث تغتفر وألحان لطيفة في أغنية حبا . ولم تكن ممن ينجحون إلى الخيال ، بل كانت عملية جداً ، تصنع كل شيء في أوانه . ولم تستنكر

قرنسا أخلاقها بل أنكرت عليها بذخها ولم تكن مثل عشيقات فرانسيس -
رعوسا جميلة ولكنها جوفاء ، يقفز على أقدام مرحة إلى أن تفاجئهن
الأمومة ، فقد تلقت ديان تعليماً لا بأس به ، وكانت تتمتع بإدراك سليم ،
وسلوك حسن ، وبديهة حاضرة . وهانحن أولاء أمام عشيقه تسحر
الألباب بذهنها .

وكانت تنحدر من أسرة كريمة ونشأت في بلاط آل بوربون في مولان
الذى اشتهر بفن الحب . وشارك أبوها جان دى بواتيه ، كونت دى سان
فالييه ، الدوق دى بوربون في خيانة الوطن بعد أن حاول الوقوف في
سبيلها ، فقبض عليه وحكم عليه بالإعدام (١٥٢٣) ، وحصل زوج
ديان ، وكان ذا حظوة لدى فرانسيس ، على العفو لأبيها(*) . وكان لويس
دى بريزيه حفيد شارل السابع من أنيس سوريل ، وكان ذا مقدرة أو نفوذ
لأنه أصبح قيم القصر الأكبر ومحافظ نورماندى . وكان في السادسة
والخمسين من عمره عندما أصبحت ديان البالغة من العمر ستة عشر عاماً
زوجة له (١٥١٥) . وعندما مات شيدت تحليداً لذكراه في روين قبراً
ضخماً عليه كتابة قطعت على نفسها فيها عهداً بالوفاء الدائم له ولم تزوج قط
مرة ثانية ، ولم ترتد بعد ذلك إلا الثياب السوداء والبيضاء . والتقت بهنرى
عندما سلم في بايون ، وهو بعد صبي في السابعة من عمره ، كرهينة بدلاً من
والده . وبكى الصبي المرتبك فحنت عليه ديان ، وكانت وقتذاك في السابعة
والعشرين ، حنان الأم الرووم وواسته ، إذ كانت أمه كلود قد ماتت منذ ،
عامين ، ولعل ذكرى تلك الأحضان الحنونة قد بعثت في ذاكرته من جديد ،
عندما التقى بها بعد أحد عشر عاماً . وعلى الرغم من أنه كان قد مضى على
زواجه وقتذاك أربعة أعوام فإنه كان لا يزال بعيداً عن النضج العقلي ،

(*) لا صحة للقصة التي أوردها هيجو في « الملك يلهو » من أن ديان اشترت العفو

كما كان سوداوى المزاج شديد الحياء بصورة غير مألوفة . كان يريد
أما أكثر مما يريد زوجة ، وهنا ظهرت ديان من جديد ، هادئة ، رقيقة
موازية . وأقبل عليها أولاً لإقبال الابن ، وظلت العلاقات بينهما ، فيما يبدو ،
تهيمن عليها العفة حيناً . واكسبته محبتها ونصحها الثقة بنفسه ، فكف ، وهو
تحت وصايتها ، عن معاداة الناس وأعد نفسه ليكون ملاكاً . ونسب إليهما
الرأى العام أنهما رزقا بطفلة واحدة ، هى ديان دى فرانسيس ، التى أنشأتها
مع ابنتها من بريزيه . وتبت أيضاً ابنة هنرى التى أنشأتها سنة ١٥٣٨ من
وصيفة بيدموننتية دفعت ثمن لحظة لقائها بالملك بأن أصبحت راهبة مدى
الحياة . وهناك طفل آخر غير شرعى كان ثمرة قصة هنرى الأخيرة مع
مارى فليمنج ، مربية مارى ستيوارت . وعلى الرغم من هذه التجارب فإن
إخلاصه كان يزيد يوماً بعد يوم لديان بواتييه . ونظم لها قصائد ممتازة
حقاً وأمطرها بالمجوهرات والضياع . ولم يهمل ككاترين تماماً ، وكان يتناول
معها عادة طعام العشاء ويقضى معها الأمسيات ، وقبلت ، شكرياً منها لما نالته
من شذرات حبه ، فى حزن صامت ، أن ترى امرأة أخرى ولىة عهد
فرنسا الحقيقية : ولا بد أنها أحست بأنها أصيبت بجرح آخر عندما رأت أن
ديان كانت تستحث هنرى من حين لآخر على أن ينام مع زوجته (٦٨) .

ولم يؤد ارتقاؤه العرش إلى خفض مكانة ديان . وكتب لها أذل
الرسائل ، يتوسل إليها أن تسمح له بأن يكون خادمها مدى الحياة . وقد
جعلها ولها بها غنية كالمملكة تقريباً ، وضمن لديان نسبة مئوية من كل المبالغ
التى يتسلمها من بيع الوظائف ، وكانت كل التعيينات فيها تقريباً فى نطاق
سلطانها . ومنحها جواهر التاج الذى كانت قد وضعتة الدوقة ديتامب على
رأسها ، وعندما احتجت الدوقة هددتها ديان باتهامها بالبروتستانتية ، ولم ترض
عنها إلا بعد أن قدمت لها هدية من العتار . وأذن لها هنرى أن تحتفظ لنفسها
بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ تالر ، كان فرانسيس قد أوصى به لتأييد الأمراء

البروتستانت في ألمانيا سرآ (٦٩) . وبفضل هذه المنح أعادت ديان بناء قصر بريزيه الريفي القديم في آنيه ، طبقاً لتصميم وضعه فيلبر ديلورم ، وشيدت قصراً رحباً لم يصبح الدار الثانية للملك فحسب بل أصبح أيضاً متحفاً للفن ومنتدى جميلاً يلتقي فيه الشعراء والفنانون والدبلوماسيون والدوقات والقادة والكرادلة والمعشوقات والفلاسفة . وهنا كان المجلس الخاص للدولة يعقد في الواقع ، وكانت ديان بمثابة رئيسة لاوزراء ، ذكية رصينة . وفي كل مكان - في آنيه وشينوينسو وأمبواز والووفر - كانت الأطباق والدروع المرسومة عليها الشعارات وأشغال الفن ومقاعد جوقة للترنيم تحمل الرمز الجريء لقصة الحب الملكية ، فهناك حرفا D موضوعان ظهر الظهر ، بينهما شرطة تكون حرف H . وثمة أمر مثير للعاطفة وجميل في هذه الصداقة الفريدة ، التي بنيت على الحب والمال ، وإن دامت حتى الموت .

وفي أثناء تخفاح الكنيسة ضد الهرطقة وضعت ديان كل ما تملك من نفوذ ، لتأييد عقيدة المحافظين وسياسة القمع . وكانت لديها أسباب كثيرة تدعوها للتعمى : فقد كانت ابنتها متزوجة من ابن لفرانسيس هو الدوق دى جيز ، وكان فرانسيس هو وشقيقه شارل ، كاردينال اللورين ، - وكلاهما من ذوى المكانة في آنيه - زعيمى الحزب الكاثوليكي في فرنسا . أما هنرى فإن تقواه في الطفولة ازدادت شدة بالسنوات التي أمضاها في أسبانيا ، وكانت خطاياه الغرامية تخلط بين الله وديان كمنافسين على قلبه ، وأعانتة الكنيسة ، وأعطته ٣٠٠٠٠٠٠ كراون ذهبي لإلغاء مرسوم والده الذى قيد فيه من سلطة المحاكم الكنسية (٧٠) .

ومع ذلك فإن البروتستانتية كانت تشتد في فرنسا ، وكان كالفن وآخرون غيره يرسلون مبعوثين أحرزوا نجاحاً رائعاً . وما أن حل عام ١٥٥٩ حتى كانت عدة مدن ، كايين وبواتييه ولا روشيل ومدن كبيرة في بروفانس - يغلب عليها الهوجينيوت ، وقدر قس أن البروتستانت

الفرنسيين كانوا ربع عدد السكان (٧١) تقريباً في ذلك العام . ويقول مؤرخ كاثوليكي : إن أصل المروق في روما - فساد رجال الكنيسة - لم يستأصل ، بل إنه قوى بفضل الاتفاقية البابوية بين ليو العاشر وفرانسيس الأول (٧٢) . وكانت البروتستانتية في الطبقتين الوسطى والدنيا إلى حد ما ، احتجاجاً ضد حكومة كاثوليكية كبحت جماع الاستقلال الذاتي للبلدية ، وفرضت ضرائب لا تحتمل ، وبددت الدخول ، وأزهقت الأزواج في الحرب . وكان النبلاء الذين جردهم الملوك من سلطانهم السابق ينظرون بعين الحسد إلى الأمراء اللوثريين الذين انتصروا على شارل الخامس ، وربما أمكن استعادة إقطاع مماثل في فرنسا بإعلان استياء العامة من الناس على نطاق واسع من مظالم الكنيسة والحكومة . والحق أن نبلاء بارزين مثل جاسبار دى كولينى وشقيقه الأصغر فرانسوا دنديلو والأمير لويس دى كورنديه وشقيقه انطوان دى بوربون قد شاركوا بجهود فعال في تنظيم ثورة البروتستانت .

وتبذت البروتستانتية الغالبة في لاهوتها آراء كالفن في كتابه « النظم » ، فقد كان مؤلفه فرنسياً ولغته فرنسية واستهوى منطقته العقلية الفرنسية ؛ وكاد لوثر أن ينسى في فرنسا بعد عام ١٥٥٠ ، والحق أن اسم هوجنوت بالذات ورد من زيورخ عن طريق جنيف إلى بروفانس ، وفي مايو عام ١٥٥٩ شعر البروتستانت بأنهم أصبحوا من القوة إلى حد يمكنهم من إرسال مندوبين إلى أول مجمع مقدس عام لهم عقد سرا في باريس . وما أن حل عام ١٥٦١ حتى كان هناك ٢٠٠٠ كنيسة أخذت بأسباب الإصلاح الديني أو كالفينية في فرنسا (٧٣) .

وشرع هنرى الثانى فى سحق الهرطقة . ونظم المجلس النيابى لباريس ، بناء على تعليماته ، لجنة خاصة (١٥٤٩) لقمع الخروج على الرأى ، وأرسل من أدينوا إلى المحرقة، وأطلق على المحكمة الجديدة اسم « الغرفة المتأججة » ، وقضى

مرسوم شاتوبريان (١٥٥١) بأن طبع أو بيع أو حيازة كتب الهرطقة يعد جريمة عظمى ، وأن الإصرار على الآراء البروتستانتية يعاقب عليه بالإعدام ، ونص على أن يتسلم المبلغون ثلث أموال المحكوم عليهم . وكان عليهم أن يبلغوا المجلس النيابي عن أى قاض يعامل المراطنة باللين ، ولم يكن فى وسع أى رجل أن يعين قاضياً إلا إذا كانت عقيدته المحافظة لا يرقى إليها شك . وفى خلال ثلاث سنوات أرسلت « الغرفة المتأججة » ستين بروتستانتيا إلى الموت حرقاً ، وعرض هنرى على البابا بولس الرابع إقامة محكمة للتفتيش فى فرنسا طبقاً للنموذج الرومانى الحديد ، ولكن المجلس النيابي اعترض على السماح لسلطة أخرى بأن تحمل محل سلطته ؛ واقترح أحد أعضائه ، آن دى بورج فى جراءة أن تتوقف كل مطاردة للهرطقة حتى يستكمل مجلس ترنت تعريفاته للعقبة المحافظة . فأمر هنرى بالقبض عليه وأقسم أن يراه وهو يحرق ، إلا أن القدر اختلس من الملك هذا المشهد .

وفى غضون ذلك كان قد أغرى بتجديد الحرب ضد الإمبراطور فإنه ، لم يستطع قط أن يصفح عن سجن أبيه وشقيقه وسجنه هو نفسه أمداً طويلاً . وكان يكره شارل بقدر حبه لديان . وعندما أعلن الأمراء اللوثيريون مقاومتهم للحاسمة للإمبراطور من أجل المسيح والإقطاع سعوا إلى التحالف مع هنرى ودعوه للاستيلاء على اللورين ، فوافق على هذا فى معاهدة شامبور (١٥٥٢) . وقام بحملة سريعة أدارها بكفاءة واستولى بعد عناء قليل على تول ونانسى و Metz وفردون . وكان شارل أكثر استعداداً للتسليم بالنصر للبروتستانتية فى ألمانيا منه للتسليم به لآل فالوا فى فرنسا ، فوقع معاهدة صلح ذليلة مع الأمراء فى باسوا ، وهرع لضربه الحصار على الفرنسيين فى Metz . وأقام فرانسيس ، دوق دى جيز شهرته هناك على ما أبداه من مهارة وعناد فى الدفاع . واستمر الحصار من ١٩ أكتوبر إلى ٢٦ ديسمبر سنة ١٥٥٢ ، ثم سحب شارل جنوده الذين خارت قواهم وهو شاحب الوجه ، زائع البصر

أبيض اللحية كسيحاً وقال : « إني لأرى جيداً أن الحظ يشبه امرأة ،
تؤثر ملكاً فتياً على إمبراطور عجوز (٧٤) ، وأردفت قائلاً : « وقبل أن تمضي
ثلاث سنوات سأتحول إلى رجل يربط حول وسطه شريطاً من حرير أى إلى
راهب فرنسيسكاني (٧٥) » .

وفي عام ١٥٥٥ - ٥٦ تنازل لابنه عن سلطته في الأراضي المنخفضة
وإسبانيا ، ووقع مع فرنسا هدنة فوسيل ، وغادر إسبانيا (١٧ سبتمبر
سنة ١٥٥٦) ، وظن أنه أورث فيليب مملكة تنعم بالسلام ، ولكن هنرى
أحس أن الموقف يدعو إلى هجوم آخر على إيطاليا . ولم يكن لفيليب أى
شهرة كقائد ، وكان متورطاً على غير ما توقع في حرب البابا بولس الرابع ،
وخيل لهنرى أن أمامه فرصة ذهبية . فأرسل جنز ليستولى على ميلان ونابلى ،
وتأهب لملاقاة فيليب في ساحات القتال القديمة في شمال شرقي فرنسا . وأظهر
فيليب أنه أهل للمقابلة الموقف واقترض مليون دوكات من أنطون فوجر
وأغرى ماري ملكة إنجلترا بالدخول في الحرب . وفي سان كينتان
(١٠ أغسطس سنة ١٥٥٧) قاد الدوق أمانويل فيلبرت أمير سافوى جيوش
فيليب الموحدة إلى نصر كاسح وأخذ كوليني ، ومونمورنسى أسيرين
وتأهب للزحف على باريس . وكانت المدينة في ذعر ، وبدا الدفاع عنها
مستحيلاً ، وأستدعى هنرى جنز وجنده من إيطاليا ، فعبر الدوق فرنسا
وفاجأ كاليه بحركة سريعة عجيبة واستولى عليها (١٥٥٨) ، وكانت إنجلترا
تحتفظ بها منذ عام ١٣٤٨ ، وكان فيليب يكره الحرب ويتوق إلى العودة
لإسبانيا ، فافتتح توا بتوقيع معاهدة كاتو - كامبريزى - (٢ أبريل سنة
١٥٥٩) وبمقتضاها وافق هنرى على أن يبقى شمال الألب ، ووافق فيليب على
أن يمدعه يحتفظ باللورين وبكاليه - على الرغم من دموع ماري . وفجأة
أصبح الملكان صديقين ، وقدم هنرى ابنته اليزابث لتكون زوجة لفيليب ،
وتعهد بزواج شقيقته مرجريت اف برى من أمانويل فيلبرت الذى استعاد

وقتذاك سافوى ، ونظم مهرجان ضخم حفل بالمبارزات والمآذب
ولياى الزفاف .

وهكذا بينما ظل فيليب الحذر فى الفلاندرز تجمع الأعيان من الفرنسيين
والفلمنكيين والأسبان حول القصر الملكى ليتورنل فى باريس ، وعلقت قوائم
فى شارع سان أنطوان الذى يضم مظلات وشرفات مزينة بزخارف بهية ،
وانطلق الجميع يمرحون كما لو كانوا يسمعون ناقوس زفاف . وفى ٢٢ يونية
استقبل الدوق ألفا ، باعتباره وكيلا لفيليب اليزابث باعتبارها ملكة لأسبانيا ،
وأصر هنرى ، وهو وقتذاك فى الأربعين من عمره على دخول المباراة .
وفى مثل هذه المبارزات كان النصر يقضى به لراكب الفرس الذى يحطم
ثلاث حراب على درع خصمه ، دون أن يرمى عن الفرس . وقام هنرى
بهذا العمل أمام الدوق دى جيز والدوق دى سافوى اللذين عرفا كيف
يقومان بدورهما الصحيح فى المسرحية ، بيد أن خصماً ثالثاً هو مونتهجومرى
سمح فى حمق للبقية الباقية الحادة من السلاح بالمرور تحت القناع الحديدى
للملك بعد أن حطم حربة على درع الملك ، فاخترقت عين الملك ووصلت
إلى المخ . وظل يرقد تسعة أيام فاقد الوعي ، وفى اليوم التاسع من يوليو
احتفل بزواج فيليبرت ومرجريت ، وفى اليوم العاشر من يوليو مات الملك
وانسحبت ديان إلى آنيه ، وعاشت بعد ذلك سبع سنوات ، وارتدت
كاترين دى مديتشى التى كالت ظمأى لحبه ؛ ثياب الحداد بقية حياتها .

الفصل الثالث والعشرون

هنرى الثامن والكاردينال ولزى

٢٩ - ١٥٠٩

١ - ملك واعد: ١٥٠٩ - ١١

لم يكن أحد من رأوا الفتى الذى ارتقى عرش إنجلترا عام ١٥٠٩ يتنبأ بأنه هو البطال والوغد معاً فى أكبر حكم درامى فى التاريخ الإنجليزى . وعندما كان غلاماً فى الثامنة عشرة من عمره كانت بشرته الرقيقة وتقاطيعه المنتظمة تجعله جذاباً كالفتاة أويكاد ، بيد أن ما يتمتع به من قوام رياضى وجرأة سرعان ما قضى على أى مظهر للأثونة فيه . وتبارى السفراء الأجانب مع المادحين الوطنيين فى الثناء على شعره الأصم ، ولحيته الذهبية و « وريلة ساقه الفاتحة الجمال » وفى تقرير كتبه جيوستينيانى إلى مجلس شيوخ البندقية قال : « إنه مغرم بالتنس ، وإن أجمل شيء فى الوجود أن تراه وهو يلعب ، وبشرته الحميلة تتألق من خلال قميص نسيجه جد رقيق (١) » ، وكان فى الرمى بالسهام والمصارعة يضارع أحسن الأبطال فى مملكته ولم يكن يبدو عليه فى الصيد قط أى تعب ، وكان يخصص يومين كل أسبوع المبارزات ، ولم يكن فى وسع أحد أن ينافسه . إلا الدوق سفولك . وكان موسيقياً مثقفاً أيضاً ، و « غنى وعزف على كل ضروب الآلات وأظهر موهبة نادرة » ، (كما كتب القاصد الرسولى للبابا) ولحن قداسين لآيزالان باقين ، وكان يعشق الرقص وحفلات المساخر ومظاهر الأبهة

والتياب الجميلة . ويروقه أن يكسو نفسه ثياباً من فرو الفاقوم أو أردية أرجوانية ، وكان القانون ينص على أن له وحده الحق في ارتداء اللديجاج الأرجواني أو الذهبي ، وكان يأكل بتلذذ ، ويصل أحياناً مآدب الغداء الرسمية إلى سبع ساعات ، ولكنه في السنوات العشرين الأولى من حكمه كبح جماح شهيته . وكان كل الناس يحبونه ويعجبون بسماحة أخلاقه اللطيفة وسهولة الوصول إلى قلبه ومرحه وتسامحه وحلمه . ورحب الناس بارتقائه العرش وكأنه إيدان بفجر عصر ذهبي .

واغتبطت الطبقات المتعلمة أيضاً لأن هنرى في أيام السكون تلك كان يطمح أن يكون عالماً بطلا رياضياً على السواء وموسيقياً ومملكاً ، ولما كان قد أهدى في الأصل ليكون من رجال الدين فقد أصبح على دراية بعض الشيء باللاهوت ، وكان في وسعه أن يستشهد بآيات من الكتاب المقدس لأى غرض وكان له ذوق جميل فى الفن ، واقتنى مجموعة تدل على درايتة ، وكان حكيماً فى اختياره هولبين لتخايد كرشه . وقام بدور فعال فى أعمال الهندسة وبناء السفن والتحصينات والمدفعية . وقال عنه سير توماس مور : إنه أعلم من أى ملك إنجليزى قبله (٢) « - وليس هذا بالثناء العظيم . وتابع مور كلامه قائلاً : « ما الذى لا نتوقعه من ملك غدى بلبان الفلسفة وربات الفنون التسع (٣) ؟ » وكتب مونتجومرى ميهوتاً إلى إرازموس ، وكان حينذاك فى روما ، يقول : « ما الذى لا تعلى به نفسك من أمير تعلم جيداً ما فطر عليه من موهبة خارقة ونخاق يكاد يكون إلهياً ؟ ولكن عندما تعرف أى بطل يقيم الآن الدليل عليه ، وكيف يتصرف بحكمة ، وأى محب للعدالة والخير ، وأى مودة يحملها للمتعلمين ، فإنى أتجاسر وأقسم لك بأنك لن تكون فى حاجة إلى جناحين تطير بهما لتشهد هذا النجم الجديد السعيد .

أواه يا إرازموس العزيز . لو أنك استطعت أن ترى كيف أن العالم بأسره هنا مبتهج لأن عنده أميراً عظيماً كهذا ، وكيف أن حياته هي كل ما يبتغون فلن تتالك نفسك من أن تذرف دموع الفرح . إن السموات لتضحك والأرض لتبتهج (٥) .

وجاء إرازموس وشارك في هذا الهذيان لحظة . وكتب يقول : « فيما مضى كان قلب المعرفة بين من يزعمون أنهم من رجال الدين والآن بينما ينصرف هؤلاء في الأغلب الأعم إلى شهوات البطون والترف والمال (٥) فإن حب العلم ذهب منهم إلى الأمراء العلمانيين والحاشية والنبلاء وإن الملك لا يقبل في بلاطه رجالاً مثل مورافحسب ، بل إنه يدعوهم ويحبرهم - على أن يرقبوا كل ما يفعل وأن يشاطروه تبعاته وملذاته . وهو يفضل صحبة رجال مثل مور على صحبة الأغبياء من الفتيان أو الفتيات أو الأغنياء (٥) . وكان مور أحد أعضاء مجلس الملك وليناكر طبيب الملك وكوليه واعظ الملك في كنيسة القديس بولس .

وفي السنة التي ارتقى فيها هنرى العرش ، أنفق كوليه الجانب من الثروة التي ورثها عن أبيه لتأسيس مدرسة القديس بولس . واختير نحو ١٥٠ صبياً لكي يدرسوا هناك الأدب الكلاسي واللاهوت المسيحي وعلم الأخلاق ، وخالف كوليه التقاليد بتعيين مدرسين علمانيين في المدرسة ، وكانت أول مدرسة غير إكليريوسية في أوروبا . وعارض « الطرواديون » الذين كانوا ينددون في أكسفورد بتدريس الكلاسيات ، برنامج كوليه بحجة أنه يؤدي إلى الشك الديني ، بيد أن الملك حكم ضدهم ومنح كوليه تشجيعه الكامل . وعلى الرغم من أن كوليه نفسه كان محافظاً في عقيدته ومثالاً للتقوى ،

(٥) بيد أن أصدقاء إرازموس من رجال الدين ، دين كوليه وفيلسوف روستر وكبير الأسانفة وارهام كتربرى كانوا أصدقاء مخلصين من ذوى المروءة والعلم .

فإن أعداءه اتهموه بالهرطقة ، فأخرسهم وارهام كبير الأساقفة وأذعن هنرى . وعندما رأى كولىه أن هنرى يميل إلى الحرب مع فرنسا ندد علناً بسياسته وأعلن ، كما فعل إرازيموس ، أن سلاماً ظالماً خير من أعدل الحروب . وندد كولىه بالحرب ، حتى وهو مجتمع بالملك فى الصلاة ، باعتبارها صفقة فى وجه تعاليم المسيح ، ورجاه هنرى على انفراد ألا يضعف معنويات الجيش : ولكن عندما حرض الملك على أن يخلع كولىه أجاب قائلاً : « ليكن لكل إنسان قسيسه الخاص . . . إن هذا الرجل هو قسيسى^(٦) » . واستمر كولىه يفسر تعاليم المسيحية تفسيراً جاداً . وكتب إلى إرازيموس (١٥١٧) يقول بروح توما أكبى : آه يا أرازيموس ، لا حد هناك لكتب المعرفة ، وليس هناك أفضل من أن نعيش حياة طاهرة مقدسة فى هذا الأجل القصير الذى كتب علينا وأن نبدل جهلنا فى حياتنا اليومية ، وأن نتطهر ونثقف . . . بالحب المتأجج والافتداء ببسوع . ولهذا فإن أعظم رغباتى إلحاحاً هى أن نسير قدماً ، معرضين عن كل السبل غير المباشرة موثرين بطريقة قصيرة توصل إلى الحقيقة . وداعاً^(٧) .

وفى عام ١٥١٨ أعد فبره البسيط ولم ينقش عليه إلا اسم جوهانس كولىتس ودفن فيه ، بعد سنين ، وأحس كثيرون أن قديساً قد مات .

٢ - ولزى

كان هنرى ، الذى قدر له أن يصبح تجسيدا لأمير مكيناىلى ، لا يزال بعد حدثاً بريئاً فى السياسة الدولية . وعرف حاجته إلى الإرشاد وجعل من الرجال حوله نماذج : وكان مور ذكياً بيد أنه لم يتعد الحادية والثلاثين ، وكان ييل إلى الطهارة والتقوى . وكان توماس ولزى يكبره بثلاثة أعوام فحسب ، وكان قساً إلا أن اتجاهه بأكمله للسياسة ، والدين عنده جزء من

السياسة . وقد ولد توماس في لابسوتش من « أصل وضيع ودم خسيس » (هكذا ، صفه جويكيا ردينى المعترز بنفسه) (٨) . وقد استوعب مقرر شهادة البكالوريا في أكسفورد وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وعندما بلغ الثالثة والعشرين عمل صرافاً في كلية مجدالين ، وأظهر كفاءته باستخدام مبالغ مناسبة ، تتجاوز السلطة المخولة له ، لإتمام البرج الرائع لتلك القاعة وعرف كيف ينجح . وأظهر فطنة في الإدارة والمفاوضة فقام بالوعظ في سلسلة من الكنائس ليخدم هنرى السابع بتلك المقدرة والدبلوماسية .

وعندما ارتقى هنرى الثامن العرش عينه موزعاً للصدقات - مديراً للبر والإحسان . وسرعان ما أصبح القس عضواً في المجلس الخاص . وأفزع واهرام كبير الأساقفة بدفاعه عن عقد حلف عسكري مع اسبانيا ضد فرنسا ، وكان لويس الثانى عشر يغزو إيطاليا ، ومن المحتمل أن يجعل البابوية تابعة لفرنسا من جديد . وعلى أية حال فإن فرنسا لا بد أن تصبح قوية جداً . ونضع هنرى في هذا الأمر لولزى وحميه فرديناند ملك أسبانيا ، وكان هو نفسه ينجح في هذا الوقت للسلام ، وقال لحيوستينيانى « إنى راض بما أملك ، ولا أود أن أحكم إلا رعاياى ، ولكنى من جهة أخرى لا أقبل أن يباغ أحد من القوة ما يجعله يتحكم فى » (٩) ، ويكاد هذا يلخص حياة هنرى السياسية ، فقد ورث ادعاء الملوك الإنجليز أن لهم الحق فى تاج فرنسا ، ولكنه عرف أنه ادعاء أجوف . ووهنت الحرب سريعاً فى موقعة المهاميز (١٥١٣) . ودبر ولزى للسلام وأغرى لويس الثانى عشر بالزواج من ماري شقيقة هنرى ، وسر ليو العاشر لنجاته فعين ولزى رئيساً لأساقفة يورك (١٥١٤) . وكرديناالا (١٥١٥) ، وعينه هنرى ، المنتصر ، حاجباً (١٥١٥) . وفاخر الملك لأنه حى البابوية ، وعندما رفض أحد البابوات أن يتولى فيما بعد تيسير زواجه عد هذا جحوداً .

وكانت السنوات الخمس الأولى التي قضاها ولزى في منصب الحاجب من أعظم السنوات توفيقاً في سجل الدبلوماسية الإنجليزية . وكان يهدف إلى تنظيم السلام في أوروبا باستخدام إنجلترا وسيلة لحفظ التوازن في القوى بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة وفرنسا ، وكان المفروض أن مما يدخل أيضاً في دائرة سلطانه أن يصبح حكماً لأوروبا وأن يكون السلام في القارة في مصلحة تجارة إنجلترا الحيوية مع الأراضي المنخفضة . وتفاوض كخطوة أولى ، لعقد حلف بين فرنسا وإنجلترا (١٥١٨) ، وخطب ماري ابنة هنري البالغة من العمر عامين (أصبحت ملكة فيما بعد) إلى ابن فرانسيس الأول البالغ من العمر سبعة شهور . ولا شك أن مياه للضيافة الكريمة قد كشف عنه ما حدث عند ما حضر المبعوثون الفرنسيون إلى لندن لتوقيع الاتفاقيات ، فقد أقام لهم وليمة في قصر وستمنستر ، قدم لهم فيها عشاء ، قال عنه جيوستينياني : « أن مثيله لم يقدم قط ، على مائدة كليوباترة وكاليجولا ، وأن قاعة المأدبة بأسرها زينت بزهرات ضخمة من الذهب والفضة (١٠) » . غير أن الكاردينال المحب للعالميا يلتمس له العذر ، فقد كان يقامر ليكسب رهاناً عظيماً ، فكسب . وأصر على أن يكون الحلف مفتوحاً لينضم إليه الإمبراطور مكسمليان الأول وشارل الأول ملك أسبانيا والبابا ليو العاشر ، ودعوا للانضمام إليه فقبلوا ، وابتهج أرازموس ومور وكوليه ، إذ داعبهم الأمل في أن يكون فعجراً عهد السلام قد أشرق على العالم المسيحي بأسره . وتلقى ولزى التهانى حتى من أعدائه . وانتهز الفرصة لرشوة المندوبين الإنجليز (١١) في روما لكي يضمن تعيينه قاصداً رسولياً للبابا في صف بريطانيا والعبارة تعنى : « في صف » وموضع ثقة ، وكان أرفع تعيين لمبعوث بابوى . وكان ولزى وقتذاك الرئيس الأعلى للكنيسة الإنجليزية وحاكم إنجلترا - مع ولاء استراتيجى لهنرى .

وعكس صفو السلام بعد عام تنافس فرانسيس الأول وشارل الأول على العرش الإمبراطورى : بل إن هنرى رأى أن يقذف بقلنسوته فى الحلبسة غير أنه لم يجد رجلاً مثل فوجر . وزار الفائز ، وهو وقتذاك شارل الخامس ، إنجلترا زيارة قصيرة (مايو سنة ١٥٢٠) وقدم احتراماته لعمته كاترين الأراجونية ، الملكة زوجة هنرى ، وعرض أن يتزوج الأميرة مارى (التى كانت مخطوبة بالفعل لولى عهد فرنسا) ، إذا وعدت إنجلترا أن تؤيد شارل فى أى نزاع بينه وبين فرنسا ، وهكذا السلام ، أمر غير طبيعى ، فرفض ولزى ولكنه قبل من الإمبراطور . رتباً قدره ٧,٠٠٠ دوكات ، وانزع منه تعهداً بأن يساعده على أن يصبح بابا :

وحقق الكاردينال الذكى أعظم انتصار باهر له بتدبير لقاء بين العاهلين الفرنسى والإنجليزى فى ميدان كلوث أف جولد (يونيو ١٥٢٠) . وهناك فى أرض فضاء مكشوفة بين جين وآردر قرب كاليه برز فن العصر الوسيط والفروسية فى روعة الغروب . وانطلق أربعة آلاف نبيل انجليزى ، اختارهم الكاردينال وعينهم ، وكانوا يرتدون الملابس الحريرية والمزركشة والمخرمات من أزياء القرون الوسطى المتأخرة ، فى صحبة هنرى بينما امتطى الملك الشاب ذو اللحية الحمراء صهوة فرس صغيرة للملاقة فرانسيس الأول . وأخيراً وليس آخراً ، أقبل ولزى نفسه مرتدياً ثياباً قرمزية من الأطلس ينافس بها أمهة الملوك . وقد شيد على عجل قصر لاستقبال صاحبي الجلالة ومرافقيهما من السيدات والموظفين ، وأقيمت سقيفة يكسوها قماش تتخلله خيوط ذهبية ، وتندلى منه طنافس ثمينة ليظل المؤتمر والمآدب ، وكانت هناك نافورة يسيل منها النيزد ، وأخيات مساحة لألعاب الفروسية الملكية ، وتدعم الحلف السياسى والعسكرى بين الأمتين ، وتبارى العاهلان السعيدان فى المبارزة بل وتصارعا ، وخاطر فرانسيس بسلام أوربا بطرحه الملك الإنجليزى ، وأصلح خطواته الخاطئة بكياسة فرنسية لانظير لها بالذهاب ، مبكراً ذات

عصباح وهو مجرد من السلاح مع بعض الأتباع غير المسلحين ، لزيارة هنرى
فى المعسكر الإنجليزى - وكانت لفظة تدل على الثقة الودية فهمها هنرى .
وتبادل الملكان الهدايا الثمينة والأيمان المغلظة .

والحق أن أحداً منهما لم يستطع أن يثق بالآخر ، لأن التاريخ علمهما
درساً مفاده أن الرجال يكذبون كثيراً عندما يحكمون دولا . وبعد سبعة
عشر يوماً أمضاها هنرى ينعم بالولائم مع فرانسيس ، انطلق ليمضى ثلاثة
أيام فى مؤتمر مع شارل فى كاليه (يولييه سنة ١٥٢٠) . وهناك أقسم الملك
والإمبراطور ، فى حضور ولزى ، على الصداقة الأبدية واتفقا على ألا يقدما
على خطوات أخرى لتنفيذ خطتهما للزواج من الأسرة المالكة فى فرنسا .
وكانت هذه الأحلاف المنفصلة أساساً أشد قلقلة للسلام الأوروبي من الاتفاق
الودى متعدد الجوانب الذى كان ولزى قد دبر له قبل وفاة مكسميليان ،
وإن كان قد ترك إنجلترا فى وضع الوسيط ، والحكم فى الواقع - وهو وضع
أسمى بكثير من أى وضع يمكن أن يعتمد على ثروة الإنجليز أو سلطانهم .
وكان هنرى راضياً . وأمر رهبان سانت البانز باختبار ولزى رئيساً لديرهم
ومنحه صافى دخلهم ، وذلك مكافأة لحاجبه ، لأن « سيدى الكاردينال
قد تحمل الكثير من التكاليف فى هذه الرحلة » . وأذعن الرهبان ووصل
دخل ولزى إلى ما يقرب من احتياجاته .

وكان ، على نطاق أوسع بكثير من معظمنا ، مزيجاً من الفضائل
والنقائص المركبة ، وكتب جيوستينيانى يقول : « إنه وسيم جداً ، فصيح
للغاية ، واسع المقدره ، لا يكمل ولا يعمل (١٢) » . وكانت أخلاقه لا تخلو من
الشوائب ، فقد انزلق مرتين إلى الأبوة غير الشرعية ، وكانت تعد من الهفوات
التي تغتفر فى ذلك العصر الطروب .

ولكن إذا صدقنا ما قاله أسقف ، فإن الكاردينال كان يعانى من

« الزهرى (١٣) » وقبل ما يمكن ، أو ما لا يمكن أن يسمى بالرشاش - هدايا عظيمة من المال تلقاها من فرانسيس وشارل على السواء ، وحرص على أن يجعلهما يتنافسان على أن يأمراله بمرتبات وهبات سخية قدماها ، وكانت هذه من آداب مجاملة العصر ، وأحس الكاردينال المبذر ، الذى شعر بأن سياسته تخدم أوروبا بأسرها ، بأن أوروبا كلها يجب أن تخدمه . وليس من شك فى أنه كان يحب المال والترف والأبهة والسلطان : وكان جانب كبير من دخله يصرف فى الحفاظ على مؤسسة قد يكون تبذيرها السطحى أداة من أدوات - الدبلوماسية ، صمم لى تعطى السفراء الأجانب فكرة مبالغاً فيها عن الموارد الإنجليزية . ولم يدفع هنرى أى مرتب لولزى ، ولهذا كان على الحاجب أن يعيش ويولم لضيوفه على حساب موارد الكنيسة ومرتبته التى يتقاضاها من الخارج . وحتى لو كان الأمر على هذا النحو فإننا قد نعجب لأنه احتاج لكل الدخل الذى كان يحصل عليه باعتباره صاحب الحق فى دخل أبرشيتين ، وست رواتب للقسس ، ومرتب رئيس جامعة ، ومرتب باعتباره رئيساً لدير سانت البانز وأسقفاً لبات وولز ، ورئيساً لأساقفة يورك ومديراً لأبرشية ونشستر وشريكاً لأسقفى ورسستر وسالزبورى الإيطاليين الغائبين (١٤) .

وكان له تقريباً الحق فى الرئاسة الدينية والسياسية بأسرها فى المملكة والمفروض أنه كان ينال مكافأة عن كل تعيين يتم . وقدر « وورخ كاثوايكي أن ولزى كان يتلقى فى أوج مجده ثلث دخول الكنيسة فى إنجلترا (١٥) » كان أغنى وأقوى الرعايا فى الأمة . ومن رأى جيوستينيانى أنه كان « أقوى من البابا - بسبعة أضعاف (١٦) » ويقول إرازموس : « إنه الملك الثانى » ولم يبق أمامه إلا خطوة واحدة - يقوم بها - البابوية . وحاول ولزى الحصول عليها مرتين ، ولكن شارل اللاهية فاقه فى تلك اللعبة ، متجاهلاً وعوده .

واعتمد الكاردينال أن التمسك بالمراسم دعامة القوة ، ويستطيع المرء بالقوة أن يقبوا السلطة ولكنه لا يستطيع أن يدعها بئس بنحس وفي هدوء وسلام إلا بالثعود عليها أمام الجمهور ، والناس تحكم على سمو المرء بمقدار تمسكه بالرسمة التي يحتمى بها . ولهذا فإن ولزى كان يظهر في الحفلات العامة والرسمة مرتدياً أفخر الملابس الرسمة التي نخيل إليه أنها مناسبة لمثل كل من البابا والملك . قبة كاردينال حمراء ، وقفازين حمراوين ، وأردية من التافتاه القرمزية وحذاء من الفضة أو مموهاً بالذهب ، ومرصعاً باللالىء والأحجار الكريمة - ها هو ذا أنوسنت الثالث وبنيامين دزرائيلي وبروفل الجميل اجتمعوا معاً في شخص واحد . كان أول من لبس الحرير (١٧) بين رجال الدين في إنجلترا . وعندما كان يردد القداس (وهو أمر نادر) كان شماسته من الأساقفة والرهبان ، وفي بعض المناسبات كان النبلاء من حملة ألقاب دوق وايرل يصبون الماء الذى يغسل به يديه المقدسين . وأذن لتابعيه أن يركعوا وهم يخدمونه على المائدة . وخدمه في مكتبه وبيته خمسمائة شخص (١٨) ، كثير منهم من ذوى النسب العريق . وكانت قلعة هامبتون التي شيدها لتكون مقراً له باذخة جداً إلى حد أنه أهداها للملك (١٥٢٥) ليتقى شر حسده .

ومهما يكن من أمر فإنه نسي أن هنرى كان ملكاً . وكتب جيوستينيانى إلى عضو شيوخ من البنادقة : « لدى وصولى لأول مرة إلى إنجلترا اعتاد الكاردينال أن يقول لى إن جلالته سوف يفعل كذا وكذا » . وبعد ذلك - بالتدريج نسي نفسه وبدأ يقول : « سوف يفعل كذا وكذا » أما الآن يقول « سأفعل كذا وكذا » (١٩) ، وكتب السفير مرة أخرى يقول : « إذا كان لا بد من إغفال أمر الملك أو الكاردينال فن الأفضل التغاضى عن الملك ، فالكاردينال قد يستاء من سبق الذى يسلم به للملك (٢٠) » وقاما كان الأشرف وألباوماسيون يخلصون على الإذن بالانول في حضرة الخناجب قبل تقديم

الالتباس الثالث . وكلما مر عام كان الكاردينال يحكم صراحة حكماً مطلقاً يشتد يوماً بعد يوم ، واستدعى المجلس النيابي مرة إبان رئاسته ، وكان قليل الاهتمام بالأشكال الدستورية ، وقابل المعارضة بالاستياء والنقد بالزجر . وكتب المؤرخ بوليدور فرجيل يقول : « إن هذه الوسائل سوف تؤدي إلى سقوط ولزى » فأرسل فرجيل إلى البرج ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تشفع له ليو العاشر مراراً . واشتدت المعارضة .

ولعل من عزلهم ولزى أو أذهبهم هم الذين اعتصموا بأذان التاريخ ، ونقلوا آثامه كما هي بلا غفران ، إلا أن أحداً لم ينازع في مقدرته ، أو انصرافه في مشاركة لكثير من مهامه . وقال جيوستينياني لعضو الشيوخ من البندقية المعتز بنفسه « إنه ينجز من العمل قدر ما يشغل كل القضاة وموظفي المكاتب والمجالس في البندقية ، في المحاكم المدنية والجنائية على السواء ، وهو يدير كذلك كل شئون الدولة مهما كانت طبيعتها (٢١) » .

وكان محبوباً من الفقراء ، مكروها من الأقوياء بسبب عدم تمييزه في تطبيق العدالة . وفتح بلاطه لكل من يشكون من الاضطهاد ، ولا تكاد توجد سابقة لهذا في التاريخ الإنجليزي بعد الفرد . وكان ينزل العقاب بالجاني الأثيم ، مهما كان رفيع القدر (٢٢) ، دون خوف ولا وجل . وكان كريماً مع العلماء والفنانين وبدأ إصلاحاً دينياً بإحلال كلييات محل أديار عديدة . وكان بصدد القيام بإصلاح مشير في التعاميم الإنجليزية عندما تأمر صنده كل الأعداء الذين خلقهم اندفاعه في أعماله وقصصه : نظره راءه ، فتأمروا بخلقه قصة خيالية ماكية لتدبير خطة لسقوطه

٣ - ولزى والكنيسة

وأدرك المساوي التي لاتزال باقية في حياة رجال الدين في إنجلترا ضرب لها مثلاً عظيماً : أساقفة غائبين ورجال دين متعلقين بالدنيا ،

ورهباناً كسالى ، وقساوسة وقعوا فى شرك الأبوة . وكانت الدولة التى طالما دعت إلى إصلاح الكنيسة ، مسئولة إلى حد ما عن الشرور ، لأن الملوك كانوا يعينون الأساقفة ، وكان بعض الأساقفة من أمثال مورتون ، وواهرام وفيشر رجالاً على خلق رفيع ، ذوى مقدرة عظيمة ، وكان كثير من الآخرين منغمسين جداً فيما تتيح لهم الأسقفية من حياة وادعة ، فلم يستطيعوا أن يدرّبوا أتباعهم من رجال الدين على الكفاءة من الناحية الروحية ، وكذلك على المثابرة فى تدبير المال . وربما كانت أخلاقيات الجنس عند القساوسة أفضل مما هى عند زملائهم فى ألمانيا ، ولكن لم يكن ثمة مفر من وجود حالات من التسرى بين رجال الدين ، ومن الزنا والسكر والجريمة فى الأبرشيات البالغ عددها ٨,٠٠٠ فى إنجلترا - وهى حالات - كثيرة دفعت كبير الأساقفة مورتون إلى أن يقول : (١٤٨٦) « إن ما يقترن بحياتهم من فضائح يعرض للخطر استقرار نظامهم (٢٣) » . وأبلغ رتشارد فوكس ، حوالى عام ١٥١٩ ، ولزى بأن رجال الدين فى أسقفية ونشستر كانوا قد تردوا إلى هاوية كبيرة من الفسق والفساد ، إلى حد أنه يؤس من أن يشهد فى حياته أية محاولة لإصلاح دينى (٢٤) . وارتأى القساوسة بالأبرشيات فى أن ترقياتهم تنوقف على مقدار مقتنياتهم ، فأخذوا يغتصبون ضرائب العشور أكثر مما فعلوا فى أى وقت مضى . وكان البعض يستولى كل عام على عشر دجاج الفلاح وإنتاجه من البيض واللبن والخبز والفاكهة ، بل حتى من كل الأجور التى كانت تدفع لمعاونته ، وكل إنسان لا يترك فى وصيته ميراثاً للكنيسة يتعرض لخطر عظيم بحرمانه من الدفن طبقاً للطقوس المسيحية مع ما يترتب على ذلك من نتائج متوقعة مروعة إلى حد لا يمكن التفكير فيها . وبعبارة موجزة فرض رجال الدين مكوساً لتمويل مصالحهم فى إصرار مثل الدولة الحديثة . وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت الكنيسة تملك ، وفقاً لتقدير كاثوليكي محافظ ، حوالى خمس

الأملاك بأسرها في إنجلترا (٢٥) . وحسد النبلاء هناك كما في ألمانيا رجال الدين على هذه الثروة وتلهفوا على استعادة الأراضي والدخول التي تنازل عنها لله أسلافهم الأتقياء أو الخائفون .

وأجمل دين كويليه حالة رجال الدين العلمانيين مع مبالغة واضحة في خطاب وجهه إلى جمعية رجال الكنائس عام ١٥١٢ فقال : « أود أخيراً وأنا عالم بشهرتكم ومهنتكم ، أن تفكروا في إصلاح أمور الكهنوت لأنه لم يحدث من قبل أن كان الأمر محتموماً كما هو الآن لأن الكنيسة - زوجة المسيح - التي تمنى ألا تشوبها شائبة أو تدب فيها الشيوخوخة قد أصبحت دنسة مشوهة ، وكما يقول أشعياء : « كيف صارت القرية الأمينية زانية » (١) . وكما يقول أرميا : « أما أنت فقد زنت بأصحاب كثيرين (***) » . وقد حملت بكثير من بذور الظلم وهي تنجب كل يوم أعظم الذرية دنساً . ولم يشوه شيء وجه الكنيسة مثل ما شوهته المعيشة العامانية والدينيوية لرجال الدين أي لطمة وجوع يشيعان في هذه الأيام بين رجال الدين بعد الشرف والوقار . وأي سباق تنقطع فيه الأنفاس من صدقة إلى صدقة ومن منفعة أقل إلى منفعة أكبر .

ألم تغرق الشهوة إلى الجسد ، ألم تغرق هذه الرذيلة الكنيسة بالفيضان . . ولهذا فليس هناك ما يسعى إليه في حرص الجانب الأكبر من القساوسة أكثر مما يهيئ لهم اللذة الحسية ؟ إنهم لينصرفون إلى المسآدب والولائم . . ويقفون حياتهم وينصرفون إلى القنص والصيد بالصقور ، وهم غارقون في مباحج هذه الحياة الدنيا . .

وقد تملك الجشع أيضاً . . : قلوب كل القسس . . : إلى حد أننا اليوم

(*) العهد القديم : سفر أشعياء : الإصحاح الأول ، آية ٢١

(**) « » : سفر أرميا : الإصحاح الثالث ، آية ١

لا نرى شيئاً سوى ما يخيله لنا أنه كفيلاً بأن يعود علينا بمغرم ، ونحن نعاني في هذه الأيام من الهراطقة - وهم رجال يتصفون بحماقة عجيبة ، إلا أن هرطقتهم ليست وبائية خبيثة بالنسبة لنا وللناس مثل حياة رجال الدين الفاسدين الغاوين . ولا بد أن يبدأ الإصلاح الديني بكم (٢٦) .

وصاح نائب الأسقف مرة أخرى وهو يتميز غيظاً : « أيها القساوسة . . . يا طائفة القسس . . . أواه ! إن الضلال المقيت الذي يسود فيه هؤلاء القساوسة التعساء ، الذين يضم منهم عصرنا عدداً كبيراً لا يخشون الاندفاع من أحضان بغى دنسة إلى حرم الكنيسة ، وإلى مذبح المسيح ، وإلى أسرار العشاء الرباني (٢٧) .

بل إن رجال الدين النظاميين أو الرهبانيين تعرضوا لاستنكار شديد ، فقد اتهم كبير الأساقفة مورتون عام ١٤٨٩ الراهب وليام من دير سانت ألبانز بـ « الاتجار في المقدسات والرتب والوظائف الدينية والربا والاختلاس والعيش علناً وباستمرار مع العاهرات والعشيقات داخل أرباض الدير وخارجه » واتهم الرهبان بأنهم يحبون حياة داعرة كلا بل يلدنسون الأماكن المقدسة ، حتى كنائس الرب بالذات بمضاجعة الراهبات الممقوتة » . ويحاولون ديراً ثانوياً مجاوراً إلى « ماخور عام » (٢٨) :

وترسم سجلات الجولات التفتيشية الأسقفية صورة أقل اكفها راء . فن بين اثنين وأربعين ديراً تم التفتيش عليها بين عامي ١٥١٧ و ١٥٣٠ وجد خمسة عشر ديراً لم تقترف فيها خطيئة كبيرة ، وفي معظم الأديار الأخرى كانت جرائم التعدى على النظام أكثر منها على العفة (٢٩) . وكانت بعض الأديار لا تزال تمارس نظام الصلاة في القرون الوسطى والإقبال على العلم والضيافة والبر وتعليم الشباب . واستغل بعضها السداجة وجمعت النقود من العامة لمخلفات وهمية نسبوا إليها شفاء معجزاً من الأمراض ، وشكوا أساقفة

من « الأحذية المنتنة والأمشاط القذرة . . والزنارات الرثة وخصلات الشعر والحرق القذرة المقررة والموصى بها للجهالة من الناس . باعتبارها مخلفات صحيحة لنساء أو رجال مقدسين(٣٠).

وعلى الجملة فإن الأديار الستائة في إنجلترا أظهرت ، طبقا لتقدير آخر مؤرخ كاثوليكي ، سوء سلوك على نطاق واسع وكسلا متلافا وإهمالا يكلف غالبا في رعاية أملاك الكنيسة(٣١).

وفي عام ١٥٢٠ كان في إنجلترا نحو ١٣٠ ديراً للراهبات . منها أربعة فقط تضم ما يزيد على ثلاثين نزيله(٣٢). وألغى الأساقفة ثمانية أديار ، وقال الأسقف في إحدى الحالات بسبب « الأخلاق الداعرة لنساء البيت وتبذطن بسبب مجاورتهن لجامعة كمبردج(٣٣) » . وتمت ثلاث وثلاثون جولة تفتيشية لواحد وعشرين ديراً للراهبات في أبرشية لنكولن وقدمت عنها تقارير من بينها ستة عشر تقريراً مشجعاً ، وأربعة عشر تقريراً تضمنت ملاحظات عن الافتقار إلى النظام أو الأخلاق وتقاريران تحدثا عن راهبات كن يعشن في الخنا ، وتقارير وجد راهبة حاملا من قسيس(٣٤) : وكانت مثل هذه الانحرافات عن القواعد الصارمة تعد طبيعية في المناخ الأخلاقي السائد في تلك العصور ، ولعل الخدمات الكريمة في التعليم والبر كانت ترجحها .

وكان رجال الدين لا يتمتعون بالشعبية . وكتب يوستاس شابويس السفير الكاثوليكي لشارل الخامس في إنجلترا إلى مولاه عام ١٥٢٩ فقال : « إن كل الناس يكرهون القساوسة »(٣٥) . وندد كثير من الناس ، من المتشبهين بعقيدة المحافظين تماما بقسوة الضرائب التي فرضها رجال الدين وتبذير الأساقفة وثراء الرهبان وكسلهم . وعندما اتهم كاتب سر أسقف لندن بقتل هرطيق (١٥١٤) توسل الأسقف إلى ولزي أن يمنع المحاكمة أمام محلفين مدنيين « لأنني واثق أن كاتب سرى لو حوكم أمام أى اثني عشر

رجلا في لندن فإنهم سوف ينحازون في حقد إلى صف المرطيق إلى حد أنهم سوف يلبذون كاتبى ويدينونه على الرغم من لأنه برىء مثل هابيل» (٣٦).

وأخذت المرطقة تشتد مرة أخرى . وفي عام ١٥٠٦ اتهم خمسة وأربعون رجلا بالمرطقة أمام أسقف لنكولن وتراجع ثلاثة وأربعون عما قالوا ، وأحرق اثنان . وفي عام ١٥١٠ حاكم أسقف لندن أربعين هرطيقا وأحرق اثنين ، وفي عام ١٥٢١ حاكم خمسة وأربعين وأحرق خمسة ، وتورد السجلات قائمة تضم ٣٤٢ محاكمة مثل هذه في خلال خمسة عشر عاما (٣٧) .

ومما كان يعد بين المرطقات الجدل حول القرهان المقدس وهل يظل يقدم من الخبز فحسب ، وأن المساوسة لا حول لهم ولا قوة أكثر من الآحاد الآخرين من الناس في التكريس أو الحل ، وأن القرابين المقدسة ليست ضرورية للحصول على الخلاص ، وأن رحلات الحج إلى المزارات المقدسة والصلاة من أجل الموتى لا قيمة لها ، وأن الصلوات يجب أن توجه لله وحده ، وأن في وسع الإنسان أن يظفر بالنجاة بالإيمان وحده ، بغض النظر عما يقدم من صالح الأعمال ، وأن المسيحي المخلص فوق كل القوانين ما لنا شريعة المسيح ، وأن الكتاب المقدس والكنيسة يجب أن يكونا القاء الوحيدة التي يحتكم إليها في العقيدة ، وأن كل الرجال يجب أن يتزوجوا ، وأن الرهبان والراهبات يجب أن يجهدوا أقسامهم بالتزام العفة .

وكانت بعض هذه المرطقات أصباء لمذهب لولارد ، وكانت بعضها انعكاسات لنفخات من بوق لوثر ،

وفي أوائل عام ١٢٥١ كان الثائرون الشبان في اكسفورد يتلقفون في لطفة أنباء الثورة الدينية في ألمانيا ، وآوت كامبردج في أعوام ١٥٢١ - ٢٥ اثني عشر من زعماء هرطقة المستقبل ، وليام تيندال وميلز كوفردال وهيولاتييمر وتوماس بلنى وادوارد فوكس ونيكولاس ردلى وتوماس

كرامر . . . لقد هاجر كثير منهم : وهم يتوقعون الاضطهاد ، إلى القارة ، وطبعوا كراسات دينية مناهضة للكاثوليكية وبعثوا بها سرا إلى إنجلترا .

وأصدر هنرى الثامن عام ١٥٢١ كتابه المشهور « قضية المقدسات السبعة ضد مارتن لوثر » ، وعلنه أصدره كرادع لهذه الحركة أو ربما لإظهار سعة علمه فى اللاهوت ، واعتقد الكثيرون أن ولزى هو المؤلف الخفى ، ولعل ولزى هو الذى اقترح تأليف الكتاب ، وصاحب ما ورد فيه من أفكار رئيسية كجزء من دبلوماسيته فى روما ، بيد أن إرازموس ادعى أن الملك قد فكر فى الرسالة من أولها لآخرها وألفها ، ويميل الحكم الآن إلى هذا الرأى . وهذا الكتاب له سمات المبتدئ ، وهو لا يكاد يحاول تقديم رد عقلى يدحض به الآراء الأخرى ، ولكنه يعتمد على فقرات منقولة من الكتاب المقدس والروايات الكنسية والتعسف الشديد . وكتب الناشر المنتظر ضد البابوية يقول : « أى ثعبان سام يصل إلى درجة من يصف ساطة البابا بأنها مستبدة ؟ . . . وأى جارحة من جوارح الشيطان تحاول أن تمزق أعضاء المسيح وتفصلها عن رأسها » . ما من عقوبة يمكن أن تكون جسيمة عندما توقع على من يعصى التمس الأكبر والقاضى الأعلى على الأرض « لأن الكنيسة بأسرها ليست رعية للمسيح فحسب . . . بل لكاهن المسيح الوحيد ، بابا روما » (٢٨) . « وكان هنرى يغط ملك فرنسا على ألقاب التشرىف التى تسبغها الكنيسة عايمه مثل : « أكثر المسيحيين مسيحية » وفرديناند وايزابلا على لقب العاهلين الكاثوليكين . وعندما قدم وكيله وقتذاك الكتاب إلى ليو العاشر طلب منه أن يمنح هنرى وحلفاءه لقب - حامى العقيدة - ووافق ليو ووضع من استهل الإصلاح الدينى فى إنجلترا الكلمات على سكتته .

وتمهّل لوثر فى الإجابة . ورد عام ١٥٢٥ ردا فريدا على ذلك « الحمار الأحمق » ، « وذلك المجنون الهائج . . . ملك الأكاذيب ، الملك

هينز ، ملك إنجلترا يغضب الله . . . ولما كانت تلك الدودة اللعينة العفنة قد افترت كذبا بشر مبيت على مليكي في السماء فإنه يحق لي أن أُلطخ هذا الملك الإنجليزي بقدره « (٣٩) » ولم يتعود هنري على هذا الرشاش فاشتكى إلى أمير سكسونيا المختار الذي قال له بأدب بجم ألا يتطفل على الأسود ، ولم يصفح الملك قط عن لوثر على الرغم من اعتذاره فيما بعد ، ونبذ البروتستانت الألمان حتى عندما تمرد تماما على البابوية .

وكان أعظم رد مفحم للوثر هو نفوذه في إنجلترا ففي ذلك العام نفسه ١٥٢٥ نسمع عن « جمعية الإخوان المسيحيين » . في لندن التي انطلق وكلاؤها المأجورون يوزعون كراسات دينية لوثرية وهرطقية أخرى وأناجيل بالإنجليزية كلها أو بعضها .

وفي عام ١٤٠٨ انزعج كبير الأساقفة أرونديل بسبب توزيع نسخة الكتاب المقدس التي ترجمها ويكلف ، فمنع القيام بأي ترجمة له باللغة الوطنية دون الحصول على موافقة من الأسقف ، على أساس أن أي نسخة تترجم بدون ترخيص قد يحدث فيها تحريف للفقرات الصعبة ، أو تلون التعبير لتأييد هرطقة . ولم يشجع كثير من رجال الدين قراءة الكتاب المقدس بأي صيغة ، واحتجوا بأن الترجمة الصحيحة تستلزم معرفة خاصة ، وأن المنتخبات من الكتاب المقدس كانت تستخدم لإثارة الفتنة (٤٠) . ولم تبد الكنيسة أي اعتراض رسمي على الترجمات السابقة لولا يكلف بيد أن هذا الإذن المفهوم ضمنا لم تكن له أهمية لأن كل النسخ الإنجليزية قبل عام ١٥٢٦ كانت مخطوطة (٤١) .

ومن ثم تأتي الأهمية الزمنية للعهد الجديد الإنجليزي الذي نشره تندال عام ١٥٢٥ - ٢٦ . وكان قد فكر مبكراً في أيام دراسته في ترجمة الكتاب المقدس ، لا من النسخة اللاتينية له كما فعل ويكلف ، بل من الأصليين

العبرى واليونانى . وعندما لامه كاثوليكي غيور وقال له : « خير لك أن تعيش بلا شريعة الرب » أى الكتاب المقدس من أن تعيش بشريعة البابا » ، رد تندال بقوله : « إذا مد الله فى عمرى فلن تمضى بضع سنين حتى أجعل الصبى الذى يدفع المحراث يعرف من الكتاب المقدس أكثر مما تعرف أنت (٢٤) » . ومنحه أحد معاونى بلدية لندن الفراش والمأوى لمدة ستة شهور عكف الشاب أثناءها على العمل . وذهب تندال عام ١٥٢٤ إلى فننبرج واستمر فى العمل تحت إرشاد لوثر . وبدأ فى كولونيا بطبع نسخة العهد الجديد المترجمة من النص اليونانى كما حققه ارازموس . وأثار وكيل إنجيزى السلطات عليه ، ففر تندال من كولونيا الكاثوليكية إلى ورمز البروتستانتية ، وهناك طبع ٦,٠٠٠ نسخة ، أضاف لكل منها مجلدا منفصلا ضمنه تعليقات ومقدمات عدوانية ، اعتمد فيها على مقدمات إرازموس ولوثر . وهربت كل هذه النسخ إلى انجلترا وكانت بمثابة الوقود ، الذى أشعل نار البروتستانتية الأولى ، وزعم كوثربرت تونستال ، أسقف لندن أن هناك أخطاء شنيعة فى الترجمة ، وتحادلا مخرضا فى التعليقات ، وهرطقات فى المقدمات ، وحاول أن يمنع تداول الطبعة بشراء كل النسخ المكتشفة وإحراقها علنا فى ميدان سانت بول كروس ، بيد أن نسخا جديدة ظلت ترد من القارة ، وعاق مور على ذلك بقوله إن تونستال كان يمول مطبعة تندال . وكتب مور نفسه حوارا مستفيضاً (١٥٢٨) ، انتقد فيه النسخة الجديدة فرد عليه تندال ، ورد مور على الرد فى « تفنيد » يتألف من ٥٧٨ صفحة من القطع الكبير . ورأى الملك أن يخدم الفتنة بمنع قراءة الكتاب المقدس بالإنجليزية وتداوله ، إلى أن تصدر ترجمة معتمدة من ذوى الشأن (١٥٣٠) ، وفى غضون ذلك حرمت الحكومة كل طبع أو بيع أو استيراد أو حيازة للمؤلفات الهرطقية .

وبعث ولزى بأوامره بالقبض على تندال ، إلا أن فيليب ، حاكم لاندجراف هس أسبغ حمايته على المؤلف ، وتابع في ماربورج ترجمته للأسفار الخمسة (١٥٣٠) . وترجم الجانب الأكبر من العهد القديم إلى الإنجليزية في أناة ، بجهده الخاص أو تحت إشرافه . غير أنه سقط في أيدي الموظفين الإمبراطورين في لحظة لم يتخذ فيها احتياطاته وسجن لمدة ستة عشر شهراً في فلفورد (قرب بروكسل) ، وأعدم في المحرقة (١٥٣٦) على الرغم من تشفع توماس كرومويل وزير هنرى الثامن . وتحدثنا الرواية أن آخر كلماته كانت : « رباه ، افتح عيني ملك إنجلترا (٤٣) » وقد عاش ما يكفي لإتمام رسالته ، فالصبي الخارث يستطيع الآن أن يسمع المبشرين الإنجليبين الآن وهم يروون له بلإنجليزية ثابتة واضحة قوية قصة المسيح الملهمة . وعندما ظهرت النسخة التاريخية المعتمدة (١٦١١) كان ٩٠ في المائة من أعظم ما كتب في الأدب الكلاسي الإنجليزي وأشدها تأثيراً كانت لتندال بلا تغيير (٤٤) .

وكان موقف ولزى تجاه هذا الإصلاح الديني الإنجليزي الوليد يتسم باللين ، كما يمكن أن يتوقع من رجل على رأس الكنيسة والحكومة على السواء . فاستأجر شرطة سرية لكشف الهرطقة ، وفحص الأدب المشكوك فيه والقبض على الهرطقة . غير أنه سعى إلى إغراء هؤلاء بأن يسبكتوهم لأن يعاقبهم ، ولم يصدر أوامره قط بإرسال هرطيق إلى المحرقة . وفي عام ١٥٢٨ سجن ثلاثة من طلبة جامعة أكسفورد بتهمة الهرطقة ، وترك أسقف لندن واحداً منهم يموت في الحبس وأنكر آخر ما قاله وأطلق سراحه ، أما الثالث فأخذته ولزى ووضعته تحت رعايته وسمح له بالفرار (٤٥) . وعندما ندد هيو لاتيمر ، أفصح المصلحين المدينين الأوائل في القرن السادس عشر بإنجلترا ، بفساد رجال الدين وطلب أسقف ايلي من ولزى منعه ، منح ولزى لاتيمر ترخيصاً بالوعظ في أى كنيسة بالبلاد .

ورسم الكاردينال خطة ذكية لإصلاح الكنيسة . وفي رواية لأسقف
برنت أنه كان يحتقر رجال الدين وبخاصة . . . الرهبان الذين لا يؤدون
خدمة للكنيسة أو الدولة ، ولكنهم كانوا بسبب حياتهم الفاضحة وصمة
عار في جبين الكنيسة وحملوا على الدولة . ومن ثم قرر أن يوقف عدداً منهم
ويحولهم إلى مؤسسة أخرى (٤٦) . ولم يكن إغلاق دير لا يودى وظيفته
على ما يرام بالأمر الذي لم يسمع به من قبل ، فقد حدث في كثير من
الحالات قبل ولزى بأمر صدر من الكنيسة . وبدأ (١٥١٩) بإصدار
تشريعات لإصلاح القوانين الكنسية التي وضعها سانت أوغستين « ولو أن
هذه القواعد اتبعت لأصبحت القوانين الكنسية نموذجية للغاية . وفوض
كاتم سره توماس كرومويل في زيارة الأديار بنفسه أو بواسطة وكلاء له
وأن يقدم له تقارير عن الأحوال الموجودة ، وأتاحت هذه الجولات
التفتيشية مهارة متمرسه لكرومويل في تنفيذ أوامر هنرى فيما بعد بتقصي
الحياة في الأديار بالجلترا بشدة . وارتفعت الأصوات بالشكوى من قسوة
هؤلاء الوكلاء ومن تلقيهم « الهدايا » أو أخذها كرها ، وعن مشاطرتهم
كرومويل والكاردينال (٤٧) في هذه الهدايا . وحصل ولزى عام ١٥٢٤ على
إذن من البابا كليمنت السابع بإغلاق الأديار التي تضم أقل من سبعة نزل
واتفاق دخول هذه الممتلكات على إنشاء كليات . وشعر بالسعادة عندما
مكنته هذه الأموال من فتح كلية في موطنه ابسويتش وأخرى في أكسفورد
وراوده الأمل في أن يستمر على هذا المنوال فيغلق المزيد من الأديار عاماً
بعد عام ويستبدل بها كليات (٤٨) . إلا أن نياته الطيبة ضاعت في غمرات
السياسة ، وكانت أعظم نتيجة لإصلاحاته المتعلقة بالأديار هي أنه
زود هنرى بسابقة جديدة بالإجلال لخطة أبعد مدى ، وتدر
ربحاً أكثر .

وفي غضون ذلك كانت سياسة الكاردينال الخارجية قد أدت إلى نتيجة تدعو إلى الأسى . ولعله سمح لانجلترا بالانضمام إلى شارل في حربه مع فرنسا (١٥٢٢) لأنه كان يسعى إلى الحصول على تأييد الإمبراطور لترشيحه للبابوية (١٥٢١) . ومنيت الحملات الإنجليزية بالفشل وتكلفت أموالا طائلة ، وأزهقت فيها أرواح كثيرة .

ودعا ولزى (١٥٢٣) أول مجاس نيابى في سبع سنوات ، لتمويل الجهود الجديدة ، وصدمه بطلب إعانة مالية لم يسبق لها مثيل قدرها ٨٠٠,٠٠٥ جنيه - أى خمس ما يملكه كل علمانى . واحتج أعضاء مجلس العموم ثم صوتوا على السبع فقط ، واحتج رجال الدين بيد أنهم سلموا دخل نصف عام من كل الصدقات . وعندما وصلت الأنباء بأن جيش شارل قد تغلب على الفرنسيين في بافيا (١٥٢٥) وأخذ فرانسيس أسيراً . رأى هنرى وولزى أن من الحكمة أن يسهما فى تقطيع أوصال فرنسا الذى يوشك أن يحدث . ووضعت خطة للقيام بغزو جديد واقتضى الأمر تدبير المزيد من الأموال وخاطر ولزى بآخر ما تبقى له من شعبية ، بأن طلب من كل الإنجليز الذين يتجاوز دخلهم ٥٠ جنيهاً (٥٠٠ دولار ؟) أن يسهموا بسدس أموالهم فى « هبة ودية » ، لمتابعة الحرب والوصول بها إلى غاية مجيدة ، « ودعونا نتبرع ودياً حتى نمنع شارل من ابتلاع فرنسا بأسرها » .

وقوبل الطلب بمقاومة انتشرت على نطاق واسع اضطر ولزى إلى أن يتحول إلى وضع برنامج للسلام . ووقعت معاهدة للدفاع المتبادل مع فرنسا كتحاوله أخرى لاستعادة توازن القوى . . ولكن جنود الإمبراطور استولوا عام ١٥٢٧ على روما وأسروا البابا وبدا أن شارل

قد أصبح وقتذاك سيد القارة الذي لا يقهر ، وقضى على سياسة ولزي القائمة على الصد والتوازن . وانضمت إنجلترا إلى فرنسا عام ١٥٢٨ في الحرب ضد شارل .

وكان شارل ابن أخى كاثارين الأراجونية التي كان هنرى شديد الرغبة في الطلاق منها ، وكان كليمنت السابع ، الذى يستطيع أن يمنحه لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ، أسيرا لشارل بشخصه وسياسته .

٤ - طلاق الملك

جاءت كاتارين الأراجونية ، ابنة فرديناند وإيزابلا إلى إنجلترا عام ١٥٠١ ، وكانت فى السادسة عشرة من عمرها وتزوجت (١٤ نوفمبر) من آرثر البالغ من العمر خمسة عشر عاما ، وهو أكبر أبناء هنرى السابع . ومات آرثر فى اليوم الثانى من إبريل عام ١٥٠٢ وكان المفروض بوجه عام أن الزوج قد دخل بزوجته . ومن ثم أرسل السفير الأسباني قياما بالواجب « أدلة » إلى فرديناند ولم ينتقل لقب آرثر ، أمير ويلز رسميا إلى شقيقه الأصغر هنرى إلا بعد مرور شهرين على وفاة آرثر (٤٩) . ولكن كاتارين أنكرت أن زوجها دخل بها . وقد أحضرت معها صداقا قدره ٢٠٠.٠٠٠ دوكات (٢٠٠.٠٠٠ دولار ؟) وكره هنرى السابع أن يدع كاتارين تعود إلى إسبانيا ومعها هذه الدوكات ، وتلطف على أن يجدد مصاهرتة لفرديناند القسرى فاقترح أن تتزوج كاتارين من الأمير هنرى على الرغم من أنها كانت تكبر الصبي بست سنوات . وكانت هناك آية فى الكتاب المقدس (سفر اللاويين اصحاح ٢٠ : آية ٢١) تحرم هذا الزواج :

« وإذا أخذ رجل امرأة أخيه فذلك نجاسة . . . يكونان عقيمين » ومهما يكن من أمر فإن هناك آية أخرى تنص على خلاف ذلك : « إذا سكن إخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة » . (سفر التثنية : اصحاح ٢٥ آية ٥) . واستنكر كبير الأساقفة وارهام الزواج المقترح ودافع عنه الأسقف فوكش الونشستري إذا أمكن الحصول على محال من البابا للمانع من المصاهرة . وطلب هنري السابع الحصول على المحال . فنححه له البابا يوليوس (١٥٠٣) . وجادل بعض خبراء القانون الكنسي في حق البابا في التحلل من مبدأ نص عليه الكتاب المقدس (٥٠) وأكد البعض حقه في هذا ، أما يوليوس نفسه فقد راودته بعض الشكوك (٥١) . وأعلنت رسمياً الخطبة ، وهى فى الواقع زواج شرعى — عام ١٥٠٣ ، ولما كان العريس لا يزال فى الثانية عشرة من عمره فحسب فقد أجلت المعاشرة . وفى عام ١٥٠٥ طلب الأمير هنرى إعلان بطلان الزواج ، لأن أباه أكرهه (٥٢) عليه ولكنه أقنع بصحة الزواج على أساس أنه فى مصلحة إنجلترا .

وفى عام ١٥٠٩ ، وبعد ستة أسابيع من ارتقائه العرش احتفل علنا بالزواج . وبعد سبعة شهور (٣١ يناير سنة ١٥١٠) أنجبت كاترين أول طفل لها ، وقد مات عند الولادة . وأنجبت بعد ذلك بعام ابناً وابتهج هنرى بولادة وريث ذكر يصل به سلسلة نسب تيودور ، ولكن الطفل مات بعد بضعة أسابيع وسقط ابن ثان وثالث بعد الولادة مباشرة (١٥١٣ و ١٥١٤) . وبدأ هنرى يفكر فى الطلاق . أو بعبارة أدق فى إعلان بطلان الزواج باعتباره غير صحيح . وحاولت كاترين المسكينة مرة أخرى وفى عام ١٥١٦ أنجبت طفلة قدر لها أن تكون الملكة مارى . وأذعن هنرى وقال لنفسه : « إذا كانت هذه المرة ابنة فإن الأبناء سوف يجيئون بعدها (٥٣) »

بفضل الله ومنه . وفي عام ١٥١٨ أنجبت كاترين ابنا آخر ولد ميتا . واشتدت خيبة أمل الملك والبلاد لأن ماري البالغة من العمر عامين ، كانت قد خطبت إلى ولي عهد فرنسا ، وإذا لم يرزق هنري بولد فإن ماري سوف ترث العرش الإنجليزي ، وعند ما يصبح زوجها ملكا على فرنسا فإنه سيكون في الواقع ملكا على إنجلترا أيضا ، وتصبح بريطانيا مقاطعة تابعة لفرنسا ، وكان دوقات نورفولك وبكنجهام تداعبهم الآمال في أن يزيجوا ماري ويضمنوا التاج لأنفسهم ، وأطلق بكنجهام لسانه فاتهم بخيانة البلاد وقطع رأسه (١٥٢١) ، وعبر هنري عن خوفه من أن يكون حرمانه من إنجاب ولد عقابا من الله لأنه استخدم محللا بابويا^(٤٥) من وصية واردة في الكتاب المقدس . وأقسم ليقودن حملة صليبية ضد الأتراك إذا أنجبت له الملكة ولدا . غير أن كاترين لم تحمل بعد ذلك . وما أن حل عام ١٥٢٥ حتى تخلى عن كل أمل في الحصول على ذرية أخرى منها .

وكان هنري منذ أمد بعيد قد فقد الميل إليها باعتبارها أنثى . وكان وقتذاك في الرابعة والثلاثين ، أي في عنفوان الرجولة الفتية ، وكانت في الأربعين وتبدو أكبر من سنها . ولم تكن قط مغرية ، وألحق أن مرضها المتكرر ، أو ما صادفها من سوء الحظ ، قد شوه جسدها وأضفى على روحها قتامة . وكانت تبرز النساء بثقافتها ودمائتها ولكن الأزواج قلما يرون أن التضلع في العلم خلة محمودة في الزوجة . وكانت زوجة صالحة مخلصه ، تحب زوجها حبا لا يفوقه إلا حبا لإسبانيا : وكانت ترى نفسها باعتبارها - وكانت كذلك لفترة ما - سفيرة لإسبانيا وكانت ترى أن إنجلترا يجب أن تقف دائما في صف فرديناند أو شارل : وفي حوالى عام ١٥١٨ اتخذ هنري أول حظية له عرفها بعد الزواج وهي الزابيث بلاوتد شقيقة مونتجوى صديق ارازموس : وأنجبت له ابنا عام ١٥١٩ وأنعم هنري على الصبي بلقب

دوق رتشموند وسومرست ، وفكر فى أن يقف ورائة العرش عايه .
وفى عام ١٥٢٤ اتخذ حظية أخرى ، هى مارى بولين(٥٥) ، والحق أن
سير جورج ثروكورتون اتهمه فى وجهه بالزنا مع أم مارى أيضا(٥٦) .
وكان هناك قانون غير مكتوب فى ذلك العهد ينص على أن الملك إذا
ما تزوج لأسباب تتعاق بمصاحبة الدولة ولم يكن ذلك باختياره ، فإن له
الحق فى أن ينشد خارج الزواج الغرام الذى فقده فى الخلع الشرعى .

وفى عام ١٥٢٧ أو قبله حول هنرى فنته إلى آن شقيقة مارى . وكان
والدهما سير توماس بواين ، تاجرا دياوماسيا حظى منذ وقت طويل بوظف
الملك ، أما أهما فكانت من آل هوارد ، وهى ابنة الدوق نورفولك .
وأرسلت آن لى باريس لإتمام دراستها فيها ، وهناك عيت وصيفة للداكة
كلود ثم لمرجريت دى نافار ، واعلمها تشربت منها بعض النوازع البروتستانتية .
وكان فى وسع هنرى أن يراها فتاة طرويا فى الثالثة عشرة من عمرها فى
ميلدان كاوث أف جولد ، وعندما عادت إلى إنجلترا وهى فى الخامسة عشرة
من عمرها (١٥٢٢) أصبحت وصيفة للداكة كاترين . ولم تكن رائعة
الجمال ، وكانت قصيرة القامة لها بشرة قائمة وفم واسع ورقبة طويلة ،
ولكنها خلقت لب هنرى وآخرين غيره بعينها السوداوين البراقطين وشعرها
البنى المسترسل ورشاقتها وذكائها ومرحها . وكان لها بعض العشاق المولدين
بها ، ومنهم توماس ويات الشاعر ، وهنرى برسى ، الذى أصبح فيما بعد
ليرل نورثمبرلاند ، واتهمها أعداؤها فيما بعد بأنها كانت متزوجة فى
السر من برسى قبل أن تضع أنظارها على الملك ، إلا أن الدليل لم يكن
قاطعا(٥٧) . ولا نعرف متى بدأ هنرى يطارحها الغرام وأقدم رسائل الحب
الباقية التى كتبها لها ترجع فيما يرجح إلى يولية عام ١٥٢٧ .

ما هى العلاقة بين هذه القصة الغرامية والتماس هنرى الحكيم بيطان

زواجه؟ مما لا جدال فيه أنه قد فكر في هذا الأمر في وقت يرجع إلى عام ١٥١٤ عندما كانت آن فتاة في السابعة من عمرها . ويبدو أنه طرح الفكرة بجانبها حتى عام ١٥٢٤ ، عندما كف عن مباشرة علاقاته الزوجية مع كاترين ، وفقا لروايته (٥٨) . وأقدم لإجراءات سجلت ببطان الزواج اتخذت في مارس عام ١٥٢٧ ، بعد تعرف هنرى بأن بوقت طويل ، وفي الوقت الذى حلت فيه محل شقيقتهما في أحضان الملك . والظاهر أن ولزى كان لا يعلم شيئاً عن أى نية للملك في الزواج من آن عندما ذهب في يوليو عام ١٥٢٧ إلى فرنسا لإعداد العدة للزواج بين هنرى ورينيه ، ابنة لويس الثاني عشر التى سرعان ما أثارت حركة بروتستانتية في إيطاليا . وأول إشارة لما انتواه هنرى وردت في خطاب أرسله يوم ١٦ أغسطس سنة ١٥٢٧ السفير الإسباني إلى شارل الخامس يبلغه فيه أن هناك اعتقادا عاما في لندن بأن الملك إذا حصل على « طلاق » فإنه سوف يتزوج « ابنة سير توماس بولين (٥٩) » ولم يكن هذا يعنى ماري بولين لأن هنرى وأن كانا يعيشان في شقتين متجاورتين تحت نفس السقف في جرينوتش (٦٠) عند حلول نهاية عام ١٥٢٧ . وقد نستنتج من هذا أن هنرى سارع بطلب بطلان الزواج على الرغم من أنه يصعب أن يقال إن السبب في ذلك هو افتتانه بأن . وكان السبب الأساسى رغبته في الحصول على ولد يمكن أن ينقل إليه العرش مع شىء من الثقة في خلافة هادئة . وكانت إنجلترا بأسرها تشاطره ذلك الأمل . وتذكر للناس في فزع السنوات العديدة (١٤٥٤ - ٨٥) التى نشبت فيها الحرب بين بيتى يورك ولانكاستر على التاج ، ولم يكن قد مضى على ظهور أسرة تيودور غير اثنين وأربعين عاما في سنة ١٥٢٧ ، وكان حتمها في العرش مشكوكا فيه ، ولم يكن فى وسع أحد أن يصل حبل الأسرة الحاكمة دون منازع إلا ولد شرعى ينحدر مباشرة من صلب الملك ، ولو لم يلتق هنرى قط بأن بولين فإنه كان قديماً

بأن يرغب في الحصول على طلاق وزوجة ولود بصورة مقبولة : ولا شك أنه يستحق هذا .

واتفق ولزى مع الملك في هذا الموضوع وأكد له أنه يمكن الحصول على قرار من البابا ببطلاق الزواج ، وكانت سلطة البابا في منح مثل هذا الانفصال أمر مقبول بوجه عام ، كإجراء حكيم لتلبية مثل هذه الضرورات الوطنية تماما ، ويمكن تقديم سوابق كثيرة . بيد أن تقدير الكاردينال المشغول لم يعمل حسابا لتطورين بغيضين : فهنرى لم يكن يريد ريليه بل كان يريد أن ، وهطلان الزواج سوف يصدر من بابا ، كان عند ما وصلته المشكلة ، أسيراً لإمبراطور ، كان لديه أكثر من سبب لمناسبة هنرى العدا . وربما كان شارل حرياً بأن يعارض بطلاق هذا الزواج ما دامت عمته تقاومه ، وكان يعارض أكثر لو عقد زواج جديد ، كما دبر ولزى ، بربط إنجلترا بحلف قوى مع فرنسا . ولم يكن السبب الأولى للإصلاح الدينى الإنجليزي هو جمال آن بولين الصاعد ، بل الرفض العنيد الذى بدأ من كاترين وشارل فى إدراك عدالة رغبة هنرى فى الحصول على ولد . واشتركت الملكة الكاثوليكية مع الإمبراطور الكاثوليكي والبابا الأسير فى انفصال إنجلترا عن الكنيسة . ولكن السبب النهائى للإصلاح الدينى الإنجليزي لم يكن طلب هنرى بطلاق الزواج بقدر ما كان من ارتفاع شأن الملكية الإنجليزية وبلوغها درجة من القوة جعلتها قادرة على أن ترفض التسليم بسلطة البابا فى التدخل فى شؤون إنجلترا ، وتحكمه فى مواردها .

وأكد هنرى أن رغبته العارمة فى الحصول على بطلاق الزواج إنما دعا إليها جبرييل دى جرامون الذى أقبل إلى إنجلترا فى فبراير عام ١٥٢٧ لمناقشة الزواج المقترح بين الأميرة ماري والأسرة الملكية الفرنسية . فقد أثار جرامون ، كما يروى هنرى ، سؤالاً عن شرعية بنوة ماري ،

على أساس أن زواج هنرى بكاترين قد يكون غير صحيح باعتباره مخالفة لأحد نواهي الكتاب المقدس ولا يستطيع البابا أن يمحوها . وظن البعض أن هنرى لفق القصة (٦١) ، ولكن ولزى ردها وأبلغت إلى الحكومة الفرنسية (٥٢٨) ، ولم ينكرها ، بقدر ما هو معروف جرامون ، وجاهد جرامون لإقناع كليمنت بأن طلب هنرى بطلان الزواج أمر عادل ، وأبلغ شارل سفيره في إنجلترا (٢٩ يوليو سنة ١٥٢٧) أنه كان ينصح كليمنت برفض التماس هنرى .

وبينما كان ولزى في فرنسا أبلغ على وجه التحديد بأن هنرى لا يرغب في الزواج من رينيه بل يريد الزواج من آن . واستمر يعمل للحصول على البطلان ، ولكنه لم يخف اكتتابه بسبب اختيار هنرى : وتجاوز الملك حاجبه في خريف عام ١٥٢٧ ، وبعث بكاتم سره وليام نايت لتقديم ملتمسبن للبابا الأسير ، الأول يتضمن أن كليمنت ، إذ يعرف على صحة زواج هنرى الذى تكتنفه الشكوك وافتقاره إلى ذرية من الذكور وكرهية كاترين للطلاق ، يجب أن يسمح لهنرى بالاحتفاظ بزوجتين . وأمد الملك أمراً في آخر لحظة أئني نايت عن تقديم هذا الاقتراح ، وكانت جراءة هنرى قد نهدت ولا بد أنه ذهل ، عندما تلقى ، بعد ثلاث سنوات ، خطاباً من جيوفانى كاسالى أحد وكلائه في روما ، مؤرخاً في ١٨ سبتمبر سنة ١٥٣٠ يقول فيه : « منذ بضعة أيام اقترح على البابا سرّاً أن يأذن لجانك باتخاذ زوجتين (٦٢) » . وكان ملتمس هنرى الثانى لا يقل غرابة ، على البابا أن يمنحه محلاً للزواج من امرأة كان للملك علاقات جنسية مع نخبها (٦٣) . ووافق البابا على هذا بشرط أن يعلن بطلان الزواج بكاترين إلا أنه لم يكن على استعداد لإعلان بطلان هذا الزواج . وكان كليمنت لا شئ شارل فحسب بل كان ينفر من القاعدة التى تقضى بأن أحد

للبابوات للسابقين قد ارتكب خطأً جسماً بإعلان صحة الزواج . وتلقى في نهاية عام ١٥٢٧ ملتصقاً ثالثاً - بأنه يجب أن يعين ولزى قاصداً رسولياً آخر لعقد محكمة في إنجلترا تسمع الدليل وتحكم بصحة زواج هنرى بكاترين . وأذعن كليمنت (١٣ إبريل سنة ١٥٢٨) ، وعين الكاردينال كامبيجيو لعقد جلسة مع ولزى في لندن وواعد - في منشور بابوى لا يطلع عليه سوى ولزى وهنرى - أن يؤيد أى قرار يتخذه المندوبان البابويان (٦٤) . وربما كان لانضمام هنرى إلى فرانسيس (يناير سنة ١٥٢٨) في إعلان الحرب على شارل وتعهدهما بتحرير البابا قد أثر في إذعان البابا .

واحتج شارل وأرسل إلى كليمنت نسخة من وثيقة ادعى أنها وجدت في المحفوظات الإسبانية ، وفيها أكد يوليوس الثانى صحة المخلل الذى اقترح هنرى وولزى بطلانه . وتعجل البابا ، وهو لا يدري ما يفعل ولا يزال أسيراً لشارل ، فأرسل تعليمات إلى كامبيجيو بالألا ينطق بحكم قبل أن يحصل على تفويض صريح من الآن فصاعداً . . . فإذا ألحق بالإمبراطور ضرر كبير ، فإن كل أمل في السلام العالمى يكون قد تبدد ولا تستطيع الكنيسة أن تنجو من الخراب التام لأنها تخضع خضوعاً كاملاً لسلطان أتباع الإمبراطور . . . أجل بقدر الإمكان (٦٥)» .

وعند وصول كامبيجيو إلى إنجلترا (أكتوبر سنة ١٥٢٨) حاول أن يحصل على موافقة كاترين بالاعتزال في دير للراهبات ، فوافقت بشرط أن يحلف هنرى أيمان الرهبان . ولكن لم تكن هناك أمور أبعد عن ذهن هنرى من الفقر والخضوع والعفة ، ومهما يكن من أمر فإنه اقترح أن يحلف هذه الأيمان إذا وعد البابا يحله منها عند الطلب ورفض كامبيجيو أن ينقل هنا الاقتراح إلى البابا وأبلغه بدلا من ذلك (فبراير سنة ١٥٢٩) بعزم الملك على الزواج من آن . وكتب يقول : « إن هذه العاطفة أمر خارق للعادة أنه لا يرى شيئاً ولا يفكر في شيء سوى حبيبته آن ، إنه

لا يستطيع أن يستغنى عنها ساعة واحدة . وإني لأشعر بالإشفاق عليه عندما أرى أن حياة الملك واستقرار واستموت البلاد بأسرها تتوقف على هذه المسألة وحدها (٦٦) .

وحدثت تغيرات في الموقف الحربى جعلت البابا يتحول أكثر فأكثر ضد اقتراح هنرى . و فشل الجيش الفرنسى ، الذى كان هنرى قد ساعده بتمويله ، فى حملته الإيطالية ، وترك البابا فى حالة اعتماد كلى على الإمبراطور : وطردت فلورنسا حكامها من آل مديتشى - وكان كليمنت مخلصا لتلك العائلة مثله فى ذلك مثل شارل الذى كان مخلصا لآل هابسبورج .

وانتهزت (فينيسيا) البندقية فرصة عجز البابا لكى تنتزع رافنا من الولايات البابوية ، فن كان وقتذاك يستطيع أن ينقذ البابوية سوى أسرها ؟ وقال كليمنت لقد استقر رأي تماما على أن أصبح من أنصار النظام الإمبراطورى ، وسوف أعيش وأموت وأنا متمسك بهذا الرأى (٦٧) . ووقع فى التاسع والعشرين من يونيه معاهدة برشلونه ، وبمقتضاها وعد شارل بإعادة فلورنسا لآل مديتشى ورافنا للبابوية والحرية لكليمنت ، ولكن على شريطة ألا يوافق كليمنت مطلقا على بطلان زواج كاترين إلا برضا كاترين وإرادتها الحرة .

ووقع فرانسيس الأول فى الخامس من أغسطس معاهدة كامبراي التى سلمت فى الواقع لإيطاليا والبابا للإمبراطور .

وفى ٣١ مايو افتتح كامبيجيو مع ولزى المحكمة المختصة بالقاصد الرسولى للنظر فى الالتماس المقدم من هنرى ، بعد أن أجل افتتاحها لأطول مدة ممكنة . واستغاث كاترين بروما ، وأبت أن تعترف باختصاص المحكمة . ومهما يكن من أمر فإن كلا من الملك والمملكة حضرا يوم ٣١ يونيه .

وخرت كاترين على ركبتيها أمامه وتوسلت إليه بكلمات مؤثرة أن يستأنفا حياتهما الزوجية . وذكرته بأعمالها الكثيرة وإخلاصها التام ، وصبرها على لهوه خارج الأسوار ، وأقسمت أن الله يشهد على أنها كانت عذراء عندما تزوجها هنرى ، وتساءلت أى شيء صنعتته أساءت به إليه (٦٨) ؟ فأنهضها هنرى وأكد لها أنه لم يكن هناك ما يتمناه بحماسة أكثر من التوفيق فى زواجهما وأوضح لها أن الأسباب التى حملته على طلب الانفصال ليست شخصية، بل أملتها عليه مصلحة الأسرة المالكة والأمة . ورفض استغاثتها بروما على أساس أن الإمبراطور يسيطر على البابا ، فانسحبت وهى تبكى ، ورفضت أن تشترك بعد ذلك فى الإجراءات القضائية . وتكلم الأسقف فيشر مدافعا عنها ومن ثم اكتسب عداوة الملك . وطالب هنرى بصدور قرار واضح من المحكمة وتحايل كامبيجيو على الماطلة فى إصدار الحكم وأخيراً (٢٣ يولييه سنة ١٥٢٩) أجل المحكمة إلى العطلة الصيفية . وألغى كليمنت القضية وحولها إلى روما لكى يجعل التردد أشد حسماً .

واستشاط هنرى غضبا وشعر بأن كاترين عنيدة بصورة غير معقولة ، فرفض أن تربطه بها أية علاقة بعد ذلك ، وأخذ يقضى ساعات لهوه علنا مع آن . وربما ترجع إلى هذه الفترة معظم رسائل الحب السبع عشرة التى نقلها كامبيجيو سرا من إنجلترا (٦٩)والتي تحتفظ بها مكتبة الفاتيكان بـ ذخائرها الأدبية . ويبدو أن آن المحرقة التى خبرت أساليب معاملة الرجال والملوك لم تمنحه إلا تشجيعاً ودغدغة تثير عواطفه ، وشكت وقتذاك من أن شبابها يضيع فى الوقت الذى يتوانى فيه الكرادلة الذين لم يستطيعوا أن يدركوا رغبة عذراء فى الظفر برجل ميسور - من عترا بحق هنرى فى أن يتوج الرغبة برباط الزواج . ولامت ولزى لأنه لم يتعجل البت فى طلب هنرى بعزم أشد وبلاغ أسرع ، وشاركها الملك استيائها .

وقد بدل ولزى كل ما فى وسعه وإن كان يعارض الأمر بكل جوارحه ؛ وكان قد أرسل بالمال إلى روما لرشوة الكرادلة (٧٠) ولكن شارل كان قد أرسل بدوره مالا وجيشا علاوة على هذا . بل إن الكاردينال كان قد أغضى عن فكرة الزواج من اثنتين (٧١) كما فعل لوثر بعد بضع سنوات ، ومع ذلك عرف ولزى أن آن وأقرباءها من ذوى النفوذ يقومون بمناورة لإسقاطه . وحاول أن يهدئ من ثائرتها بالأطعمة اللذيذة والهدايا الثمينة ، غير أن عداءها كان يزداد كلما طال العهد على إصدار قرار ببطلان الزواج . وتحدث عنها فقال : « إنها العدو الذى لم تكتحل أعيناه قط بالنوم ، ولم يكف عن الدرس والتصوير معا ، فى النوم واليقظة على السواء ، للقضاء المبرم عليه (٧٢) » . وتلبأ بأن البطلان لو منح فإن آن سوف تصبح ملكة وتقضى عليه ، وأنه لو لم يمنح ذلك القرار فإن هنرى سوف يستغنى عنه باعتباره رجلا فاشلا . ويطلب محاسبته على إدارته ، حسابا ماليا دقيقا مفصلا .

وكان لدى الملك أسباب كثيرة لعدم الرضا عن حاجبه ، فقد فشلت السياسة الخارجية وأثبت أن التحول من صداقة شارل إلى الحلف مع فرنسا قد أدى إلى عواقب وخيمة :

ولم يكن فى إنجلترا وقتذاك امرؤ يقول كلمة طيبة فى صالح الكاردينال الذى تمتع يوما بسلطة مطلقة ، فقد كان رجال الدين يكرهونه بسبب حكمه المطلق ، وكان الرهبان يخشون أن يشهدوا مزيدا من حل الأديار ، والعامية يبغضونه لأنه أخذ أبناءهم وأموالهم لشن حروب لا طائل من ورائها ، والتجار يمتنون له لأن الحرب مع شارل عاقت تجارتهم مع الفلاندرز ، والأشراف يكرهونه بسبب ما انتزعه منهم ظلما ، ولكبريائه

الطارئة وثروته التي تضاعفت سريعاً . وأبلغ بعض الأشراف السفير الفرنسي (١٧ أكتوبر سنة ١٥٢٥) بقولهم إنهم « ينوون » عندما يموت ولزى أو يقضى عليه أن يتخلصوا من الكنيسة ويتلقوا أموال الكنيسة وولزى معاً (٧٣) : واقترح القماشون في كنت أن يوضع الكاردينال في قارب يتسرب منه الماء ، ويترك لتتقاذفه الأمواج في البحر (٧٤).

وكان هنرى أشد دهاء . وفي اليوم التاسع من أكتوبر سنة ١٥٢٩ أصدر أحد وكلائه أمراً قضائياً باستدعاء ولزى للمثول أمام قضاة الملك ، للرد على اتهام بأن أعماله كقاصد رسولى قد خالفت قانون الخضوع لسلطة التاج (١٣٩٢) ، الذى يقضى بمصادرة أموال أى إنجليزى يأتى بالكتب البابوية إلى إنجلترا . ولم يختلف الموقف لأن ولزى كان قد كفل سلطة القاصد الرسولى بناء على طلب الملك (٧٥) ، وأنه استخدمها بخاصة لصالح الملك . وأدرك ولزى أن قضاة الملك سوف يدينونه فأرسل إلى هنرى امثالاً ذليلاً ، يعترف بفشله ويلتمس أن يتذكر الملك أيضاً خدماته وآيات ولائه . ثم غادر لندن في نقالة مائية سارت في نهر التيمس . وتلقى في بوتنى رسالة رقيقة من الملك . وجثا على الطين في شكر بائس وحمد الله . واستولى هنرى على المحتويات الثمينة في قصر الكاردينال في هويتبول إلا أنه سمح له بالاحتفاظ بمنصب رئيس أساقفة يورك وبأموال شخصية تكفى احتياجات ١٦٠ جوادا تجر ٧٢ عربة إلى مقره الأسقفى (٧٦). وخلف الدوق نورفولك ولزى في رئاسة الوزارة وخلفه مور في منصب الحاجب (نوفمبر سنة ١٥٢٩) .

وأقبل الكاردينال الذى تبرد من سلطانه ، على عمله ، كبير أساقفة ، في ورع ومثالية ، وأخذ يزور أبرشيائه بانتظام ويدبر ترميم الكنائس ،

ويعمل قاضيا موثوقا به للتحكيم . وتساءل رجل من يوركشاير : « من كان أقل نصيبا من الحب في الشمال من مولاي الكاردينال قبل أن يعيش بينهم ؟ ومن كان محبوبا أكثر بعد أن عاش هناك فترة (٧٧) ؟ » بيد أن الطموح استيقظ في أعماقه مرة أخرى وسبكن روحه من الموت وكتب خطابات ليوستاس شابويس سفير الإمبراطور في إنجلترا ، وضاعت هذه الخطابات ، بيد أن هناك تقريراً من شابويس إلى شارل ورد فيه : « لدى خطاب من طيب الكاردينال يقول إن سيده . . رأى أن على البابا أن يمضى قدما في إجراءات لوم أشد ويستدعى الجيش العلماني (٧٨) » . أى الحرمان من غفران الكنيسة والغزو والحرب الأهلية :

وعلم نورفولك بهذه الرسائل المتبادلة وقبض على طيب ولزى وانزع منه ، بوسائل لم تعرف على وجه التحقيق ، اعترافا بأن الكاردينال قد أشار على البابا بحرمان الملك من غفران الكنيسة . ولا نعرف هل كان السفير أو الدوق هو الذى أبلغ صدقا عن الطيب ، أو هل كان الطيب هو الذى أبلغ حقا عن الكاردينال ، وعلى أية حال فإن هنرى أو الدوق أمر بالقبض على ولزى .

واستسلم في هدوء (٤ نوفمبر سنة ١٥٣٠) وودع أسرته وانطلق إلى لندن . وأصيب في شفيلد برك بدوسنطاريا شديدة ألزمته الفراش . وهناك أقبل جنود الملك يحملون أوامر باقتياده إلى البرج . واستأنف رحلته ، ولكن بعد مضي يومين من الركوب بلغ من الضعف حدا جعل حارسه يسمح له بأن يلزم الفراش في دير ليسيستر . وغمغم أمام ضابط الملك سير وليام كنجستون بالكلمات التى نقلها كافنديش واقتبسها شكسبير « لو أننى خدمت الله بإخلاص ووجدت الملك لما أسلمنى في شيخوختى (٧٩) » . ومات ولزى بالغا من العمر خمسة وخمسين عاما في دير ليسيستر يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٥٣٠ .

الفصل الرابع والعشرون

هنرى الثامن وتوماس مور

١٥٢٩ - ٣٥

١ - برلمان الإصلاح الدينى

فى المجلس النبائى الذى اجتمع فى وستمنستر يوم ٣ نوفمبر سنة ١٥٢٩ اتفقت الجماعتان الحاكتان - النبلاء فى المجلس ، والتجار فى مجلس العموم على انتاج ثلاثة ضروب من السياسة : تخفيض ثروة رجال الكنيسة وإضعاف سلطانهم ، والمحافظة على التجارة مع الفلاندرز وتأييد الملك فى حيلته للحصول على وريث ذكّر . ولم ينطو هذا الاتفاق على الرضا عن آن بولين التى كانت تواجه باستنكار عام باعتبارها مغامرة ، كما أنه لم يمنع وجود تعاطف عام مع كاترين (١) . أما الطبقات الدنيا ، وهى عاجزة من الناحية السياسية ، فكانت حتى ذلك الوقت لا توافق على الطلاق ، ووقفت المقاطعات الشمالية ، وهى كاثوليكية شديدة التحمس ، مع البابا (٢) فى إخلاص . وعمل هنرى على تهدئة هذه المعارضة مؤقتا بأن ظل محافظا فى كل شيء اللهم إلا حق البابوات فى الهيمنة على الكنيسة الإنجليزية .

وكانت الروح القومية ، وهى فى إنجلترا أقوى منها فى ألمانيا ، تقف فى تلك المسألة إلى جانب الملك ، وعلى الرغم من فزع رجال الدين من تصور أن يكون هنرى سيداً لهم فإنهم لم ينفروا من الاستقلال عن بابوية لا شبهة فى خضوعها لسلطة أجنبية .

ونشر سيمون فوش حوالى عام ١٥١٨ كتيباً من ست صفحات ، قرأه هنرى ، دون أن يبدى احتجاجاً فيما نعلم ، وقرأه كثيرون باهتمام

صادق . وأطلق عليه اسم « ابتهاق الشحاذين » وطالب الملك بمصادرة ثروة الكنيسة الإنجليزية كلها أو جانب منها :

« في العهود الخوالي لأصلافك النبلاء (هناك) تسلل في دهاء إلى مملكتهك . . شحاذون وأفاقون مقدسون ومتبطلون . . أساقفة ورؤساء أديار وشماسة ورؤساء شمامسة ومعاونو أساقفة وقساوسة ورهبان ورجال دين وكهنة رهبان وبنائو صكوك غفران ومحضرون . ومن يستطيع أن يحصى هذا الضرب المتبطل المخرب الذى (طرح كل عمل جانباً) ألح في السؤال إلحاحاً شديداً إلى حد أنهم حصلوا في أيديهم على أكثر من ثلث مملكتهك بأسرها ؟ إن أعظم المقاطعات وأجمل الدور والأراضى والأقاليم ملك لهم . وكان لهم إلى جانب هذا عشر محصول الغلة والمرعى والمروج والكلأ والبصوف والمهور والعجول والحملان والخنازير والأوز والدجاج . . . أي نعم ولأنهم ليتطلعون في حرص شديد إلى أرباحهم إلى حد أن الزوجات المسيكينات لا بد وأن يكن مطالبات بأن يجسبن عشر كل بيضة وإلا فإن الزوجة لن تحصل على حقوقها في عيد الفصح . . . ومن التي تشرع في العمل مقابل ثلاثة بنسات في اليوم إذا كان في وسعها أن تحصل على عشرين همسا على الأقل في اليوم لقاء نوميها ساعة مع أخ أو راهب أو قس (٣) ؟

ولعل النبلاء والتجار قد رأوا أن هناك شيئاً من المبالغة في هذا الاتهام ، بيد أنهم اعتقدوا أنه يؤدي إلى نتيجة سارة - وهي إضفاء الصبغة العلمانية على أملاك الكنيسة ؛ وكتب السفير الفرنسي جان دى بلاى « إن هؤلاء السادة يلتنون ، ، ، ، اتهام الكنيسة والتهام كل أموالها ، ولا أكاد أجد نفسى في حاجة إلى تسجيل هذا بالشفرة ، لأنهم يجهرون به صراحة ، وأنوقع ألا يحصل القساوسة أبداً على خاتم الدولة - أى لن يكونوا على رأس الحكومة أبداً ، مرة أخرى ، وأنهم سوف يتعرضون في هذا المجلس

النيابي لمفازع هائلة(٤٤)». وكان ولزى قد منع هذا الهجوم على أملاك الكنيسة ، بيد أن سقوطه ترك رجال الدين بلا حول لهم ولا طول ، اللهم إلا ما يتمتعون به من إيمان الناس ، وهو إيمان كان آخذاً في التقلص ، ولعل السلطة البابوية التي كانت قيمة بأن تحميم بهيتها أو تحريمها أو بحلفائها كانت وقتذاك الهدف الرئيسي لسخط الملك وكرة القدم التي تتقاذفها السياسة الإمبراطورية ، وكان العرف يقتضى موافقة المجمع الاكليروسى لرؤساء أساقفة كنتربرى ويورك على كل تشريع يحس الكنيسة إنجلترا أو تأييده . فهل كان في وسع هذا المجمع تخفيف سورة غضب الملك وكبح جماح الحركة المناهضة لرجال الدين فى المجلس النيابي ؟

وافتح المعركة مجلس العموم . إذ وجه خطابا إلى الملك يقر فيه عقيدة المحافظين ، وإن انتقد رجال الدين بشدة . وهاجم « قرار الاتهام » المشهور المجمع الاكليروسى واتهمه بأنه سن القوانين ، دون الحصول على موافقة الملك أو المجلس النيابي ، التي تحدد حرية العلمانيين تحديداً خطيراً ، وتعرضهم لتعزير شديد ، وغرامات باهظة ، واتهم رجال الاكليروس بأنهم أعطوا صدقات لـ « جموع من الأحداث ، قالوا إنهم أبناء إخوتهم » على الرغم مما يتمتع به مثل هؤلاء المستفيدين من شباب أو جهل ، واتهم المحاكم الأسقفية بأنها استغلت فى جشع حقها فى فرض رسوم وغرامات ، وهذه المحاكم بأنها قبضت على أشخاص وسجنتهم دون أن تبين التهم الموجهة إليهم ، وأنها اتهمت العلمانيين وعاقبتهم عقاباً شديداً لشبهة هرطقة طفيفة واختتمت الوثيقة بمطالبة الملك بإصلاح هذه العلل(٤٥) ، ولا شك فى أن هنرى الذى كان على علم بأسرار تأليف هذا الخطاب قدم نقاطه الرئيسية إلى المجمع الاكليروسى وطلب منه الرد .

وأقر الأساقفة وجود بعض الظلم وعزوا هذا إلى أفراد ظهوروا اتفاقاً ،
وأكدوا تمسك محاكمهم بالعدالة ، وأنهم يتأسون بالملك الورع الذى زجر
لوثر فى نبل عظيم ، لمساعدتهم على قمع الهرطقة ، ثم أخطأوا خطأ فظيماً
وأساءوا فهم المزاج الملكى فأضافوا كلمات كانت بمثابة إعلان للحرب .

ما دمنا نعلن ونتمسك بسايطتنا فى سن القوانين التى تستند إلى ما فى كتب
الله المقدسة وما قررتها الكنيسة المقدسة . . . فليس لنا أن نتخلى عن أعبائنا
وواجباتنا ، ، التى أمرنا بها الله على وجه التأكيد ونتركها لرضاك السامى ،
ومن ثم نلتمس من مراحمكم بكل خضوع . . . أن تحافظوا على هذه القوانين
والشرايع وأن تدافعوا عنها مثلنا . . . وأن يعمل بتفويض من الرب لإجل
له تعالى على دعم الفضيلة والحفاظ على عقيدة المسيح (٦) »

وعلق موضوع النزاع . ولم يواجهه هنرى فى الحال . وكان أول ما اهتم
به هو الحصول على موافقة المجلس النيابى على طلب عجيب - أن يعفى من
سداد القروض التى قدمها له رعاياه(*) . واحتج أعضاء مجلس العموم ثم
وافقوا ، وقدمت ثلاثة مشروعات أخرى بقوانين تستهدف كبح جماح سلطة
رجال الاكليروس على الوصايا التى تم الإشهاد عليها وتقاضيهم رسوماً على
الموتى واحتفاظهم بالصدقات المتعددة ، وحظيت هذه المشروعات بقوانين
بموافقة أعضاء مجلس العموم ، وعارضها بشدة الأساقفة وروساء الأديار
وأصحاب المقاعد فى مجلس اللوردات ، وقد عدلت ، ولكنها أصبحت فى
جوهرها قوانين نافذة ، وتأجل انعقاد المجلس النيابى إلى يوم ١٧ ديسمبر .

وتلقى الملك إبان صيف عام ١٥٣٠ شيئاً من التشجيع الغالى ، إذ اقترح
توماس كرانمر ، أستاذ اللاهوت فى جامعة كمبردج ، على هنرى ، أن تبدى

(*) نلاحظ انخفاض قيمة العملة الآن يعنى الحكومات من الالتجاء إلى مثل هذه اللصوصية
الشريفة .

الجامعات الكبرى في أوروبا رأيتها في موضوع هو هل كان في وسع البابا أن يسمح لرجل بالزواج من أرملة شقيقه . وأعقب هذا الاقتراح مباراة مرحة في التنافس على الرشوة : ونثر وكلاء هنرى المال للتحريض على إصدار أحكام سلبية ، ولجأ وكلاء شارل إلى المال أو التهديد للحصول على ردود إيجابية^(٧) ، وانقسمت ردود الجامعات الإيطالية ، ورفضت الجامعات اللوثرية تقديم أى رد مريح للمدافع عن العقيدة ، بيد أن جامعة باريس ، تعرضت لضغط من فرانسيس^(٨) فقدمت الرد العزيز المنشود الذى كان يتلطف عليه . ووافقت جامعتا أكسفورد وكامبردج ، بعد أن تسلمتا رسائل صارمة من الحكومة ، على حق الملك في الحصول على قرار بطلان زواجه

وعندما شعر بدعم مركزه إلى هذا الحد ، أصدر عن طريق وكيله العام (ديسمبر سنة ١٥٣٠) إعلانا بأن الحكومة تعزم رفع دعاوى ضد كل رجال الاكليروس الذين اعترفوا بسلطة ولزى قاصدا رسوليا ، وعلى أساس أنهم خالفوا قانون الولاء للتاج . وعندما عاد المجلس النيابي والمجلس الاكليروسى للانعقاد (١٦ يناير سنة ١٥٣١) أعلن وكلاء الملك وهم سعداء أن الدعاوى سوف تسحب إذا اعترفوا بأنهم مذنبون ودفعوا غرامة قدرها ١١٨,٠٠٠ جنيه (١١,٨٠٠,٠٠٠ دولار ؟)^(٩) . فاحتجوا بأنهم لم يرغبوا قط في أن يكون لولزى مثل هذا السلطان وأنهم لم يعترفوا به قاصدا رسوليا إلا لأن الملك قد فعل هذا بتقديم التماسه للنظر أمام محكمة ولزى وكامبيجيو . وكانوا على حق كامل بالطبع ، بيد أن هنرى كان في حاجة ماسة إلى المال . ووافقوا ، وهم يولولون ، على سداد المبلغ من موارد أبرشياتهم . واستخف الطرب الملك فطالب وقتذاك بأن يعترف به رجال الاكليروس « حاميا للكنيسة ورجال الدين في انجلترا والرئيس الأعلى الوحيد لهم » أى أن ولاءهم للبابا لا بد أن ينتهى وعرضوا اثنتى عشرة مصالحة وجربوا اثنتى عشرة عبارة مبهمه ، وكان هنرى قاسيا لا يرحم ، وأصر على أن يردوا بكلمة « نعم »

أو « لا » . وأخيراً (١٠ فبراير سنة ١٥٣١) عرض رئيس الأساقفة واهرام ، وكان وقتذاك في الحادية والثمانين ، في تبرم ، لإقرار صيغة الملك وأضاف إليها عبارة فيها تحفظ « يقدر ما تسمح شريعة المسيح » ، وبسكت المجلس الاكليروسي ، واعتبر السكوت رضا ، وأصبحت الصيغة قانونا . وهدأت ثائرة الملك ، فسمح عندئذ للأساقفة بمطاردة الهرطقة .

وتأجل اجتماع المجلس النيباني والمجلس الاكليروسي مرة أخرى (٣٠ مارس سنة ١٥٣١) : وفي يوليو ترك هنرى كاترين في وندسور على ألا يراها أبدا مرة أخرى ، وسرعان ما نقلت بعد ذلك إلى أمبتهل بينما أقامت الأميرة ماري في رتشموند وطالب هنرى بالجواهر التي كانت قد ارتدتها كاترين بصفتها ملكة وأعطاهما لأن بولين^(١٠) واحتج شارل الخامس لدى كليمنت الذي وجه خطابا قصيرا للملك (٢٥ يناير سنة ١٥٣٢) يؤنبه فيه لاقترافه الزنا ، ويحضه على طرد آن والاحتفاظ بكاترين ملكة شرعية إلى أن يصدر قراراً في الالتماس المقدم منه لإعلان بطلان الزواج . وتجاهل هنرى التأييد واستمر في غرامه . وكتب حوالي هذا الوقت إحدى رسائله الرقيقة لأن :

حبيبة قلبي ، أكتب لك هذا لأعرب عن الوحدة التي أعيش فيها هنا منذ فراقك ، لأنني أؤكد لك أنني أرى الوقت قد أصبح منذ رحيلك أطول مما تعودت أن أراه مدى أسبوعين كاملين ، وأعتقد أن رقتك وحرارة حبي هما السبب . . ولكنني أفكر الآن وأنا قادم إليك ، وآلامي قد خف نصفها ، في أن يتحقق أمل في أمسية خاصة بين أحضان حبيبتي التي سوف أركن قريبا إلى نهديها الجميلين وأقبلهما . كتبته يد من كان ولا يزال لك وسوف يظل معك على الدوام بإرادته .

وعندما انعقد المجلس النيابي والمجلس الاكليروسى مرة أخرى (١٥ يناير سنة ١٥٣٢) حصل هنرى من المجالس الأربعة جميعاً على تشريع آخر مناهض لرجال الاكليروس ينص على : أن رجال الدين دون درجة مساعد شماس ، يجب أن يحاكموا أمام المحاكم الدينية عند اتهامهم بالخيانة العظمى ، وأن الرسوم والغرامات التى تتقاضاها المحاكم الكنسية يجب أن تخفض ، وأن الرسوم الكنسية على الموتى ورسوم التثبيت من صحة الوصايا يجب أن تخفض أو تلغى ، وأن موارد السنة الأولى لأسقف حديث التعيين يجب ألا تدفع بعد ذلك للبابا وأن تحويل الأموال الإنجليزية إلى روما من أجل محلات وصكوك غفران وخدمات بابوية أخرى يجب أن يتوقف ، وأرسلت إشارة مأكرة إلى المجلس البابوى بأن موارد السنة الأولى للأسقف حديث التعيين سوف ترد إلى البابا إذا أعان بطلان الزواج بكأترین .

وفى هذا الوقت انحازت غالبية من الأساقفة إلى الرأى القائل بأنهم لن يفقدوا شيئاً من السلطة أو الدخل إذا استقامت الكنيسة الإنجليزية عن روما . وفى مارس سنة ١٥٣٢ أعلن المجلس الاكليروسى استعداده للانفصال عن البابوية : « هلا تفضلتم يا صاحب السمو بوقف أعمال الاغتصاب الظالمة المذكورة . . . وإذا اتخذ البابا إجراء ضد هذه المملكة للحصول على موارد السنة الأولى للأساقفة حديثى التعيين . . . فلتتفضلوا سموكم بسن قانون من المجلس النيابى الحالى بسحب طاعة سموكم والشعب للكرسى البابوى فى روما (١٢) » . وفى ١٥ مايو قدم المجلس الاكليروسى تعهداً للملك بتقديم كل تشريع تال له إلى لجنة - نصفها من العلمانيين والنصف الثانى من رجال الإكليروس - لها الحق فى الاعتراض على أى قوانين ترى أنها ضارة بالمملكة . وهكذا ولدت كنيسة إنجلترا فى هذا « الإصلاح النيابى » الأستقنى وهذا المجلس الإكليروسى وأصبحت تنضموا للدولة وتابعة لها .

وفي ١٦ مايو استقال توماس مور من منصب الحجابة بعد أن فشل في الوقوف أمام التيار المناهض لرجال الإكليروس وانسحب إلى بيته . ومات رئيس الأساقفة واهرام في أغسطس بعد أن أملى وهو على فراش الموت رسالة أبدى فيها رفضه لخضوع المجلس الإكليروسي للملك . واستبدل هنري بتوماس مور توماس أودلي ، وبواهرام ، توماس كراغر . ومضت الثورة قدماً . وأجاز المجلس النيابي « قانون الاستئناف » ، وبمقتضاه كان كل نزاع أرسل سابقاً إلى روما للفصل فيه يحسم « في المحاكم الروحية والزمينية داخل المملكة دون اعتبار ، لأى منع أو حرمان من غفران الكنيسة أو تحريم يصدر من جهة أجنبية (١٢) » .

وفي ١٥ يناير سنة ١٥٣٣ تزوج هنري من آن التي كانت حاملاً منذ أربعة شهور (١٤) . وكان لدى الملك وقتذاك أسباب ملحة لإعلان بطلان زواجه من كاترين ، ولما كان قد بعث بطلب آخر للبابا دون أن يؤدي إلى نتيجة ، فقد حصل من المجلس الإكليرومي على موافقة على « طلاقه » (١٥) بريل سنة ١٥٣٣) وفي ٢٣ مايو أعلن كراغر بصفته رئيس أساقفة كنتربري أن الزواج بكاترين مخالف للشريعة وباطل ، وفي يوم ٢٨ مايو أعلن أن آن زوجة شرعية لهنري . وركبت آن بعد ثلاثة أيام وهي ترتدى الديباج وتزين بالجواهر لكي تتزوج ملكة إنجلترا في احتفال ملكي مهيب ، وضعت تصميمه التقاليد وهانز هولبين الصغير . ولاحظت وسط مظاهر الابتهاج صمت الجماهير الدال على الاستنكار ، ولعلها تساءلت إلى متى يحمل رأسها القلق التاج ؟

وأعلن البابا كايمنت بطلان الزواج الجديد ، وأن الأولاد الذين سيكونون ثمرة له غير شرعيين ، وحرّم الملك من غفران الكنيسة (٢٢) يوليو سنة ١٥٣٣)

وولدت اليزابث يوم ٧ سبتمبر وأهلمغ سفير شارل مولاه أن حظية الملك
أنجبت ابنة سفاح (١٥) ،

واستأنف المجلس النيابي ، الذي كان قد أجل يوم ٤ مايو جلساته في ١٥ يناير
سنة ١٥٣٤ . وكانت موارد الأساقفة المحدد في السنة الأولى والموارد البابوية
الأخرى قد خصصت نهائياً وقتذاك للتاج ، وأصبح تعيين الأساقفة امتيازاً
للملك من الناحية القانونية ، كما جرى العمل به فعلاً . ونقلت دعاوى الاتهام
بالمهرطقة من القضاء الكنسي إلى القضاء المدني ،

وفي عام ١٥٣٣ أذاعت اليزابث بارتون وهي راهبة من كنت أنها تلقت
أوامر من الرب بإدانة الزواج الثاني للملك ، وأنها قد سمح لها بروية المكان
الذي يعد لاستقبال هنري في الجحيم . وعرضتها المحكمة الملكية لاختبار قاس ،
وانترعت منها اعترافاً بأن رواها الإلهية كانت إفكاً وخداعاً ، وأنها سمحت
لآخرين باستخدامها في مؤامرة للإطاحة بالملك (١٦) . وحوكت هي وستة
« شركاء في الجريمة » أمام مجلس اللوردات وقضى عليهم بالإدانة ، ونفذ
فيهم حكم الإعدام (٥ مايو سنة ١٥٣٤) ، واتهم الأسقف فبشر بأنه علم
بالمؤامرة وتقايس عن تحذير الحكومة ، واتهم أيضاً بأنه كان هو وكاترين
مطلعين على أسرار خطة وضعها شابويس ولم يشجعها شارل ، لغزو إنجلترا
في الوقت الذي يقوم فيه أنصار كاترين بالتمرد (١٧) . وأنكر فيشر التهم الموجهة
إليه ، ولكنه ظل موضع الاشتباه بالخيانة ،

وكان توماس كرومويل أشد وكلاء هنري العدوانيين في هذه الأمور .
وقد ولد عام ١٤٨٥ ، وهو ابن حداد من بوتني ، ونشأ في فقر ومسغبة ،
ومضى يضرب سنوات في أرض فرنسا وإيطاليا أفاقاً بالفعل ، وعاد إلى
إنجلترا واشتغل بصناعة النسيج وأصبح مرابياً وكون ثروة ، وخدم رازي
بإخلاص خمس سنوات ، ودافع عنه في أيام البؤس ، واكتسب احترام

هنرى بسبب صناعته وولائه . وعين على التوالى حاجباً لخزانة الدولة وأميناً للسجلات وقاتم سر للملك (مايو سنة ١٥٣٤) ، وكان فى الفترة من عامى ١٥٣١ و ١٥٤٠ المديراً الأكبر لشئون الحكومة باعتباره منفذاً مطيعاً للإرادة الملكية ، واتهمه أعداؤه الأرسقراطيون ، الذين احتقروه بوصفه حديث نعمة يرمز لخصومهم الصناعدين ، رجال الأعمال ، بأنه يطبق مبادئ « أمير » مكياڤلى ، بقبول الرشاشا وبيع المناصب وحب الثروة والسلطان حباً يتجاوز الحدود . وكان هدفه ، الذى سعى بجهداً لإخفائه ، هو أن يجعل الملك صاحب الكلمة العليا فى كل مجال من مجالات الحياة الإنجليزية ، وأن يمول ملكية مطلقة بثروة الكنيسة المصادرة ، وأظهر فى سعيه لتحقيق أغراضه مقدرة تامة لا تعرف تأنيب الضمير ، وضاعف ثروته ، وكسب كل معركة خاضها ما عدا الأخيرة ، والراجع أن هنرى ، وقد أزعجه تزايد عدااء الشعب له ، استدرج المجلس النيابى ، بناء على اقتراحه وعن طريق احتياله ، إلى الموافقة على قانون وراثة العرش (٣٠ مارس سنة ١٥٣٤) الذى أعلن أن الزواج بكاترين غير صحيح ، وحول مارى إلى ابنة سفاح ، وعين اليزابث وريثة للعرش إلا إذا أنجبت آن ولداً ، ونص على أن أى شخص يتجادل فى صحة زواج آن بهنرى يستحق أقصى عقاب . وقضى القانون بأن يخلف جميع الإنجليز رجالاً ونساءً يميناً بالولاء للملك . وأخذ مندوبون للملك يؤازرهم جنود ، يتخرقون البلاد راكبين ، ودخلوا البيوت والقصور وأديار الرهبان وأديار الراهبات ، وانتزعوا اليمين كرها . ولم يرفض حلف اليمين إلا قلة ضئيلة من بينهم الأسقف فيشر وتوماس مور : وعرضوا أن يخلفوا على ما جاء بشأن وراثة العرش على ألا يقسموا على باقى ما تضمنه القانون . وحكم عليهم بالسجن فى البرج . وصوت المجلس النيابى آخر الأمر على قانون السيادة الخامس (١٢ نوفمبر سنة ١٥٣٤) ، وأكد هذا القانون سيادة الملك على الكنيسة والدولة فى إنجلترا ، وعمد الكنيسة الوطنية الجديدة باسم الكنيسة

الانجليكانية ، ونحول الملك كل هذه السلطات على الأخلاق والتنظيم والهرطقة والعقيدة والإصلاح الكنسى ، وكانت حتى وقتذاك من اختصاص الكنيسة . ونص القانون على أن المرء يرتكب جريمة الخيانة إذا تحدث عن الملك أو كتب عنه أنه مغتصب أو طاغية أو انقسمى أو هرطيق أو كافر . وطلب من جميع الأماقفة أن يحلفوا يمينا جديدة بأنهم يقبلون سيادة الملك المدنية والكنسية دون تحفظ « بقدر ما تسمح شريعة المسيح » ، وأنهم لن يرضوا أبداً في المستقبل باستئناف السلطة البابوية في إنجلترا . وانتشرت كل قوات الحكومة لشل حركة المعارضة لهذه المراسيم ، التي لم يسبق لها مثيل . وتظاهر رجال الإكليروس العلمانيون بالخنوع شيئاً فشيئاً ، وأحجم كثير من الرهبان والإخوان الرهبان عن حلف الأيمان ، نظراً لولايتهم للبابا ، وأسهمت مقاومتهم في اتخاذ الملك قراره الأخير بإغلاق الأديار .

وأحرق عناد الإخوة الرهبان في تشارنر هاوس ، وهو دير كارتوزى لندن ، هنرى وكرومويل بخاصة . وجاء ثلاثة من رؤساء الأديار الكارتوزيين إلى كرومويل ليقدموا له إيضاحاً عن إحجامهم عن الاعتراف بأى علمانى رئيساً للكنيسة في إنجلترا ، فبعث بهم كرومويل إلى سجن البرج . وفى يوم ٢٦ ابريل سنة ١٥٣٥ حوكموا هم وراهب آخر وقسيس علمانى أمام قضاة الملك الذين كانوا يميلون إلى الصنف عنهم ، غير أن كرومويل خشى أن يشجع الرفق على المزيد من المقاومة ، فطلب بقرار بالإدانة وأذعن القضاة .

وفى يوم ٣ مايو جرد الرجال الخمسة وكانوا لا يزالون يرفضون قبول قانون السيادة على زحافات إلى تيرن وعلقوا واحداً وراء الآخر وأسقطوا بتقطع الحبال وهم أحياء وقطعوا إرباً (١٨) وعلقت ذراع مبتورة على مدخل عقد تشارنر هاوس لتلقين الرهبان الباقين درساً ، ولكن أحداً منهم لم

يراجع عن رفضه . وسجن ثلاثة في البرج وشد وثاقهم وهم منتصبون بسلاسل من حديد حول أعناقهم وأقدامهم ، وأكروا على الوقوف في هذا الوضع سبعة عشر يوماً ، وقدم إليهم الطعام ، ولكن لم يفلح وثاقهم للقضاء أى حاجة طبيعية . أما باقى الرهبان الكارتوزيين ، وكانوا لا يزالون يبدون عناداً ومشاكسة فقد تشبثوا فى أديار أخرى ما عدا عشرة منهم ، سجنوا فى نيوجيت ومات تسعة من هؤلاء من «حمى السجن وقلره» (١٩) .

وكان هنرى وقتذاك هو الحكم الوحيد فيما يتعين على الشعب الإنجليزى أن يؤمن به فى مجالى الدين والسياسة . ولما كان لاهوته لا يزال كاثوليكياً من كل وجه فيما عدا السلطة البابوية فقد اتخذ مبدأً مطاردة النقاد البروتستانت للمذهب الكاثوليكي بغير تحيز ، والنقاد الكاثوليك لسيادته الكاثولية ، والحق أن مطاردة الهراطقة قد استمرت وظلت طوال مدة حكمه . وفى عام ١٥٣١ أحرق توماس بلنى بأمر أصلده الحاجب توماس مور ، لأنه انتقد الصور الدينية ، ورحلات الحج والصلوات من أجل الميت . وقبض على جيمس بينام لأنه اعتبر أن المسيح لا يكون حاضراً فى القربان المقدس إلا بروحه فعذب لكي ينتزع منه أسماء هراطقة آخرين ، وتشبهت بما قال وأحرق فى سمنفيلد فى ابريل عام ١٥٣٢ . وأحرق آخران فى ذلك العام وعرض أسقف لندن أن يمنح فى خلال أربعين يوماً صلحاً غفران للمسيحيين الصالحين الذين يحملون حزمة من الخطب لتغذية النار (٢٠) .

ووصل عهد الإرهاب إلى ذروته فى اضطهاد فيشر ومور ، وقد وصف إرازاموس أسقف روثيستر بأنه « شخص مثقل بهكل فضيلة (٢١) » بيد أن فيشر نفسه كان قد اقترف ذنب الاضطهاد ، وقد انضم إلى السفير الأسباني فى حث شارل على غزو إنجلترا وخلق هنرى (٢٢) . وقد اقترف فى نظر القانون جريمة خيانة الدولة ، وهو أمر لم يشفع له عندما احتج بأنه كان مخلصاً للكنيسة . وارتكب الحبر الأعظم الجديد ، بولس الثالث خطأ بتعيين

الأسقف المسجون كاردينالا ، وعلى الرغم من أن فيشر أعلن إنه لم يسع إلى هذا الشرف ، فإن هنرى رأى وقتذاك فى هذا التعيين تحدياً له . وفى ١٧ يونيو سنة ١٥٣٥ قدم الأسقف ، وكان وقتذاك فى عامه الثمانين ، إلى محاكمة أخيرة ورفض مرة أخرى أن يوقع على قسم يعترف فيه بهنرى رئيساً للكنيسة الإنجليزية ، واقتيد فى ٢٢ يونيو إلى كتلة على تل تاور . ووصفه شاهد عيان بأنه « جسد طويل أعرج ، لا شىء فيه سوى الجلد والعظام ، إلى حد أن معظم من شاهدوه دهشوا من رؤية رجل لا يزال فيه روح من حياة ، على الرغم من باوغه هذا الحد من الوهن (٢٣) » .

وتلقى وهو على منصة المقصلة عرضاً بالعمو عنه إذا حلف اليمين فرفض وعلق رأسه المقطوع فوق جسر لندن . وقال هنرى : فى وسعه أن يذهب الآن ، إذا استطاع ، إلى روما ويحصل على قلنسوة الكاردينال (٢٤) .

ومع ذلك فقد بقى هناك مكابر عنيد أشد مراساً .

٢ - مؤلف المدينة الفاضلة

كان والد توماس مور محامياً ناجحاً وقاضياً بارزاً . وتلقى توماس تعليمه فى مدرسة سانت أنطونى بلندن ، وعمل وصيفاً لرئيس الأساقفة مورتون ، وكان لهذا الفضل فى تثبيت عقيدته المحافظة وتكامله وتقواه المرحية . وتنبأ مورتون ، كما يقال لنا ، بأن « هذا الطفل الذى يخدم هنا على المائدة ... سوف يثبت أنه رجل عجيب (٢٥) » . وذهب الشاب إلى أكسفورد وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وسرعان ما فتن بالأدب الكلاسى إلى درجة حملت والد الشاب على انتزاعه من الجامعة ، لإنقاذه من أن يصبح أديبا خاوى الوقاض وبعث به لدراسة القانون فى لندن ، وكالت أكسفورد وكامبردج لا تزالان تستهدفان إعداد الطلاب للعمل فى سلك الكهنوت . وكانت كلية

نيولان وكلية لنيكولان إن(*)تدربان الرجال الذين كانوا وقتذاك يشرفون من بيع رجال الاكليروس على الحكومة في إنجلترا، ولم يتلق من أعضاء مجلس العموم تعليماً جامعياً سوى ثمانية أعضاء بينما كانت هناك نسبة مرتفعة من المهامين ورجال الأعمال .

وفي عام ١٤٩٩ التقى مور ، وكان في الحادية والعشرين من عمره ، بإرازموس وافتتن بالملذهب الإنساني . وتعد صداقتهما من أطيب العطور شذى في ذلك العصر . فقد وهب كلاهما مرحباً بقدرهما ، وجعلا لدراستهما طعماً مستساغاً بالهجو الضاحك . وكانا يشتركان في كراهية الفلسفة الكلامية التي قال مور إن ما تنطوى عليه من خبيث في التفريق بين الأشياء يعود على المرء بفائدة توازي ما يكسبه من حلب تيس في غربال^(٣٦) . وكانا يأملان في إصلاح الكنيسة من الداخل وتجنب تفكك أواصر الوحدة الدينية والتواصل التاريخي . ولم يكن مور نداءً لإرازموس في العلم أو التسامح ، والحق أن رفته المألوفة وكرمه كان يشويهما في بعض الأوقات تطرف في الدين ، وكان في الجدل ينحني بين آن وآخر مثل كل معاصريه ، ليوجه لخصومه طعناً شديداً مريراً^(٣٧) . ولكنه كان يفوق إرازموس في الشجاعة والإحساس بالكرامة والإخلاص لقضية . ولا شك أن الرسائل التي تبادلها تعد شاهداً ثميناً على أفضال عصر فظ . فهناك رسالة لمور يقول في ختامها « وداعاً يا إرازموس الحبيب يا من هو أعز علي من عيني^(٣٨) » .

وكان من أعظم رجال الدين في القرن الذي عاش فيه ، أخزى بتقواه - العلمانية تهافت رجال الكهنوت من أمثال ولزبي على الدنيا . وفي الثالثة والعشرين عندما تبجر في دراسة القانون ففكر في أن يصبح قساً . وألقى

(*) كليتان لدراسة الحقوق على النظام الداخلي أتبته بنظام « الرواق » في الأزهر
تشریف - المترجم

محاضرات عامة (١٥٠١) عن مدينة الرب التي بشر بها أوغسطين ، وجلس بين مستمعيه علماء نحارير أكبر منه سنا مثل جروسين .

وعلى الرغم من انتقاده الرهبان لتقاعسهم عن الامتثال لما يفرضه عليهم نظامهم فإنه أعجب إعجاباً شديداً بنظام الدير المخلص ، وأسف أحياناً لأنه لم يختر هذا النظام ، وظل وقتاً طويلاً يرتدى قبصا من شعر الخيل لا يلبس تحته شيئاً ، وكان بين آن وآخر يسحب منه دماً يكفي لتلطيف ثيابه بيقع من الدماء ترى بوضوح . وكان يؤمن بالمعجزات ويصدق قصص القديسين والمخلفات التي تستخدم للعلاج والصور الدينية ورحلات الحج^(٢٩) وكتب مصنفات ولائمة لها نعمة القرون الوسطى . أن الحياة سجن وأن الهدف من الدين والفلسفة تهيئة نفوسنا للموت ، وتزوج مرتين وأنجب عدة أطفال أنشأهم على حب نظام مسيحي يتسم بالوقار والانشراح في آن واحد ، وتصحبه صلاة متكررة وحب متبادل وإتكال كامل على العناية الإلهية . وكانت « دار مانور » في تشلسي التي انتقل إليها في عام ١٥٢٣ مشهورة بمكتبتها وصالة العرض فيها وحدثاتها الممتدة إلى مائة ياردة إلى نهر التاميز .

واختير وهو في السادسة والعشرين من عمره (١٥٠٤) نائباً بوصفه مواطناً حراً في المجلس النيابي . وهناك ناقش بنجاح ضد إجراء اقترحه هنرى السابع مما دفع الملك إلى أن يسجن مور الكبير فترة قصيرة . ويفرض غرامة باهظة كوسيلة منحرفة لتلقين الخطيب الشاب درساً في موااساة الموامة .

وعند إغلاق ذلك المجلس النيابي عاد مور إلى الحياة الخاصة ونجح في مزاولة القانون . وأقنع عام ١٥٠٩ بتولى منصب مساعد المشرف في المدينة ، أى في لندن القديمة شمالى نهر التيمس . وكان مكلفاً بتبعات تتفق ومزاجه ، وهى وظائف لها صيغة قانونية أكثر مما تتسم بالمخاطرة . وأكسبته أحكامه

شهرة واسعة، لما اتسمت به من حكمة وعدم تحيز، وخالف برفضه المهذب للهدايا من المتخاصمين، سوابق العهد الشائنة التي كانت لا تزال في عنقوانها أيام فرانسيس بيكون. وسرعان ما عاد إلى المجلس النيابي وما إن حل عام ١٥١٥ حتى كان خطيب مجلس العموم.

ووصف لإرازموس في خطاب بعث به إلى هوتن مور (٢٣ يولية ١٥١٧)، بأنه متوسط القامة له بشرة شاحبة وشعر أصحم لا يهتم باللبس أو المظهر زاهد في الطعام والشراب، منشرح سريع النكتة حاضر الابتسام، يميل إلى الدعابات والخدع ويحتفظ في بيته بمهرج وقرود وكثير من الحيوانات المدللة الصغيرة، « وكانت كل الطيور في تشانزيا تأتي إليه ليطعمها ». وكان زوجا مخلصا وأبا محبا يعبد أولاده وخطيبا مقنعا ومستشارا أصيل الرأي ورجلا شديد الحرص على البر وخدمات الأصدقاء - واختتم هذا الرسم التمهيدى الذى يدل على الوله به بأنه « باختصار ماذا خلقت الطبيعة أطف وأحلى وأسعد من عبقرية توماس مور (٣٠) ؟ » .

ووجد أمامه متسعا من الوقت لتأليف كتب وبدأ بكتاب « تاريخ رتشارد الثالث »، ولكن نزعته كانت حادة ضد الحكم المطاق، وكان يجلس على العرش حاكم مطلق، ورأى أن من الفطنة أن يتجنب قضاء الكامة المطبوعة: ونشر بعد وفاته وكتب شكسبير مسرحية تقوم عليه، ولعل السيرة الذاتية التي أذاعتها الدراما تحمل بعض المسئولية عن الخلق الذى يحمله رتشارد، وفي عام ١٥١٦ طرح مور باللاتينية، كما لو كان يقوم بدعاية، كتابا من أشهر الكتب بأسرها، مبدعاً كلمة، وواضعا سابقة مقدا على خطوة للمدن الناضلة الحديثة ومتوقعا نصف الاشتراكية، ومعبرا عن نقد للاقتصاد والمجتمع والحكومة فى إنجلترا إلى حد أنه تسلمح من جديد بالإقدام بعد التروى ونشر المجلد فى الخارج ست طبعات لاتينية قبل أن يسمح بطبعه

باللاتينية كذلك في إنجلترا : واعترف بأنه كتبه للتسلية دون أن يقصد نشره على الجمهور بيد أنه شكر إرازموس لاطلاعه عليه في المطبعة بلوفان^(٣١) وترجم إلى الألمانية والإيطالية والفرنسية قبل أن تظهر النسخة الإنجليزية (١٥٥١) بعد وفاة المؤلف بستة عشر عاماً . وما أن حل عام ١٥٢٠ حتى كان حديث القارة .

وأطلق عليه مور اسم « ليس في موضع » ولا نعرف من خطر له ذلك الخاطر السعيد بتغيير هذا العنوان وسط الطباعة إلى المرادف اليوناني يوتوبيا أو المدينة الفاضلة^(٣٢) وتم إخراج الحكاية بصورة بارعة جداً دفعت كثيراً من القراء إلى الاعتماد بأنها قصة حقيقية ويقال إن «بشراً دينياً قد فكر في السفر وتحويل سكان المدينة الفاضلة إلى المسيحية»^(٣٣). وكان هنرى الثامن قد أرسل مور سفيراً إلى بروجس (١٥١٥) ومن هناك انتقل إلى أنتورب برسالة قدمه فيها إرازموس إلى بيتر جيلس كاتب المدينة . وادعت المقدمة أن جيلس قد قدم مور إلى ملاح برتغالي له لحية ، لوحته بشرته تقلبات الطقس ، يدعى رافاييل هيثلوداي ، وترادف باليونانية « ماهر في الهذر » كان قد سافر بجزراً مع أميريجو فسبوتشى عام ١٥٠٤ ، ودار حول الكرة الأرضية (ست سنوات قبل رحلة ماجلان) ، وزار في العالم الجديد ، جزيرة سعيدة حل سكانها معظم المشكلات التي كانت تعاني منها أوروبا في ذلك العهد . وجعلت طبعة لوفان للسخرية أكثر تقبلاً بأن بدأت بحفر الخشب للجزيرة وعينة من لغة المدينة الفاضلة : ولم يكشف المؤامرة إلا هفوة واحدة : فهيتلد واى يميل إلى الثناء على رئيس الأساقفة مورتون بكلمات^(٣٤) أقرب إلى فطرة مور التي تعترف بالحميل من تجرية الملاح .

ويصف ماجلان الوهمى شيوعية سكان الجزيرة بقوله : « لما كان كل شئ على المشاع ، بين سكان المدينة الفاضلة فإن كل شئ متوفر لدى كل

إنسان ، وأنا أقارن بينهم وبين كثير من الأمم . . . حيث يقول كل إنسان إن كل ما قد حصل عليه ملك خاص له وإنه أموال خاصة . وأنا أستمسك جيدا بما قاله أفلاطون . . . إن كل الناس يجب أن يحصلوا ويتمتعوا بخصص متساوية من الثروة والأمتعة . . . لأنه حيث ينتزع كل إنسان ، يتخذ ألقابا معينة ويتمسك بادعاءات ما ، ويختطف أكبر قدر يستطيع الحصول عليه بحيث نجد أن قلة هي التي تتقاسم فيما بينها كل الثروات فلن يترك للباقي سوى العوز والفاقة (٣٥) .

وكل إنسان في المدينة الفاضلة يأخذ لإنتاجه إلى المخزن العام ويتسلم منه حسب ما تتطلبه احتياجاته . ولا أحد يطلب أكثر مما يكفيه لأن الأمان من الحاجة يصده عن الجشع . ويتناول الناس الوجبات على مائدة مشتركة ولكن للمرء أن يأكل في بيته إذا شاء . وليس في المدينة الفاضلة عملة ولا شراء بثمان رخيص ولا بيع بثمان غال ، وآفات الغش والسرقة والنزاع على الملكية غير معروفة . ولا يستخدم الذهب بوصفه عملة ، ولكن لصناعة أشياء نافعة مثل الأواني التي نقضى فيها الحاجة . وهي لا تعرف الهجاءات أو السنوات العجاف ، لأن المخازن العامة تحتفظ باحتياطي للطوارئ . وكل أسرة تشتغل بالزراعة والصناعة معاً ، يستوى في ذلك الرجال والنساء . ولكي يتحقق إنتاج مناسب لا بد أن يعمل كل بالغ ست ساعات يوميا ، ويتحدد اختيار المهنة باحتياجات الجماعة . وسكان المدينة الفاضلة أحرار بمعنى الحرية من الجوع والخوف ، ولكنهم ليسوا أحرارا في أن يعيشوا على حساب الآخرين . وفي المدينة الفاضلة قوانين بيد أنها بسيطة وقليلة ، ومن ثم ينتظر من كل إنسان أن يدافع عن قضيته ولا حاجة لوجود محامين . ويحكم على الذين يخالفون القانون بالعمل عبيدا للجماعة ، ويقومون بأداء المهام الكريهة ، ولكنهم يستعيدون المساواة الكاملة بأقرايتهم بعد انتهاء دورهم . أما الذين يكفرون صفوا الأمان تكديرا خطيرا فيحكم عليهم بالإعدام في بلاد أخرى .

ووحدة المجتمع في المدينة الفاضلة هي الأسرة الأبوية « والزوجات يهيمن على أزواجهن، والأولاد ينسبون لأبائهم (٣٦) ». والزواج من واحدة هو الشكل الوحيد الذى يسمح به في مجال الارتباط الجنسى .

وقبل الزواج ينصح الخطيبان بأن يرى أحدهما الآخر وهو مجرد من الملابس، حتى يكتشف العيوب الجسمانية في حينه، وإذا بلغت درجة كبيرة من الجسامة فإن العقد قد يلغى . وتذهب الزوجة لتعيش مع زوجها في دار والده بعد الزواج ويسمح بالطلاق بسبب الزنا أو برضى الطرفين بشرط موافقة مجلس الجماعة . وتختار كل ثلاثين أسرة زعيم قبيلة كل عام ليحكمها ويختار كل عشرة من زعماء القبائل رئيساً لإدارة مقاطعة بها ٣٠٠ أسرة . ويكون المائتا زعيم للقبائل مجلساً قومياً ينتخب أميراً أو ما يسمونه الحياة .

ومن التبعات الأساسية الملقاة على عاتق زعماء القبائل المحافظة على صحة الجماعة بتزويدها بالماء النظيف واتخاذ الإجراءات اللازمة للحفاظ على الصحة العامة وتوفير العناية الطبية والعلاج بالمستشفيات لأن الصحة أهم النعم على الأرض . وينظم الحكام التعليم للأطفال والكبار ويهتمون اهتماماً شديداً بالتدريب المهني ويؤيدون العلم ولا يشجعون التنجيم وقراءة الطالع والخرافة . ولهم أن يشنوا الحرب على الشعوب الأخرى إذا رأوا أن هذا يقتضيه صالح الجماعة . « لأنهم يعتبرون أن أعدل سبب للحرب يتوفر عندما يحتفظ أى شعب بقطعة من الأرض فضاء ولا تستغل بأى صورة نافعة أو مربحة، ويمنع الآخرين من الاستفادة منها أو حيازتها ، وهم بحكم قانون الطبيعة يجب أن يطعموا ويفرج عنهم (٣٧) » (هل كان هذا دفاعاً عن استعمار أمريكا ؟) . بيد أن سكان المدينة الفاضلة لا يمجدون الحرب « لأنهم يكرهونها باعتبارها عملاً وحشياً واضحاً ، ومناقضاً لشعور كل أمة أخرى تقريبا . ويرون أنه لا شيء أكثر خسة وتفاهة من الحجد المستمد من الحرب (٣٨) » .

والدين في المدينة الفاضلة لا يكاد يكون حرراً تماماً . وتعامل بالتسامح

أى عقيدة، اللهم إلا الإلحاد وإنكار خلود الإنسان، وفي وسع ساكن المدينة الفاضلة إذا شاء أن يعبد الشمس أو القمر . ولكن الذين يلجأون إلى العنف في العمل أو الكلام عن أى دين معترف به يقبض عليهم ويعاقبون لأن القوانين تستهدف منع النزاع الدينى (٣٦) . والذين ينكرون الخلود لا يعاقبون بل يبعدون عن الوظيفة ويحرم عليهم إبداء آرائهم لأى إنسان اللهم إلا للقساوسة و « أصحاب الشأن » . وإلا « فإنه يباح لكل إنسان أن يؤثر ويتبع أى دين يشاء . . . ويستطيع أن يبذل كل جهده لإقناع آخر برأيه ما دام يفعل هذا سلمياً وفي رصانة ، وفي غير ما عجلة وبلا زجر أو قبح يصدران عن نزاع ضد الآخرين (٤٠) » . ومن ثم فإن فى المدينة الفاضلة عدة أديان بيد أن « أعظم وأحكم دور . . . هو الإيمان بوجود قوة إلهية معروفة ، دائمة ، لا تدرك ولا تفسر ، أعظم من أن يدركها عقل الإنسان ومقدرته ، متفرقة فى أنحاء العالم (٤١) » . والرهبانية مسموح بها بشرط أن يشغل الرهبان أنفسهم بأعمال البر والمنفعة العامة ، مثل إصلاح الطرق والجسور وتطهير الخنادق وقطع الأخشاب والعمل خدماً بل ورفيقاً ، وفى وسعهم أن يتزوجوا إذا رغبوا . وهناك قساوسة ، ولكنهم يتزوجون أيضاً . وتعتبر الدولة أن أول وآخر كل شهر وكل عام بمثابة أعياد دينية ، ولكن فى تأدية الاحتفالات الدينية فى هذه العطلات ، « لا يرى تمثال أى إله فى الكنيسة » ، ولا تؤدى صلوات ، ولكن فى وسع كل إنسان أن يتلو صلاة ما فى جراءة دون أن يسئ إلى أى طائفة (٤٢) . وفى كل يوم من هذه العطلات تسجد الزوجات والأطفال أمام أزواجهن أو آبائهم، ويطلبون الصفح عن أى ذنب قد اقترفه أو أى واجب يكونون قد أخلوا به ، ولا يسمح لأحد بالحضور إلى الكنيسة إلا بعد أن يسود الوثام والسلام بينه وبين عدوه . وهذه لمسة مسيحية ، ولكن إنسانية مور الغتية تبدو فى قبوله الجزئى لوجهة النظر اليونانية عن الانتحار . إذا عانى إنسان من مرض عضال غير قابل للشفاء ، فإنه

يسمح له ويشجع على إنهاء حياته . أما في الحالات الأخرى فإن مور يعتقد أن الانتحار جبن ، ويروى « أن البلثة يجب أن تلتقى دون دفن في مستنقع نزن (٤٣) » .

ولا نعرف كم من هذه يمثل النتائج التي توصل إليها مور بعد ترو ، وكم منها كان من تفكير إرازمويس ، وكم منها كان من وحى الأعيب الخيال . وعلى أية حال فإن السياسي الشاب أبعد نفسه في حرص عن اشتراكية سكان المدينة الفاضلة ، وهو يتمثل نفسه بقول هيثلوداي : « أرى أن كل الناس لن يعيشوا في ثراء حيث تكون كل الأشياء على المشاع . لأنه كيف تكون هناك وفرة في السلع . . حيث نجد أن نظرة الإنسان إلى مكاسبه الشخصية لا تدفعه إلى العمل ، ولكن الأمل يراوده في أن يجد في عماء الآخرين ما يجعله ينعم بالكسل . لا يمكن أن تكون كل الأمور على ما يرام ، ما لم يكن كل الناس صالحين ، وهو ما أعتقد أنه لن يحدث في هذه السنين العديدة الطويلة (٤٤) » . ومع ذلك فإن بعض التعاطف على ضروب الحنين المتطرفة لا بد أن يكون قد استلهم بصورة كبيرة المثال الشيوعي . وثمة صفحات أخرى في المدينة الفاضلة تنتقد في غضب قسوة استغلال الأغنياء للفقراء . وفيها تنديد بإحاطة اللوردات الإنجليزي لبعض الأراضي العامة بسياج ، وذلك بصورة مفصلة وروح لا يتوقعان فيما يبدو ، من أجنبي . ويقول هيثلوداي لمور : « إن الطمع الجائر للقلة قد تحول إلى الخراب التام لجزيرتك . إن هؤلاء الأغنياء لا يطيقون إلا أن يشتروا كل شيء ليتلهاوا ويستأثروا بكل شيء ويتحكموا في السوق وحدهم كما يشاءون باحتكارهم (٤٥) » . وعندما أفكر وأزن بعقلي كل هذه الحكومات التي تزدهر الآن في كل مكان فإنني لا أفهم - وليساعدني الله - إلا أن هناك مؤامرة ، يديرها الأغنياء لترويج سلعهم باسم الجمهور . إنهم يخترعون ويتوسلون بكل الوسائل والخدع . .

كيف يستأجرون ، . ويتسففون . . . في جهد الفقراء مقابل مبلغ صسفير
يقدر الإمكان . . . وهذه الحيل تؤدي إلى سن القوانين (٤٦) .

وهذا يكاد يكون صوت كارل ماركس يحرك العالم من سفح فضاء في
المتحف للبريطاني ، ولا شك أن المدينة الفاضلة هي أقوى ضروب الاعتمام
وأولها للنظام الاقتصادي الذي استمر في أوروبا الحديثة حتى القرن العشرين ،
ولأنها سوف تظل معاصرة مثل اقتصاد يسير وفق خطة معينة ومثل رفاهية
الدولة أيضاً .

٣ - الشهيد

كيف تأتي لرجل تعج في رأسه مثل هذه الأفكار أن يهسين في مجلس
هنري الثامن في السنة التالية لنشر كتاب المدينة الفاضلة ؟ الراجع أن الملك
على الرغم مما لشتهر به من علم ، لم يستطع أن يتحمل قراءة الكتاب باللاتينية
ومات . قبل أن ينشر بالإنجليزية . واحتفظ مور بخواطره للمتطرفة لأصدقائه .
وعرفه هنري مزيجاً نادراً من المقدرة والكمال ، وقدّره باعتباره صلة وثيقة
بينه وبين مجلس العموم ، ونصبه فارساً وعينه وكيلًا للخزانة (١٥٢١) ،
وعهد إليه بمهام دبلوماسية دقيقة .

وعارض مور السياسة الخارجية التي انتهجها ولزي وقادها إنجلترا
للحرب مع شارل الخامس ، إذ أن الإمبراطور في نظر مور لم يكن داهية
خطيراً فحسب ، بل كان أيضاً البطل المدافع عن العالم المسيحي ضد الأتراك .
وعندما سقط ولزي نسي مور حتى وقتذاك أخلاقياته ليراجع - في المجلس
النيابي - زلاته وأخطائه التي أدت إلى السقوط . وكان ، بصصفته زعيماً
للمعارضة ، الخليفة المنطقي للكاردينال ، وظل يعمل رئيساً لوزراء (حاجباً)
لإنجلترا واحداً وثلاثين شهراً .

ولكن الملك كان الخليفة الحقيقي لولزى . فقد اكتشف هنرى قوته ومقدرته وقال إنه قرر أنه يحور نفسه من بايوية تكن له العداوة وتقف في طريقه وأن يسبغ صفة الشرعية على زواجه بامرأة أحبها وتستطيع أن تنجب له وريثاً للعرش .

ووجد مور نفسه لا يوجه السياسة بل يخدم الأهداف التي تسير في اتجاه مضاد لأعمق مشاعر الولاء التي يطورها بين جوانحه . وواسى نفسه بتأليف كتب ضد اللاهوت البروتستانتي وبمطاردة زعماء البروتستانت . وأتفق في كتاب حوار يتعلق بالهرطقة (١٥٢٨) وفي كتب متأخرة ، مع فرديناند الثاني وكالفن والأمرء اللوثريين على ضرورة الوحدة الدينية لتحقيق القوة والسلام القوميين . وخشى انقسام الإنجليز إلى اثنتي عشرة أو مائة طائفة دينية . ومع أنه كان قد دافع عن ترجمة إرازيموس للعهد الجديد إلى اللاتينية فإنه احتج ضد نسخة تندرال الإنجليزية باعتبارها تحريفاً للنص بصورة تثبت وجهات النظر اللوثرية ، وشعر بأن ترجمات الكتاب المقدس يجب ألا تتحول إلى أسلحة يشرعها فلاسفة الحانة . وعلى أية حال فإنه تمسك بأن الكنيسة كانت أداة ثمينة جداً للنظام والمواساة والإلهام ، بحيث لا يجوز تمزيقها إرباً بالاستدلال المتسرع من مجادلين معجبين بأنفسهم .

وانتقل من هذه الحال إلى إحراق البروتستانت على المحرقة . أما الاتهام الذي وجه إليه بأنه أمر بجلد رجل في بيته بسبب الهرطقة (٤٧) فإنه موضع خلاف ، ويبدو أن رواية مور عن المذنب بعيدة عن اللاهوت « إذا نظر خلصة لأية امرأة وهي تركع » في الصلاة و « إذا تدلى من رأسها شيء في تضرعاتها فإنه عندئذ يتسلل وراءها . . . يعمل على رفع كل ثيابها ويقذف بها فوق رأسها (٤٨) » . ويمكن أن يقول إنه في أحكام الإعدام الثلاثة التي أعلنت في أسقفيته إبان توليه منصب الحاجب ، كان يستجيب فيها للقانون ، الذي كانت الدولة في حاجة إليه ليكون العضد العلماني للمحاكم الكنسية (٤٩) ،

ولكن ليس من شك في أنه وافق على عمليات الإحراق^(٥٠). ولم يسلم بوجود أى تناقض بين سلوكه والتسامح الكبير في الاختلافات الدينية الذى أبداه في مدينته الفاضلة ، لأنه حتى هناك رفض التسامح مع الملحدين والمنكرين للخلود ، وهؤلاء الهراطقة الذين لجأوا إلى العنف أو توسلوا بالطعن . ومع ذلك فقد ارتكب هو نفسه جريمة الطعن بمجادلته البروتستانت الإنجليز^(*) .

وجاء الوقت الذى زأى فيه مور أن هنرى أخطر الهراطقة على الإطلاق . ورفض الموافقة على زواجه من آن بولين ورأى في التشريع المناهض لرجال الدين الذى صدر في ١٥٢٩ - ٣٢ اعتداء صارخاً على كنيسة يرى أنها بمثابة قاعدة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى . وعندما تقاعد من المنصب وانسحب إلى خلوة بيته فى تشلسى (١٥٣٢) كان لا يزال فى عنفوانه ، فى الرابعة والخمسين من عمره ، ولكنه كان يرتاب فى أنه لن يعيش طويلاً . وحاول أن يهيب أسرته للمأساة بالحديث (هكذا يقول زوج ابنته وليام روبر) عن حياة الشهداء الأحرار وعن جلدتهم العجيب وعماء كابدوه من آلام وعن مبعثهم التى آثروا فيها أن يتعرضوا للعذاب على أن يسينوا إلى

(*) « ومع ذلك فهناك خنزير لا يتلقى أى تعليم إلا ليُدنسه وهناك كلاب تمزق بأنبيائها كل علم نافع . . . ولا يكفى أن يمظ الناس أمثال هؤلاء الكلاب بل يجب جلدتهم بالسياط والمقارع بمنق ، والحيلولة بينهم وبين تمزيق العلم النافع بأنبيائهم . . . إلى أن يستكينوا ويصيحوا السمع لما يقالى لهم . وهذه الوسائل يمنع الخنزير من إلحاق الأذى ، والكلاب تخضع أحياناً للتعليم إلى حد . . . أنها تتعلم كيف ترتص على مزمار سيدها . والعقاب رادع فى سين أن التعليم المنجرد منه لا يكفى . فن هم الكلاب بمعنى الكلمة الآن سوى هؤلاء الهراطقة الذين يذبحون على القرايين المقدسة المباركة . . . ومن هم الخنازير بمعنى الكمامة سوى هراطقة أباننا هذه ، وهم من ضرب نجس لم يشهده أحد قط من قبل ؟

وفى مثل هذا الموكب الرزين أقسم جميع أصحاب القداسة على العنة . . . وتحولوا إلى جرية قذرة شائنة ينعم بها الرهبان بتكاح الراهبات » (٥١) .

الرب فأى شيء أسعد وأكثر بركة من أن يحب الله وأن يتعرض لفقد المال والسجن وضياح الأرض بل والحياة أيضاً . وكان فضلاً عن هذا يقول لهم معتمداً بعقيدته إذا أدرك أن أبنائه سوف يشجعونه على الترحيب بالموت في سبيل هدف سام فإنه سوف يجحد في هذا من السلوى ما يملأ نفسه حبوراً ولهذا السبب يرجع إلى الموت مبتهجاً (٥٢) .

وتحقق كل ما توقعه ، فقد اتهم عام ١٥٣٤ ، ووجهت إليه تهمة بأنه كان على علم بمؤامرة تتعلق براهبة كنت ، فأقر بأنه التقى بها ، وآمن بأنها تتلقى الوحي ، ولكنه أنكر أنه كان على علم بالمؤامرة . وتشفع كرومويل ، وتفضل هنرى بالصفح عنه . ولكن في السابع عشر من ابريل حكم على مور بالسجن في البرج لأنه رفض أن يحلف اليمين على قانون الوراثة ، الذى رأى عندما قدم إليه أنه ينطوى على إنكار لسيادة البابا على الكنيسة في إنجلترا .

وكتبت إليه ابنته الأثيرة مرجريت رسالة ترجوه فيها أن يحلف اليمين ، فرد عليها بأن توسلها سبب له ألباً أشد مما سببه له سجنه . وزارته زوجته (الثانية) في البرج وانتهرته (كما يقول روبر) لعناده :

« إني لأعجب لك في هذا العام يا مستر مور ، يا من كنت أحسبك حتى الآن رجلاً عاقلاً ، لماذا تتظاهر بالحمق ، فترقد هنا في هذا السجن الضيق القدر ، وترضى بأن تحبس بين الفئران والجرذان ، بينما فى وسعك أن تكون حراً فى الخارج ، وتنعّم بحظوة ورضا الملك ومجلسه ، إذا فعلت فقط ما فعله كل الأساقفة وخير المتعلمين فى هذه المماكة . وعندما أرى أن لك فى تشلسى بيتاً جميلاً لاثناً ، وأرى مكتبتك وكتبك وقاعة صورك وحديقتك وبستانك وكل الضروريات الأخرى ، تبدو جميلة من حولك ، حتى لتستطيع أن تسعد برفقتى ، أنا وزوجتك ، ورفقة أولادك وأسرتك ، فإنى أتأمل باسم الرب ماذا تعنى بمكوثك هنا وكلفك بإطالة أمده (٥٣) » .

وبذلت محاولات أخرى لزعزحته عن موقفه ، بيد أنه فاقمها كلها
بإتسامة .

وفي أول يولية سنة ١٥٣٥ قدم لمحاكمة أخيرة . فدافع عن نفسه جيداً
ولكن حكم عليه بالإدانة لخيانة الدولة ، وبينما كان عائداً من وستمنستر
إلى البرج اقتحمت ابنته مرجريت صفوف الحرس ، واحتضنته وتقبلت
بركته الأخيرة . وفي اليوم السابق لإعدامه أرسل قيضه المصنوع من الشعر
إلى مرجريت ومعه رسالة « غداً نلتقي » لكي نذهب إلى الله . . . وداعاً
يا ابنتي العزيزة ، صلي من أجلى ، وسوف أصلى من أجلك ، ومن أجل
جميع أصدقائك ، لكي نلتقي في السماء مسرورين (٥٤) .

وعندما ارتقى منصة المقصلة (في ٧ يوليو) ووجد أنها ضعيفة توشك
أن تنهار قال لأحد التابعين : « أرجوك أيها الملازم أن تراعى أن أكون في
أمان وأنا في أعلاها ، وبالنسبة لنزولي دعني أحتال لنفسى (٥٥) » . وطلب منه
الجلاد الصفيح والمغفرة فاحتضنه مور . وكان هنرى قد أصدر تعليمات
بالأ يسمع للسجين إلا يبضع كلمات . وطلب مور من المشاهدين أن يصلوا
من أجله ، وأن يشهدوا بأنه تعرض للموت في سبيل عقيدة الكنيسة
الكاثوليكية المقدسة ، ومن أجلها ، ثم طلب منهم أن يصلوا من أجل
الملك ، وأن ينعم الله عليه بمشير صالح ، واحتيج بأنه مات وهو خادم صالح
للملك ، ولكنه خادم الرب أولاً (٥٦) . وتبلا المزمارة الحادى والخمسين ، ثم
وضع رأسه على الكتلة ، وسوى بعناية لحيته البيضاء الطويلة ، حتى لا تتعرض
لأى أذى وقال : « مما يؤسف له أنها سوف تقطع ، وأنها لم ترتكب جريمة
خيانة الدولة (٥٧) » ، وعلق رأسه على جسر لندن .

وسرت موجة من الرعب في إنجلترا التي أدركت وقتذاك قسوة الملك ،
التي أصر عليها ، وسرت في أوروبا قشعريرة من الفزع . وشعر إرازاموس

أنه هو نفسه قد مات لأنه، « ليس لنا إلا روح واحدة تتردد بيننا(٥٨) » وقال انه لم تعد لديه وقتذاك أى رغبة فى الحياة . وبعد عام مات هو أيضاً . وعلم شارل الخامس بالحادث وقال للسفير الإنجليزى : « لو كنت سيداً لخادم مثل هذا توفرت لى - أنا نفسى - عن أعماله خبرة غير ضئيلة فى هذه السنوات العديدة ، فإنى كنت أفضل أن أفقد أحسن مدينة فى ممتلكاتى ولا أفقد مثل هذا المستشار الجليل(٥٩) » . وصاغ البابا بولس الثالث نشرة بابوية بحرمان هنرى الخارج على القانون من زمالة العالم المسيحى ، وتحريم الصلوات الدينية فى إنجلترا ، ومنع كل تجارة معها ، وحل كل الرعايا البريطانيين من إيمانهم بالولاء للملك ، وأمرهم هم وكل الأبراء المسيحيين بخلعه فوراً . ولما كان كل من شارل وفرانسيس لا يرحبان بهذه الإجراءات ، فإن البابا حجز صدور النشرة البابوية حتى عام ١٥٣٨ . وعندما أصدرها ، منع شارل وفرانسيس نشرها فى مملكتيهما ، إذ لم يرضيا التصديقتى على الادعاءات البابوية بوجود سلطة له على الملوك . وكان فشل النشرة البابوية لإيداننا بضعف السيادة البابوية ، وارتفاع سلطان الدولة القومية .

ورأى دين سويقت أن مور رجل « يتمتع بأعظم الفضائل » - ولعله يستخدم الكلمة بمعناها القديم الخاص بالشجاعة - « بين الرجال الذين أنجبتهم هذه المملكة(٦٠) » .

وفى الذكرى الأربعمئة لإعدام توماس مور وجون فيشر أدرجتتهما كنيسة روما بين قديسيها .

٤ - حكاية ثلاث ملكات

فقد هنرى ثلاثاً من ست ملكات فى خلال ثلاثين شهرا من وفاة مور . فقد تلاشت حياة كآثرين فى معتزلها الشمالى ، وهى لا تزال تدعى أنها زوجة هنرى الشرعية الوحيدة ، وملكة إنجلترا صاحبة الحق الشرعى ، واستمرت

وصيغاتها في إطلاق هذا اللقب عليها . وفي عام ١٥٣٥ نقلت إلى قلعة كيمبالتون قرب هنتنجدون^(٦١)، وهناك حبست نفسها في حجرة واحدة ولم تكن تركها إلا لحضور القداس . واستقبلت زوارا و « عاملتهم في كرم زائد (٦١) » وحجرت ماري ، وكانت وقتذاك في التاسعة عشرة في هاتفيلد التي لا تبعد إلا بمسيرة عشرين ميلا ، غير أنه لم يسمح للأم ولا لابنتها بأن ترى إحداهما الأخرى ، ومنعاً من الاتصال ببعضهما ، ومع ذلك فإنهما تراسلا ، وتعد رسائل كاترين من أعظم الرسائل المؤثرة في الأدب بأسره . وعرض هنري عليهما دارين آخرين أفضل من داريهما ، إذا اعترفتا بملكته الجديدة ، فرفضتا . وعينت آن بولين عمته مربية للماري وأمرتها بأن تحتفظ « بابنة السباح » وتلزمها حلها به « لكلمة على الأذنين بين آن وآخر (٦٢) » . ومرضت كاترين في ديسمبر سنة ١٥٣٥ وكتبت وصيتها وبعثت برسالة للإمبراطور تطالب منه حماية ابنتها ووجهت وداعا مؤثرا له « سيدها وزوجها العزيز » الملك .

« إن ساعة وفاتي تقترب ولا حيلة لي إلا أن أنصحك ، بحكم ما أكنه لك من حب ، بأن نعني بطهارة روحك التي يجب ان تؤثرها على كل الاعتبارات في الدنيا ، أو على أى جسد تشتهييه مهما كان ، والذي من أجله قادت بي في كوارث عديدة ، وبنفسك في متاعب كثيرة ولكني أغفر لك كل شيء ، وأرجو الله أن يختر لك أيضا ، وبالنسبة للباقي أوصيك خيرا بابنتنا ماري ، وأتوسل إليك أن تكون لها أباً صالحاً . . . وأخيراً فإنني أردت هذا القسم بأن عيني تريدان أن تبصرك فوق كل شيء وداعاً (٦٣) » .

وبكى هنري عندما نسلم الرسالة ، وعندما ماتت كاترين (٧ يناير سنة ١٥٣٦) بالغة من العمر خمسين عاماً ، أمر الحاشية بإعلان الحداد . فرفضت آن (٦٤) .

ولم تستطع آن أن تعرف أنها ستموت أيضاً في خلال خمسة شهور ، ولكنها أدركت أنها خسرت الملك ، فقد أدى طبعها الحاد وسورات غضبها المتسمة بالصلف ، ومطالبها التي تبعث على الضجر ، إلى إنهاك هنرى الذى رأى أن لسانها السليظ يتناقض مع رقة كاترين (٦٥) . وفى اليوم الذى دفنت فيه كاترين ولدت آن طفلاً ميتاً ، وبدأ هنرى الذى كان لا يزال يتلهف على ولد يفكر فى طلاق آخر - أو فى بطلان للزواج كما سوف يفعل ، وروى عنه أنه قال إن زواجه الثانى نم تحت لإغراء السحر ، ومن ثم فإنه باطل (٦٦) . وبدأ من أكتوبر سنة ١٥٣٥ يولى اهتماماً خاصاً بإحدى وصيفات آن وهى جين سيمور . وعندما أنبته آن أمرها بأن تتحمله فى صبر ، كما فعل من هن أفضل منها (٦٧) ، ولعله انتهج حيلة قديمة عندما اتهمها بالخيانة . إذ يبدو إنه مما لا يصدق أن تخاطر حتى امرأة نزقة بعرشها بالمحظة تبذل ، ولكن يبدو أن الملك كان قد آمن فى إخلاص بأنها مذنبه . وأشار إلى الشائعات الدائرة عن غرامياتها التي وصلت إلى مجلسه ، فاستقصى الأمر وأبلغ الملك أنها اقترفت الزنا مع خمسة أعضاء من البلاط ، هم سير وليام بريريتون ، وسير هنرى نوريس ، وسير فرانسيس وستون ، ومارك سميون ، وأخيها اللورد روشفورد ، وأرسل الرجال الخمسة إلى البرج وتبعهم آن فى اليوم الثانى من مايو سنة ١٥٣٦ .

وكتب لها هنرى يعللها بالآمال فى الصفح عنها والرفق بها إذا كانت صادقة معه ، فردت بأنها ليس لديها ما تعترف به . وزعم خدامها فى السجن أنها أقرت بأنها تلقت عرضين بتبادل الحب مع نوريس ووستون ، بيد أنها ادعت أنها صدمتهما . وفى يوم ١١ مايو وبعد أن طلب من هيئة المحلفين الكبرى فى مدلسكس أن تقوم بتحقيق محلى فى الجرائم التي يقال إن الملكة قد ارتكبتها فى تلك البلاد أبلغت أنها وجدتها مذنبه لاقترافها الزنا مع جميع الرجال الخمسة المتهمين ، وقدمت أسماء وتواريخ معينة (٦٨) . و

يوم ١٢ مايو حوكم أربعة من هؤلاء الرجال في وسمنستر أمام هيئة محلفين ، منهم والد آن الايرل أف ولتشاير . واعترف سميتون أنه مذنب كما اتهم ، أما الآخرون فدافعوا عن أنفسهم بأنهم غير مذنبين ، وحكم بإدانة الأربعة جميعاً . وفي يوم ١٥ مايو حوكت آن هي وأخوها أمام جماعة مكونة من ستة وعشرين نهبلاً برئاسة الدوق أف نورفولك وهو عمها ، ولكنه عدوها السياسى . وأكد الشقيقتان أنهما بريتان ، ولكن كل عضو من جماعة القضاة أعلن أنه مقتنع بأنهما مذنبان ، وحكم عليهما بأن يحرقا أو يقطع رأسهما كما يتراءى للملك . وفي يوم ١٧ مايو شتى سميتون ، أما الرجال الأربعة الآخرون فقد قطعت رعوسهم كما يليق برتبهم . وفي ذلك اليوم طلب وكلاء الملك من رئيس الأساقفة كرانمر أن يعلن عدم صحة للزواج بأن وأن البزابت ابنة سفاح فاذعن . ولا يعرف الأسس التي بنى عليها هذا الحكم ، ولكن يظن أن زواج آن السابق المزعوم بلورد نورثمبرلاند أعلن وقتسلك أنه حقيقى .

وركت آن عشية وفاتها أمام لادى كنجستون زوجة الحارس وطلبت منها مئة أخيرة : أن تذهب وتركع أمام ماري ، تتوسل إليها باسم آن أن تصفح عن الأخطاء التي ارتكبت في حقها ، بسبب كبرياء امرأة تعسة غير متبصرة (٦٩) ، وطلبت أن ينفذ فيها حكم الإعدام فوراً يوم ١٩ مايو . والظاهر أنها استمدت شيئاً من العزاء من فكرة أن خطرت لها هي : « لقد سمعت أن الجلاد بارع جداً ولى عتق صغير » - ومن أجل ذلك ضحككت واقبتدت ظهر ذلك اليوم إلى منصة المقصلة ، وطلبت من المشاهدين أن يصلوا من أجل الملك « لأنه ليس هناك أمير يزه في الرقة والرأفة (٧٠) ، ولم يكن هناك أحد يقطع بأنها مذنبية ، ولكن نلبين أسفوا لسقوطها :

وفي يوم وفاتها منح كرانمر للملك محملاً بالزواج مرة أخرى في سعيه

المتجدد للحصول على ولد ، وفي اليوم التالي خطب هنرى ، جين سيمور
سراً ، وتزوجا يوم ٣٠ مايو ١٥٣٦ ، ونودى بها ملكة يوم ٤ يونية :
وكانت سليلة أسرة ملكية ، إذ أنها تنحدر من إدوارد الثالث ، وكانت لها
صلة قرابة من الدرجة الثالثة أو الرابعة بهنرى ، مما دعا إلى الحصول على
محلل آخر من كرائمر المطيع . ولم تكن تتمتع بجمال خاص ، بيد أنها أثرت
في الجميع بذكائها ورقتها بل وتواضعها ، ووصفها الكاردينال بول خصم
هنرى اللدود بأنها : « ممتلئة بالطيبة » ، ولم تشجع محاولات الملك التقرب
بها إبان حياة آن ، ورفضت قبول هداياه ، وأعدت رسائله دون أن
تفتحها ، وطلبت منه ألا يتحدثها إلا في حضور آخرين (٧١)

وكان أول عمل تم بعد الزواج هو القيام بالتوفيق بين هنرى ومارى .
وقام هنرى به بطريقته الخاصة فأمر كرومويل بأن يبحث لها برسالة عنوانها :
« اعتراف لادى ماري » . وهى تعترف بالملك رئيساً أعلى لكنيسة فى إنجلترا
وتنكر « سلطة أسقف روما المزعومة » ، وتعترف أن زواج هنرى بكاترين
« من قبيل سفاح القربى وغير شرعى » . وطلب من ماري أن توقع باسمها
على كل جملة ، ووقعت ولم تصفح عن نفسها قط . وبعد ثلاثة أسابيع أقبل
الملك والملاكة لرؤيتها وقدمتا إليها هدايا . و١٧٠٠٠ كراون ، وأطلق عليها مرة
أخرى لقب أميرة ، وفي يوم عيد الميلاد لعام ١٥٣٦ استقبلت فى البلاط ،
وهناك لا بد أن شينا طبيبا كان فى هنرى وفى « ماري الدموية » - لأنها
كادت تتعلم فى السنوات الأخيرة أن تحبه .

وعندما اجتمع المجلس النيابى مرة أخرى (١٨ يونية سنة ١٥٣٦) أصدر
بناء على طلب الملك قانوناً جديداً بوراثة العرش وبمقتضاه أعلن أن اليزابث
ومارى على السواء بنتان غير شرعيتين ، وتقرر أن يقتصر التاج على اللدوية
المنزوعة أن تنجبها جين سيمور :

ومات الدوق آن رتشموند ابن هنرى غير الشرعى ، وتعلقت آمال الملك كلها فى حمل جين . وهالت إنجلترا معه عندما ولدت (١٢ أكتوبر سنة ١٥٣٧) ولدا هو إدوارد السادس فى المستقبل . بيد أن جين المسكينة التى ارتبط بها الملك وقتذاك ارتباطاً عميقاً ، بقدر ما سمحت روحه ، التى تتركز حول ذاته ، ماتت بعد ولادة ابنها باثنى عشر يوماً . وظل هنرى رجلاً محطماً بعض الوقت . وعلى الرغم من أنه تزوج مرة أخرى ثلاث مرات فإنه طنب عند وفاته أن يدفن بجانب المرأة التى ضمحت بحياتها فى سبيل حمل ابنه .

ماذا كانت ردود الفعل لدى الشعب الإنجليزى بالنسبة لأحداث هذا العهد المضطرب ؟ من الصعب أن نقول شيئاً ، فالدليل فيه تحامل ويكتنفه الغموض ومشتت . وروى شابويس عام ١٥٣٣ أن رأى الكثيرين من الإنجليز أن « الملك رتشارد السابق لم يكن قط مكروها من شعبه إلى هذا الحد مثل هذا الملك (٧٢) » . وقد تعاطف الشعب بوجه عام مع رغبة هنرى فى الحصول على ولد ، وأدان قسوته على كاترين ومارى ولم يذرف دموعاً على آن ، ولكنه صدم صدمة عميقة بإعدام فيشر ومور . وكانت أغلبية الأمة السابقة لا تزال تدين بالكاثوليكية (٧٣) ، وكان رجال الاكليروس — بعد أن حققت الحكومة وقتذاك لنفسها موارد الأساقفة حديشى التعمين فى السنة الأولى — يأملون فى التوفيق مع روما . ولكن لم يجروء أحد على أن يرفع صوته بنقد الملك . وتلقى نقداً ، ومن إنجليزى ولكن مع وجود القنال بينه وبين ذراع الملك .

كان ريجينا لدبول ابن مرجريت بلاننا حينت كونتييسة سالزبورى ، وهى نفسها ابنة أنخى إدوارد الرابع ورتشارد الثالث . وقد تعلم على نفقة هنرى ، وكان يتسلم مرتباً من الملك قدره ٥٠٠ كراون كل عام ، والظاهر أنه كان يعد لتولى أعلى المناصب فى الكنيسة الإنجليزية . ودرس فى باريس

وبادوا ، وعاد إلى إنجلترا ، وهو يتمتع بحظوة كبيرة لدى الملك ، وإن كان عندما أصر هنرى على سماع رأيه في الطلاق ، رد ريجينالد صراحة أنه لا يستطيع أن يوافق عليه ما لم يصدق عليه البابا . ولم يقطع هنرى مرتب الشاب وسمح له بالعودة إلى القارة .

وهناك ليث بول اثنين وعشرين عاما وارتفع في تقدير البابا باعتباره عالماً ومتضلعا في اللاهوت ، ونصب كاردينالا وعمره ستة وثلاثون عاماً (١٥٣٦) . وألف في ذلك العام باللاتينية رسالة هجوم على هنرى هي دفاع عن وحدة الكنيسة . ورأى أن الأخذ بسيادة هنرى على الشئون الكنسية في إنجلترا يدعو إلى الانقسام بين أبناء الديانة المسيحية وتشعبهم إلى قوميات متنوعة ، وأن التصادم الناتج بين العقائد سيؤدى إلى فوضى اجتماعية وسياسية في أوروبا . واتهم هنرى بأنه مصاب بجنون حب الذات والحكم المطلق . ولام الأساقفة الإنجليز على تسليمهم بعبودية الكنيسة للدولة . وندد بالزواج من آن باعتباره زنا ، وتنبأ (ولم يكن هذا من الحكمة إلى حد كبير) بأن النبلاء الإنجليز سوف يعدون الزابث « ابنة سفاح لعاهرة إلى الأبد » (٧٤) ، وطالب شارل الخامس بالأضحية أى ذخيرة حربية في حرب الأتراك وأن يحول القوات الإمبراطورية للقتال ضد ملك إنجلترا الكافر . كانت رسالة طعن شديدة ، أتلفتها كبرياء الشباب في الفصاحة . وأشار الكاردينال كوتاريني على المؤلف بالأنا يذشر الرسالة ، بيد أن بول أصر ، وأرسل نسخة إلى إنجلترا .

وعندما نصب بولس الثالث بول كاردينالا اعتبر هنرى هذا عملا من أعمال الحرب . وتخلى الملك عن كل فكرة تدور حول المصالحة ، واتفق مع كرومويل على أن الأديار في إنجلترا يجب أن تحل ، وأن تضم أملاكها إلى التاج .

الفصل الخامس والعشرون

هنرى الثامن والأديار

١٥٣٥ - ٤٧

١ - تقنية الحل

كان هنرى عام ١٥٣٥ مشغولاً جداً بالحب والحرب فلم يستطع أن ياحب دور البابا جملة أو تفصيلاً ، فعين كرومويل الذى يؤمن بفلسفة اللا أدرية (١) « نائبا للملك فى كل قضاائه الكنسى » . ووجه كرومويل وقتذاك السياسة الخارجية والتشريع الوطنى والسلطة القضائية العليا والمجلس الخاص والمخابرات وقاعة النجم وكنيسة إنجلترا ، ولم يكن لولزى فى أوج مجده قط أصابع طويلة متشبثة بفطائر غضة بهذه الكثرة . وكان يراقب أيضاً كل الطباعة والنشر ، وأقنع الملك بأن يحرم طبع الكتب أو بيعها أو استيرادها إلا بعد الحصول على موافقة وكلاء التاج ، وأمر بنشر الكتب المناهضة للبابوية على نفقة الحكومة .

وقام جواسيس كرومويل ، وهم لا يحصون ، بإبلاغ كرومويل بكل حركات أو بيانات المعارضين لهنرى أو له . وكانت أية إشارة تدل على الاشفاق على فيشر أو مور وأية دعاية تدور حول الملك يمكن أن تروى إلى محاكمة سرية وسجن طويل (٢) ، وكان التنبؤ بوفاة الملك يعرض المرء لفقد حياته (٣) .

وقام كرومويل ، فى بعض القضايا الخاصة بدور ممثل الاتهام والمخالفين

والقاضي ليصل إلى نتائج محققة . وكان كل واحد في إنجلترا يخشاه ويكرهه . وكانت أكبر معضلة واجهها هي أن هنري كان مفلسا ، على الرغم من سلطانه العظيم . وكان الملك يتوق إلى زيادة حجم البحرية والإكتار من مرافئه وموانئه أو تحسينها ، وكانت حاشيته تتجاوز الحدود ونفقاته الشخصية باهظة ، ونظام كرومويل في الحكم يحتاج إلى نهر عريض من الأموال . فكيف يجمع المال ؟ كانت الضرائب مرتفعة إلى الحد الذي تقابل فيه بمقاومة تجعل الجباية تكلف من النفقات أكثر مما تدر من الربح ، وكان الأساقفة قد استنزفوا أبرشياتهم لتهدئة سورة الملك ، ولم يكن هناك ذهب يتدفق من أمريكا ، كما يتدفق يوميا لإغاثة الإمبراطور عدو إنجلترا . ومع ذلك كانت في إنجلترا مؤسسة واحدة ثرية وموضع ريبة وعاجزة لا تجد من يدافع عنها وهي الأديار . كانت موضع ريبة لأن ولاءها الأخير كان للبابا ، وإشتراكها في قانون السيادة يعد من قبيل المداينة وغير تام ، وكانت في نظر الحكومة هيئة أجنبية ملزمة بتأييد أى حركة كاثوليكية ضد الملك . وكانت عاجزة لأنها في كثير من الحالات كفت عن القيام بوظائفها التقليدية في مجالات التعليم والضيافة والبر ، وكانت لا تجد من يدافع عنها لأن الأساقفة استاءوا من إعفائهم من المراقبة الأسقفية ، ولأن الأشراف ، وقد أفقرتهم الحرب الأهلية ، طمعوا في ثروتها ، ولأن طبقة رجال الأعمال كانوا يرون في الرهبان والإخوة من الرهبان متلفين كسالى للموارد الطبيعية ، ولأن القسم الأكبر من العامة ، ومنهم كثير من الكنائس الصالحين . لم يعودوا يؤمنون بفاعلية الخلفات التي كان الرهبان يعرضونها ، أو بالقدسات التي كان يقيمها الرهبان للموتى ، إذا دفع لهم الأجر . وكانت هناك سوابق رائعة لإغلاق الأديار ، فقد أغلقها زوينجلى في زيورخ والأمراء اللوثيريون في ألمانيا وولزى في إنجلترا . وكان المجلس النيابي قد صوت (١٥٣٣)

بالموافقة على تحويل الحكومة ساطة التفتيش على الأديار وإجبارها على
تقويم اءوجاجها .

وأرسل كرومويل فى صيف عام ١٥٣٥ ثالوثا من « المفتشين » كل
منهم معه عدد كبير من الموظفين لفحص حالة أديار الرهبان والراهبات
فى إنجلترا من النواحي البدنية والأخلاقية والمالية وتقديم تقرير عنها . وكذلك
للتفتيش على الجامعات والكراسى الأسقفية كإجراء مقبول . وكان هؤلاء
« المفتشون » شبانا متهورين ، « من المرجح أن يسوموا بتنفيذ عملهم فى إتقان
أكثر مما يتوسلون فى تنفيذه بالرقعة (٤) » ، ولم يكونوا فى عصمة من قبول
« الهدايا (٥) » ، وكان « الهدف من مهمتهم الحصول على قضية للتاج ، ولعلمهم
لجأوا إلى كل الوسائل المأخولة لهم لحث الرهبان والراهبات على إدانة
أنفسهم (٦) . ولم يكن من الصعب أن يعثر فى ٦٠٠ دير فى إنجلترا على
عدد مقنع ويدل على وجود انحرافات جنسية — وأحيانا انحرافات جنسية
شاذة (٧) — ونظام متحلل واستغلال لمخلفات زائفة هدفه اكتناز المال ،
وبيع أوعية مقدسة أو مجوهرات مقدسة لإضافة المزيد إلى ثروة الدبر ،
وما فيه من ضروب الراحة (٨) وإهمال الشعيرة أو الضيافة أو البر (٩)
ولكن التقارير أغفلت عادة ذكر نسبة الرهبان الآثمين إلى الرهبان الجديرين
بالتقدير ، والتميز بوضوح بين الثروة والدليل (١٠) .

وقدم كرومويل للمجلس النيابى الذى انعقد فى ٣ فبراير عام ١٥٣٦
« كتابا أسود » ، ضاع الآن ، يكشف عن الاخطاء فى الأديار ، وينصح ،
باعتدال استراتيجى : بإغلاق أديار الرهبان والراهبات التى يبلغ دخلها ٢٠٠
جنيه (٢٠٠٠٠ دولار ؟) أو أقل فى العام . فوافق المجلس النيابى الذى
كان معظم أعضائه قد اختيروا بواسطة معاونى كرومويل (١١) . وعين
الملك محكمة المزايدات لكى تتسلم لصالح خزانة الملك أملاك وموارد هذه
الأديار الصغرى البالغ عددها ٣٧٦ . وأطلق سراح ألفى رادب ليذهبوا لدور

أخرى أو يخرجوا إلى العالم - وفي الحالة الأخيرة كانوا يمنحون مبلغاً صغيراً أو معاشاً يسد رمقهم إلى أن يجدوا عملاً . ولم يكن بين ١٣٠ دير للراهبات سوى ١٨ دييراً يتجاوز دخلها ٢٠٠ جنيه ، ولكن لم يغلق منها وقتذاك إلا نصفها .

وقامت في الشمال ثورة ثلاثيه قطعت دراما الحل . وكما نشأت المسيحية في المدن ووصلت إلى القرويين - الوثنيين - فكذلك نهض الإصلاح الديني في المدن بسويسرة وألمانيا وإنجلترا ، ولقي مقاومة دامت طويلاً في الريف . وتقلص ظل البروتستانتية في إنجلترا وسكوتلندا كلما ابتعدت المسافة من لندن أو أدنبره ، ووصلت متأخرة إلى ويلز وشمالي إنجلترا ، ولقيت ترحيباً ضئيلاً في إيرلنده . وفي المراكز الشمالية بإنجلترا أشعل سلب الأديار الصغرى نار الاستياء التي كانت مهياً للاشتعال منذ وقت طويل بسبب الضرائب المتزايدة والحكم الملكي المطلق على رجال الكليروس والتحرير من الخفي للقساوسة . وانضم الزهبان ، الذين جردوا من أموالهم ووجدوا أن من الصعب عليهم الحصول على مرتبتهم أو على عمل ، إلى المتعطلين العديدين المكتسبين ، أما الراهبات اللاتي جردن من أملاكهن واللاتي كن يتجولن من مأوى إلى مأوى فقد أثرن غضب الجمهور ضد الحكومة . وأهلب معاونو كرومويل « نار » الغضب بتزيين أنفسهم بأسلاب المعابد بالأديار وصناعة صديريات من القباء ، وسروج من صدرات القساوسة وقرايات خناجر من محافظ الخلفات (١٢) .

وفي يوم ٢ أكتوبر سنة ١٥٣٦ هاجم جمهور في لوث مفتشا ، كان قد أغلق توا دييراً للراهبات في لجبورن المجاورة لها ، وتم الاستيلاء على سجلاته وأوراق اعتماداته وأحرقت وصوب إلى صدره سيف وأكره على أن يحلف بيمين الولاء للعامة . وحلف كل من كان حاضراً بين الجمهور يمينا بأن يكون مخلصاً للملك والكنيسة الرومانية المقدسة : وفي اليوم التالي احتشد

جيش ناثر في كايستور على مسيرة بضعة أميال ، حرضه قساوسة ورهبان لا مأوى لهم ، واضطر أعيان الجهة - ومنهم من فعل ذلك باختياره - إلى الانضمام لجيش الثوار . وفي اليوم نفسه تجمع حشد كبير من القرويين في هورن كاسل ، وهي مدينة أخرى تقع في لنكولنشاير . واتهم حاجب أسقف لنكولن بأنه عميل لكروموويل ، وانتزع من فراشه ، وضرب حتى الموت بالهراوات . وصمم الثوار علما يصور محرثا وقدحا وبوقاً ، و«الكلمات الخمس الأخيرة» للمسيح ، واستخلصوا مطالب أرسلت إلى الملك : يجب أن تعاد الأديار وتخفف الضرائب أو تيسر ، وألا يدفع رجال الاكليروس ضرائب العشور أو موارد السنة الأولى من التعيين إلى التاج ، وأن يعبد «الدم الخبيث» (أى كروموويل) من المجلس الخاص ، وأن يقال الأساقفة الهراطقة - وبخاصة كرايمر ولاييمر - ويعاقبون :

وانضم إلى الثورة مجندون من الأقاليم الشمالية والشرقية . واحتشد في لنكولن حوالي ٦٠,٠٠٠ رجل ، ولبثوا يرقبون رد الملك .

وكان رده عنيفا لا يقبل التفاهم . واتهم الثوار بإنكار جميل حاكم كريم ، وأصر على أن اغلاق الأديار الصغرى إنما تم بإرادة الأمة التي عبرت عنها عن طريق المجلس النيابي ، وأمر الناظرين بتسليم زعمائهم ، وأن يتفرقوا وينصرفوا إلى بيوتهم ، وإلا تعرضوا لعقوبة الإعدام ومصادرة أموالهم . وفي الوقت نفسه أمر هنرى أعوانه بحشد قواتهم والزحف بقيادة إيرل أف سفولك لمساعدة اللورد شروسبرى ، الذى كان قد نظم تابعيه لصد الهجوم ، وكتب رسائل خاصة إلى الأشراف القلائل الذين كانوا قد انضموا إلى الثورة . وعند ما أدرك هؤلاء وقتذاك أن الملك لا يمكن إرهابه ، وأن الثوار المسلحين تسليحا سيئا سوف يقهرون وشيكا ، اقتنع الكاثيرون منهم بالعودة إلى قراهم ، وصرعان ما ذاب جيش الثوار فوق احتجاجات

القساوسة . وسلمت لوث خمسة عشر زعيما وأسر مائة آخرون ، وأعلن صدور عفو منكى عن الباقيين . وأخذ الأسرى إلى لندن والبرج وشنق ثلاثة وثلاثون ، منهم سبعة قساوسة ، وأربعة عشر راهبا ، وأطاق سراح الباقيين على مهل (١٣) .

وفي غضون ذلك كانت هناك فئنة أشد خطورة قد نمت في يوركشاير . اوجد رتشارد آسك ، وهو محام شاب ، نفسه متورطا بدنيا وعاطفيا في والحركة . وأفرغ محام آخر فتولى قيادة فرقة ثائرة في بفرلى ، وأعار اللورد دارسى أف تمبلهرست ، وهو كاثوليكي متحمس ، الثورة تأييده الخفى ، وانضم اثنان من أسرة برسى ، وحذا حذوهم معظم أشرف الشمال .

وفي ١٥ أكتوبر سنة ١٥٣٦ ضرب الجيش للرئيسى ، المكون من ٩٠٠٠ رجل ، الحصارا على يورك . وأجبر المواطنين فى المدينة للعمدة على فتح الأبواب . ومنع آسك رجاله من نهب المدينة ، وحافظ بوجه عام على نظام ملحوظ فى جيشه غير المدرب . وأعلن إعادة فتح الأديار ، وعاد إليها للرهبان فى اغتباط ، وأدخلوا السرور على أفئدة الأتقياء بجمارة ترانيمهم الجديدة . وتقدم آسك واستولى على بومفريه ، واستولى ستابلتون على هل دون لإراقة دماء . وانضم آخرون إلى رجال لنكولنشير فى تقديم المطالب وأرسلوا للملك : « أن يجمع كل المراطقة وكتبهم ، ويستأنف الروابط للكنسية مع روما ، وأن يسبغ صلحة الشرعية على مارى ، ويعزل مفتشى كرومويل ويعاقبهم ، ويأبى كل تسوير للأراضى العامة منذ عام ١٤٨٩ .

كانت هذه أخرج لحظة فى عهد هنرى . كان نصف البلاد يحمل السلاح ضد سياسته ، وكانت إيرلنده فى ثورة ، وكان بولس بول الثالث

والكردينال بول يمشان فرانسيس الأول وشارل الخامس على غزو إنجلترا
وخلع الملك . واستجمع قواه المتخاذلة ، وأرسل أوامراً إلى كل الجهات
بمخشد فرق موالية ، وفي الوقت نفسه أصدر تعليمات للدوق أف نورفولك
بأن يتغفل الزعماء الثائرين بإجراء مفاوضات . ورتب الدوق مداولة مع
أسك وعدة نبلاء وأغراهم بوعده منه بالعفو عنهم جميعاً . ودعا هنري
أسك إلى لقاء شخصي ومنحه جواز أمان . فجاء إلى الملك وافقتن بعير
الملكية ، وعاد وديعا ، ولم يلحقه أذى إلى يوركشاير (يناير سنة ١٥٣٧) ،
وعلى أية حال فإنه قبض عليه هناك وأرسل سجيناً إلى لندن . وانقطعت
صلة الجيش الثائر بقواده فانشعب إلى فرق غاضبة وساده اضطراب هجمي ،
وتضاعفت حالات التمرد . وبينما كانت فرق الملك المتحدة تقترب اختفى
الجيش الثائر كسراب تبدد (فبراير سنة ١٥٣٧) .

وعندما استوثق هنري من انهيار الثورة والغزو ما أنكر وعد نورفولك
بالعفو العام ، وأمر بالقبض على من يمكن العثور عليهم من الزعماء مثري
الفتنة ، وأعدم الكثيرون منهم ومن ضمنهم أسك ، وكتب إلى الدوق
يقول : « يسرنا أن نراك قبل أن نطوى علمنا مرة أخرى أن تقوم بإعدام
مروع لعدد لا بأس به من السكان في كل مدينة وقرية وحلة تكون قد
أجرت ، حتى يكون في هذا عبرة لكل من تسول له نفسه أن يقوم بمثل
ذلك في المستقبل . . . وما دامت هذه الاضطرابات كلها قد نتجت
من تحريض الرهبان والكنسيين في هذه البقاع وموآمراتهم الغادرة ، فلإننا
نريد منك في هذه الربوع التي تأمروا فيها ، ودافعوا عن بيوتهم بالقوة . .
أن تأمر بلا رحمة أو شفقة بشد وثاق هؤلاء الرهبان رجال الكنيسة الذين
ثبت خطوهم بأية وسيلة دون تأخير أو إجراء رسمي (١٤) .

وعندما رأى كرومويل ما لحق بالمعارضة من رعب شديد مضى قدماً

في إغلاق الدور الدينية الباقية في إنجلترا . وحلت يوما كل أدهار الرهبان والراهبات التي كانت قد انضمت إلى الثورة وصودرت ممتلكاتها لمصلحة الدولة . وامتد مجال الزيارات التفتيشية ، وأثمرت تقارير عن الخروج على النظام والفجر والخيانة والانحلال . وتوقع كثير من الرهبان سلفا لإغلاق الأديار فباعوا الخلفات والنفائس التي في دورهم إلى أعلى مزايده ، وبلغ ثمن إصبع لسانت أندرو أربعين جنيا^(١٥) . وأدين الرهبان في والسنجهام بتزييف معجزات ، وألقي تمثال العذراء ، الذي كان يدر عليهم أرباحا ، في النار . وهدم ضريح سانت توماس بيكيت التاريخي في كانتربري ، وأعلن هنري الثامن أنه في انتصاره على هنري الثاني لم يكن قديسا حقا ، وأحرقت الخلفات التي أساءت إلى كولييه ، وتفككها إرازاموس . ونقلت التحف الثمينة التي وهبها الحجاج الوردون في خلال ٢٥٠ عاما إلى الخزنة الملكية (١٥٣٨) ، ولبس هنري بعد ذلك في إبهامه خاتما محلي بياقوتة كبيرة أخذت من الضريح . وسعت بعض الأديار إلى خداع القدر بإرسال المال والهدايا لكرموويل ، وقبل كروموويل كل شيء وأغلقها جميعا . وما أن حل عام ١٥٤٠ حتى كانت كل الأديار وكل الأملاك الديرية ما عدا كنائس دير الكاتدرائية قد انتقلت إلى الملك .

وعلى الحملة فقد أغلق ٥٧٨ ديرا للرهبان وحوالي ١٣٩ دير للراهبات ، واشتت ٦٥٢١ راهبا أو أنحا و ١٥٦٠ راهبة . ونحلت حوالي خمسين راهبا وراهبتان من هؤلاء عن الرداء الديني ، بيد أن الكثيرين توصلوا أن يسمح لهم بمتابعة حياتهم التي ألفوها في الدير في مكان آخر^(١٦) . وفقد حوالي ١٢٠٠٠ شخص ، كانت الدور الدينية تستخدمهم فيما مضى أو كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم ، وظائفهم أو مخصصاتهم من الصدقات . وكانت الأراضي والمباني المصادرة تدر دخلا سنويا قدره حوالي ٢٠٠٠٠٠ جنيه

(٢٠٠٠ ر ٢٠٠٠ دولار ؟) ، غير أن عقود البيع التي أبرمت سريعا خفضت الدخل السنوي للأملك بعد التأميم إلى حوالي ٣٧٠٠٠ جنيه ، ولا بد أن يضاف إلى هذا المبلغ ٨٥٠٠٠ جنيه من المعدن الثمين المصادر ، ومن ثم قد يبلغ ما حصل عليه هنرى إبان حياته من جملة الأسلاب والدخل حوالي ١٤٢٣ ر ١٠٠ جنيه (١٧).

وكان الملك سخيا بهذه الأسلاب . فقد وهب بعض هذه الممتلكات - ومعظمها باعه بأسعار بعد مساومة - لنبلأ صغار أو مواطنين أحرار كبار - تجار أو محامين - ممن أيدوه أو وجهوا سياسته . وتسلم كرومويل أو اشترى ستة أديار لها دخل سنوى قدره ٢٢٩٣ جنيها ، وتسلم ابن أخيه سير رتشارد كرومويل سبعة أديار تدر دخلا قدره ٢٥٥٢ جنيها (١٨) وكانت هذه أصل الثروة التي جعلت من أوليفر الحفيد الثانى لرتشارد رجلا من رجال الثروة المادية والنفوذ فى القرن التالى . وذهبت بعض الأسلاب لبناء سفن وحصون وموانىء وبعضها ساعد فى تمويل الحرب وذهب بعضها إلى القصور الملكية فى وستمنستر وتشلسى وهامبتون كورت ، وفقد الملك بعضها فى لعب الزرد (١٩) . وأعيدت ستة أديار إلى الكنيسة الانجليكانية لتستخدم كراسى أسقفية ، وخصص مبلغ صغير لمواصلة أعمال الر العاجلة التى كان يقدمها فيما سبق الرهبان والراهبات ؛ وأصبحت الأرستقراطية الجديدة التى نشأت بفضل هدايا هنرى وعقود البيع التى أبرمها ، عضدا قويا للعرش التيودورى ، ودعامة للمصلحة الاقتصادية ضد أى عودة للكاثوليكية . وقد أبادت الأرستقراطية الإقطاعية القديمة نفسها ، أما الأرستقراطية الجديدة ، التى تأصلت جذورها فى التجارة والصناعة ، فإنها غيرت طبيعة الأشراف من السلبية المحافظة إلى عمل إيجابى ، وصبت دما جديدا وطاقة جديدة فى الطبقات العليا بإنجلترا . ولعل هذا - والأسلاب كان مصدر خصب العهد الإليزابيثى -

وكانت نتائج التحلل معقدة بلا حدود . ولعل الرهبان المتحررين قد أسهموا بدور متواضع أو لم يسهموا في زيادة عدد سكان إنجلترا من حوالى ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ عام ١٤٨٥ إلى حوالى ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ عام ١٥٤٧ (٢٠) وساعدت زيادة مؤقتة في عدد المتعطلين على تخفيض أجور الطبقات الدنيا جيلا كاملا ، وأثبت ملاك الأراضي الجدد أنهم أكثر جشعا من القدامى (٢١).

وكانت النتيجة من الناحية السياسية هي زيادة سلطة الملكية ، وفقدت الكنيسة آخر معقل للمقاومة ، وكانت النتائج من الناحية الأخلاقية ازدياد الجرائم والخصاصة والتسول وتقلص الموارد اللازمة لأعمال البر (٢٢). وأغلق ما يزيد على مائة مستشفى تديرها الأديار ، وقامت السلطات البلدية بتزويد قلة منها بالحاجة . أما المبالغ التي أوصلت بها الأرواح الخائفة أو الموقرة للقساوسة، كتأمين ضد نار جهنم أو نار المطهر، فقد صودرت على أساس أن هناك أملا في ألا يلحق الموتى أذى ، وانتزع الملك (٢٣). ٢٣٧٤ من الهبات الموقوفة على إقامة قداسات للأرواح . وكالت أقسى النتائج في مجال التعليم . فقد كانت أديار الراهبات تهيئ مدارس للبنات ، وكانت الأديار والقساوسة المشرفون على الهبات المخصصة للقداسات قد حافظت على مدارس وتسعين كلية للبنين ، وحلت كل هذه المؤسسات .

وبعد أن ذكرنا الحقائق بإنصاف لا يشويه إلا تحامل يصدر عن اللاوعى ، فإنه يسمح للمؤرخ بإضافة تعليق افتراضى يعترف به . إن جشع هنرى وجوركرومويل هما اللذان ساعدا مدى جيل على تخفيض حتمى في عدد الأديار الإنجليزية وإضعاف نفوذها . وكانت هذه الأديار قد قامت يوما بعمل يدعو للإعجاب في مجالات التعليم والبر والعناية بالمرضى في المستشفيات ، بيد أن إسباغ الصفة العلمانية على هذه الوظائف كان يسير قدماً في سائر أنحاء غربي أوروبا ، حتى في المناطق التي كانت تغلب عليها

المكاثوليكية : وكان ضعف الغيرة الدينية والنزعات الدنيوية الأخرى تحتجز تدفق المترهبين على المؤسسات الديرية . وانخفض عدد هؤلاء المترهبين إلى حد بدا أنه لا يتناسب مع فخامة مبانيهم والدخل الذى تدره أراضيهم . ومما يؤسف له أن الموقف قوبل بالاندفاع الفجائى الفظ من كرومويل ، بدلا من خطة ولزى الإنسانية ، والأسلم ، وتنحصر فى تحويل المزيد من الأديار إلى كليات .

وكانت الوسيلة التى لجأ إليها هنرى هنا ، كما فعل من قبل فى سعيه للحصول على ابنه ، أسوأ من الهدف الذى يلمسه . لم يكن هنا بأس فى وضع نهاية ، إلى حد ما ، لاستغلال ورع ساذج بغش يتظاهر بالورع . وإذا لعرب عن عظيم أسفنا لما حدث للراهبات اللاتى كن فى الغالب الأعم بشقين قياما بالواجب فى إقامة الصلوات والتدريس وأعمال البر ، بل إن المرء الذى لا يستطيع أن يشاركهن إيمانهن الذى لا يتزعزع يجب أن يكون شاكرا لأن لهن مثلات يمددن يد العون مرة أخرى ، بإخلاص يدوم مدى الحياة ، ويلين حاجة المرضى والفقراء .

٢ - الأيرلندى العنيد ١٣٠٠ - ١٥٥٨

برر الملوك الإنجليز سيطرتهم على إيرلندة على أساس أن قوة معادية فى القارة يمكن فى أى لحظة أن تستخدم هذه الجزيرة المحضرة للقيام بهجوم جانبي على إنجلترا ، وأصبح هذا الاعتبار ، بعد حب السلطة ، أشد قوة عندما فشلت إنجلترا البروتستانتية فى كسب إيرلندة إلى صفها من الكنيسة الرومانية . وكان الشعب الأيرلندى ، الذى يعشق البطولة والفوضى والمشهور بالرجولة والعنف ، والموهبة الشاعرية ، والذى يقتدر إلى النضج السياسى ، يقاوم كل يوم خضوعه لدم أجنبي ولغة دخيلة .

وازدادت سيئات الاحتلال الإنجليزي . وعاد كثير من ملاك الأراضي ،
الإنجليو - إيرلنديين إلى إنجلترا في عهد إدوارد الثالث ، ليعيشوا هناك في
يسر على ما تدره إيجارات الأراضي الإيرلندية ، وعلى الرغم من أن المجلس
النيابي الإنجليزي ندد مراراً بهذا العمل فإن « ملكية الأرض الغائبة » ازدادت
خلال ثلاثة قرون ، لتصبح حافظاً أكبر للثورات الأيرلندية . ومال الإنجليز
الذين ظلوا في إيرلندا إلى الزواج من فتيات إيرلنديات ، وامتزجوا تدريجياً
بالدم الإيرلندي ، وألقوا طرق العيس الإيرلندية . وكان المجلس النيابي
الإيرلندي ، الذي يسيطر عليه المقيمون الإنجليز ، ويغلب عليه النفوذ
الإنجليزي ، توافقاً إلى سد هذه البالوعة السلالية فأجاز قانون كلكتي الشهير
(١٣٦٦) الذي منع ، مع بعض النصوص السخية التي لا تخاو من حكمة
الزواج المختلط أو التريبب أو أى علاقات ألفة أخرى بين الإنجليز والإيرلنديين
في إيرلندا وأى حديث بالإيرلندية أو تقليد للعادات الإيرلندية أو ارتداء
الزى الإيرلندي بواسطة الإنجليز ، وإلا تعرضوا للسجن وخسارة الممتلكات .
ولم يكن يحق لإيرلندي آنذاك أن يستقبل في أى منظمة دينية إنجليزية ،
ولا لمنشدين أو قصاصين إيرلنديين أن يدخلوا بيوتاً إنجليزية (٢٤) . وفشل هذا
الحظر فقد تألفت اللورود الإيرلندية ، وفاقط سلطة القانون واستمر الاندماج
السلالى في تلك المناطق الضيقة مارش أو بوردر أو بيل التي لم يجرؤ الإنجليز
على السكنى إلا فيها وحدها (*) .

وكان يمكن إيرلنده إبان حروب الوردتين أن تطرد الإنجليز ، لو أن
الزعماء الإيرلنديين اتحدوا ، ولكنهم آثروا النزاع الأخوى ، وشجعهم
أحياناً على هذا الذهب الإنجليزي . ووطد هنرى السابع من جديد السلطة

(*) كانت منطقة « بيل » في عام ١٥٠٠ مقصورة على كونتيات دبلن وميث واوث
وجزء من كيلدار .

الإنجليزية في منطقة بيل ، ودفع نائبه الإقطاعي سير إدوارد بويننجز في المجلس النيابي الأيرلندي « قانون بويننج » المذل (١٤٩٤) ، ونص على أنه ليس للمجلس النيابي الأيرلندي أن يعقد المستقبل حتى تكون كل مشروعات القوانين المقدمة له قد وافق عليها الملك والمجلس الخاص في إنجلترا .

وأصبحت الحكومة الإنجليزية في إيرلندا ، بعد أن أضعفت إلى هذا الحد ، أشد الحكومات في العالم المسيحي عجزا وجورا وفسادا . وكانت حيلتها الأثيرة هي تعيين واحد من سنين زعيما لإيرلندا كمنسوب لنائب الملك . وتفويضه في شراء أو إخضاع الباقين . وحقق جيرالد إيرل كلدار الثامن ، الذي عين على هذا النحو ، شيئا من التقدم في هذا الاتجاه وخفف من حدة التمرد بين القبائل ، مما ساعد المظالم الإنجليزية على إبقاء إيرلندا ضعيفة وفقيرة . وعند وفاته (١٥١٣) عين ابنه جيرالد فيتزجيرالد ليخلفه كنائب . وكان لهذا الإيرل التاسع لكلدار سير حياة جارية نمطية للوردات الأيرلنديين . واتهم بالتآمر مع إيرل أف دزموند بالسماح لقوة فرنسية بالزول إلى أرض إيرلندا ، فاستدعى إلى إنجلترا وحكم عليه بالسجن في البرج . وأطلق هنري الثامن سراحه ، وعينه من جديد نائبا لدى وعده بمساعدة القضية الإنجليزية بإخلاص . وسرعان ما أتهم بسوء الحكم وأحضر إلى إنجلترا مرة أخرى وأرسل من جديد إلى البرج حيث مات خلال عام (١٥٣٤) ، وأعلن ابنه المخلص « سلكن توماس » (توماس الحريرى) فيتزجيرالد على الفور الحرب على الإنجليز ، وحارب بشجاعة وتهور أربعة عشر شهرا وقهر وشنق (١٥٣٧) .

وفي هذا الوقت كان هنري الثامن قد أكمل إجراءات انفصاله عن الكنيسة الرومانية . وأمر المجلس النيابي بقحة تميزها أن يعترف به رئيساً للكنيسة في إيرلندا ، وكذلك في إنجلترا ، فأذعن ، وطلب من جميع الموظفين

الحكوميين في إيرلندا أن يحلفوا يمينا بقبول سيادته الكنسية ، وفرض أن تدفع كل ضرائب العشور الكنسية مذ ذلك إلى الملك . ودخل المصلحون والدييون إلى الكنائس في منطمة النفوذ الإنجليزي في إيرلندا وحطموا المخلفات والتماثيل الدينية . وأغلقت الأديار جميعاً ما عدا قلة في مكان قصي ، واستولت الحكومة على ممتلكاتها ، وطرد رهبانها على أن يمنحوا معاشاً إذا لم يثيروا ضجيجاً . ووزعت بعض الأسلاب على الزعماء الإيرلنديين وقبل معظمهم ، بعد أن رشوا على هذا النحو ، ألقاب نبلاء من الملك الإنجليزي ، واعترفوا بسيادته الدينية وأنكروا قسمهم للبابا (١٥٣٩) (٢٥) . وألغى نظام العشرة ، وأعلن أن إيرلندا مملكة ، وهنرى ملك لها (١٥٤١) .

كان هنرى منتصراً ولكنه فان ، ومات في خلال خمس سنوات من انتصاره . وبقيت الكاثوليكية في إيرلندا . واعتبر الزعماء موقوفهم حادثاً عابراً في السياسة وظلوا كالكفة (كما فعل هنرى) ، اللهم إلا فيما يختص بتجاهل البابا ، وظل القساوسة الذين أيدهم في خدماتهم الدينية وتقبلوها محافظين تماماً في العقيدة . ولم تتعرض عقيدة الشعب لأي تغيير أو بالحرى اكتسبت حيوية جديدة ، لأنها حافظت على عزة القومية في وجه ملك ينزع إلى الانشقاق ، وفيما بعد أمام ملكة بروتستانتية . وأصبح الكفاح من أجل الحرية أشد مما كان عليه من قبل ، لأنه كان وقتذاك يدور لصالح الجسد والروح .

٣ - ملك من قمة رأسه إلى اخمص قدميه

كان هنرى في عام ١٥٤٠ أعظم ملك يحكم حكماً مطلقاً عرفته إنجلترا . وكان النبلاء النورمنديون القدامى الذين كبحوا جماح وليام الفاتح ، يخضعون صاغرين في جبن ، ونسوا تقريباً العهد الأعظم (الماجنا كارتا) الذي نص

على امتيازاتهم . أما النبلاء الجدد ، الذين أثروا من التجارة وأنعم عليهم الملك ، فقد وقفوا حاجزا أمام الثورات الأرسقراطية أو الدينية . وأذعن له مجلس العموم الذى كان يوما الحامى للغيور للحريات الإنجليزية ، وكان وكلاء الملك وقتذاك قد اختاروه بعناية ، وخول تقريبا سلطات لم يسبق لها مثيل : الحق فى مصادرة الأملاك وتعيين من يشاء خلفا له ، وتجديد العقيدة المحافظة والمهرطقة ، وإرسال رجال للإعدام بعد محاكمة مزيفة ، وإصدار إعلانات لها سلطة القوانين الصادرة من المجلس النيابى « كانت روح الاستقلال الإنجليزية فى عهد هنرى تشتعل خافتة فى قلبها وحب الحرية غدا فاترا (٢٦) » . وقبل الشعب الإنجليزي هذا الحكم المطلق بسبب الخوف من ناحية ؛ ولأنه خيل إليه أنه البديل لحرب ورد أخرى . كان النظام أهم من الحرية .

وأغرت نفس البديلات الإنجليزي بتحمل سيادة هنرى على الشؤون الكنسية ، وعند ما رأى هنرى أن الكاثوليك والبروتستانت على استعداد لأن يمسك كل منهما بخناق الآخر ، ورأى أن المواطنين الكاثوليك والسفراء والحكام يتآمرون ضده إلى حد الغزو تقريبا ، اعتقد أن النظام لا يمكن أن يستتب فى الحياة الدينية فى إنجلترا إلا بتحديد الملك للعقيدة والشعبية ، وقبل ضمنا حالة السلطة فى الدين التى كانت من صنع الكنيسة . وحاول أن يملئ من يجب أن يتلو الكتاب المقدس . وعند ما صادر الأساقفة ترجمة تندال للكتاب المقدس ، أمرهم بإعداد ترجمة أفضل ، وعند ما تواتوا طويلا سمح لكرومويل بتفويض مايلز كوفردال فى إعداد ترجمة جديدة . وظهرت أول نسخة كاملة بالإنجليزية فى زيورخ عام ١٥٣٥ . ونشرت عام ١٥٣٩ طبعات منقحة ، وأمر كرومويل بأن يوضع هذا « الكتاب المقدس العظيم » فى كل كنيسة إنجليزية . ومنح هنرى « بدافع من الكرم والطيبة الملكيين » المواطنين امتياز تلاوة الكتاب المقدس فى بيوتهم ، وسرعان ما أصبح تقليدا

يوميا عند كل أسرة إنجليزية تقريبا . ولكنه كان يذوعا للشقاق والإلھام أيضا ، فقد أنبتت كل قرية مفسرين هواة ، أثبتوا أى شىء أو عكسه بما ورد فى الكتاب المقدس ، وتجادل المتعصبون حوله فى الكنائس ، وتعرضوا لضربات بشأنه فى الحانات (٢٧) . ومنح بعض الرجال الطموحين زوجاتهم أوامر قضائية بالطلاق ، أو احتفظوا بزوجتين فى آن واحد ، بحجة أن هذا عمل سليم أباحه الكتاب المقدس (٢٨) . وأسف الملك لحرية الغلاوة التى منحها للناس ، وعاد إلى مظاهرة الكاثوليك ، وحث المجلس النيابى عام ١٥٤٣ على سن قاعدة بأنه لا يجوز قانونا حيازة الكتاب المقدس إلا للنبلاء والملوك ، ولا يجوز لغير القساوسة الوعظ به أو الجدل فيه علنا (٢٩) .

وكان من الصعب على الناس - وحتى على الملك - أن يعرف ما يدور فى ذهن الملك ؛ واستمر الكنائسكة يرسلون إلى المحرقة أو المقصلة بسبب إنكارهم سيادته فى الشئون الكنسية ، والبروتستانت بسبب جدلهم فى اللاهوت الكاثوليكي ؛ وحلَّت فورست وهو رئيس شعبة المتشددى من الفرنسيسكان الممثلين فى جرينوتش ، رفض أن ينكر ساطة البابا ، على نار وهو مكبل بالأغلال ، وشوى ببطء حتى مات (٣١ مايو سنة ١٥٣٧) (٣٠) .

وقبض على جون لامبرت ؛ وهو بروتستانتى بسبب إنكاره وجود المسيح حقيقة فى القربان المقدس ، وحاكمه هنرى بنفسه ، وحكم عليه هنرى بالموت وأحرق فى سميثفيلد (١٦ نوفمبر سنة ١٥٣٨) ومع تزايد تفوذ سديمن جارندر أسقف ونشستر مال هنرى أكثر وأكثر نحو العقيدة المحافظة . وفى عام ١٥٣٩ أعلن الملك والمجلس النيابى والمجمع الاكايروسى بـ « قانون المواد الستة » موقف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى موضوعات الحضور الحقبى للميح وعزوبة رجال الاكايروس وأقسام رهبان الدير والقداسات من أجل

الموتى ، وضرورة الاعتراف السرى أمام قسيس وكفاية تناول القربان المقدس من ضرب واحد . وكل من ينكر شفائها أو كتابتها ، الحضور الحقيقي للمسيح ، يتعرض للموت حرقاً دون أن تتاح له فرصة لإنكار ما قال أو للاعتراف أو الغفران ، وكل من ينكر أية مادة أخرى يجب أن تصادر أملاكه عند ارتكابه الذنب لأول مرة وتزهق روحه عند ارتكابه له مرة أخرى .

وأعلن أن كل الزيجات التي عقدها القساوسة حتى وقتذاك باطلة ، وأى قسيس يحفظ بزوجه بعد ذلك يعد مرتكباً لجريمة الخيانة العظمى (٣١) . وكان الناس لا يزالون محافظين من حيث العقيدة ، فوافقوا على هذه المواد ، غير أن كروموويل بذل جهده لتحقيقها عند التطبيق ، وفي عام ١٥٤٠ تحول الملك مرة أخرى ، فأمر بوقف المطاردة بموجب هذا القانون . . . ومع ذلك فإن الأسقفين لا تيمر وشاكستون ، اللذين لم يوافقا على مواد القانون ، عزلا وسجنا . وفي يوم ٣٠ يوليو سنة ١٥٤٠ تعرض ثلاثة من البروتستانت وثلاثة من الكاثوليك للموت في سميثفيلد في وفاق تم رغم إرادتهم ، أما البروتستانت فلأنهم حاولوا التشكيك في بعض العقائد الكاثوليكية ، وأما الكاثوليك فلأنهم رفضوا الاعتراف بسيادة الملك على الشئون الكنسية (٣٢) . وكان هنرى قوياً شديداً في الحكم وفي اللاهوت ، وعلى الرغم من أنه احتفظ بمحاشية كثيرة العدد ، وقضى وقتاً طويلاً في التهام الطعام ، فإنه تعب كثيراً في الاضطلاع بأعباء الحكم . واختار أعواناً مهرة جائزين مثله . وأعاد تنظيم الجيش ، وجهزه بأسلحة جديدة ، ودرس آخر ما توصل إليه الخبراء في التكتيك والاستراتيجية . وبنى أول أسطول بحرى ملكى دائم طهر السواحل والقناة من القراصنة ، وأعد العدة للانتصارات البحرية التي تمت في عهد اليزابث ، ولكنه فرض على شعبه مكوساً إلى الحد الذى

يحتمله ، وخفض قيمة العملة مراراً ، وصادر الأملاك الخاصة بحجج واهية ، أو طلب « اشتراكات » ، وأنكر ديونه ، واقترض من آل نوجر ، وروج الاقتصاد الإنجليزي مؤملاً أن يعود عليه بدخل إضافي .

وكانت الزراعة في تدهور ، وكان رق الأرض لا يزال منتشرآ . ولم ينقطع تسوير الأراضي لترعى فيها الأغنام وضاعف ملاك الأراضي الجدد ، الذين لم تصدهم تقاليد الإقطاع ، إيجارات الأراضي مرتين أو أربع مرات على مستأجرهم ، بحجة ارتفاع الأسعار ، ورفضوا تجديد عقود الإيجار المنتهية « وشق آلاف من المستأجرين الذين جردوا من أراضيهم المستأجرة طريقهم إلى لندن وطرقوا بشدة أبواب المحاكم لرفع الظلم ، وهو أمر لم يستطيعوا الحصول عليه(٣٣) » .

ورسم مور الكاثوليكي صورة مؤثرة للفلاحين المتسولين(٣٤) ، وندد لاتيغر البروتستانتي بـ « اللوردات الحديثي النعمة الذين يرفعون الإيجارات » ، ورأى مثل لوثر ماضياً منالياً كاثوليكياً عندما كانت أفئدة الرجال مفعمة بالشفقة والحنان(٣٥) . « وفرض المجلس النيابي عقوبات صارمة على الضرب في الآفاق والتسول . وكان قانون ١٥٣٠ - ٣١ يفرض على كل من يتسول ، ويكون قادراً جسمانياً على العمل ، سواء كان رجلاً أو امرأة ، أن يشد وثاقه إلى عربة وهو عار ويجلد بالسياط في سائر أنحاء المدينة إلى أن يتلطح جسده بالدم » . وإذا عاد لارتكاب الذنب مرة أخرى تقطع أذنه ، وإذا ارتكب مرة ثالثة تقطع أذنه الأخرى ، ومهما يكن من أمر فإن ارتكاب الذنب للمرة الثالثة كان يعرض المتسول للإعدام(٣٦) . ووجد الفلاحون المبعدون تدريجياً عملاً في المدن وخففت الإغاثة المقررة للفقراء من وقع الخصاصة . وارتفعت لإنتاجية الأرض في آخر الأمر بالزراعة على نطاق واسع بيد أن عجز الحكومة عن تخفيف التحول كان بمثابة فشل لإجرامى تقاس للحنكة السياسية .

وأصبغت الحكومة نفسها الحماية على الصناعة بالتعريفات الجمركية : وأفاد أصحاب المصانع من رخص أجر العمل ، الذى تيسر بهجرة الفلاحين للمدن ، وأعدت الطرق الرأسمالية تنظيم صناعة النسيج ، ورفعت طبقة جديدة من الأثرياء ، لتقف إلى جانب التجار فى مساندة الملك . وحل القماش محل الصوف باعتباره أهم صادرات إنجلترا . وكانت معظم الصادرات من الضروريات التى تنتجها الطبقة الدنيا ، وكانت معظم الواردات من سلع الترف التى لا يحصل عليها إلا الأغنياء (٣٧) .

وأفادت التجارة والصناعة من قانون صدر عام ١٥٣٦ يغير أسعار الفائدة بواقع ١٠ فى المائة . وكان ارتفاع الأثمان السريع فى صالح المشروع وبمثابة عقاب حكم به على العمال والفلاحين والوردات الإقطاعيين من النمط القديم . وارتفعت الإيجارات إلى ١٠٠٠ فى المائة بين عامى ١٥٠٠ و ١٥٧٦ (٣٨) . وارتفعت أسعار الطعام من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ فى المائة ، وارتفعت الأجور بمقدار ١٥٠ فى المائة (٣٩) . وكتب توماس ستار فى حوالى عام ١٥٣٧ : « أن الفقر يسود الآن إلى حد يقف فيه أمام أى خير حقيقى ومزدهر للجماعة (٤٠) » .

ووجد أعضاء الطوائف الحرفية شيئاً من الفرج فى التأمين والمساعدة المتبادلة ، زودهم بما يسد رمقتهم ، أمام الفقر والنار ، غير أن هنرى صادر عام ١٥٤٥ أملاك الطوائف الحرفية (٤١) .

٤ - التنين بتمقعد

أى ضرب من الرجال كان هذا الملك الغول ؟ لقد رسم هولبين الصغير ، الذى جاء إلى إنجلترا حوالى عام ١٥٣٦ ، صوراً شخصية لهنرى وجين سيمور . فالكساء الفاخر يكاد يخفى بدانة الملك ، والأحجار الكريمة

وفرو الناقم ، واليد التي تقبض على سيف محلي بالجوهر ، تكشف عن استعلاء السلطة وزهو رجل لم يجد من يقاومه ، والوجه العريض المكتنز ينم على ميل شديد للذات الحسية ، والأنف دعامة قوة ، والشفتان المضمومتان والعينان القاسيتان تنم على طاغية مستبد سريع الغضب بارد إلى حد القسوة . وكان هنرى وقتذاك فى السادسة والأربعين ، فى أوج مجده السياسى ، ولكن بدأ الضعف يدب فى جسده . وقدر له أن يتزوج ثلاثا مرة أخرى ، ومع ذلك لم يرزق بعدها ببنوية . ولم ينجب من زوجاته الست سوى ثلاثة أطفال ، عاشوا إلى ما بعد سن الطفولة . وأحد هؤلاء الثلاثة ، وهو إدوارد السادس ، كان معتل الصحة ، ومات فى الخامسة عشرة من عمره ، وظلت مارى عاقراً بائسة عندما تزوجت ، أما الزباث فلإنها لم تجرؤ قط على الزواج ، وربما كان ذلك لشعورها بوجود عائق جسمانى . وأصابت لعنة شبه العقم أو العيب الجسمانى أعظم الأسر الحاكمة اعترازاً بنفسها فى التاريخ الإنجليزى .

وكان هنرى حاد الذهن وحكمه على الرجال يدل على الفراهة ، وشجاعته عظيمة ، وقوة إرادته هائلة . وكان سلوكه فظا ، ووساوسا تبددت مع شبابه . ومهما يكن من أمر فإنه ظل مع أصدقائه شفوفاً كريماً ، ولطيفاً بشوشاً ، قادراً على كسب ودهم وإخلاصهم . وقد ولد ليكون ملكاً ، وأحيط منذ ولادته بالخضوع والملق ، ولم يجرؤ على معارضته إلا تليلون ، وقد دفنوا بعد أن قطعت رؤوسهم . وكتب مور من سجن البرج : « مما يؤسف له كثيراً ولا شك أن نرى أى أمير مسيحي على استعداد لأن يلبى رغباته بوساطة مجلس يركع أمامه ، وبوساطة رجال دين ضعاف . . . والملق ، فاشتط فى ظلم الناس بصورة منجولة (٤٢) ، كان هذا هو المصدر الخارجى لنكوص هنرى على هقبيه فى الخلق - فقد أدى عدم وجود مقاومة

لإرادته ، بعد وفاة مور ، إلى أن يصبح خائراً معنوياً وبدنياً . ولم يكن أكثر تهاوناً في المجلس من فرانسيس الأول ويبدو أنه بعد حادث آن بولين قد أصبح أشد تمسكاً للزواج بواحدة ، على التوالي ، من شارل الخامس . ولم يكن الانحلال الجنسي أسوأ نقيصة فيه . وكان نهمه للمال لا يقل عن نهمه للسلطة ، وقلما سمح لاعتبارات الإنسانية أن تقف في وجه استيلائه على الأموال ؛ وليس من شك في أن استعداده المقسم بالبحرود لقتل النساء اللاتي أحبن أو الرجال ، أمثال مور وكرومويل ، اللذين خدموه بإخلاص سنوات طوال ، أمر خسيس ، ومع ذلك يمكن القول أنه لم يسفك من الدماء عشر ما سفكه شارل التاسع حسن النية ، عندما أجاز مذبحه سانت بارتولوميو ، أو شارل الخامس عندما صفح عن نهب روما ، أو الأمراء الألمان عندما حاربوا ثلاثين عاماً للحصول على حقهم في تحديد المعتقدات الدينية لرعاياهم .

والأصل الداخلي لفساده هو ما تعرضت له إرادته من إحباط متكرر في الحب والأبوة . فقد خاب أمله طويلاً في الحصول على ابن ، وصد بطريقة خادعة في طلبه المعقول إعلان بطلان زواجه الأول ، وخدعته (كما اعتقد) الزوجة التي خاطر من أجلها بعرشه ، وفقد سريعاً الزوجة الوحيدة التي أنجبت له وريثاً ، وخدعته في الزواج امرأة أجنبية تختلف عنه تماماً في اللغة والمزاج ، وخائنه (كما ظن) زوجة خيل إليه أنها ستحقق له آخر الأمر بيتاً تخيم عليه السعادة - ها هو ملك كان يملك إنجلترا بأسرها ، ولكنه حرم من المباهج العائلية التي يستمتع بها أبسط زوج في مملكته ، وكان يعاني من ألم متقطع بسبب قرحة في ساقه ، وكافح الثورات والأزمات في سائر مدة حكمه ، واضطر في كل لحظة تقريباً أن يتسلح لصد الغزو والخيانة والاختيال - فكيف كان في وسع رجل مثل هذا أن ينمو ويصبح سوياً ، أو يتحاشى الفساد والتورط في الشك والدهاء

والقسوة ؟ وكيف يتأتى لنا ، نحن الذين نعضب من وخز محنة نتعرض لها ، أن نفهم رجلا جمع في عقله وفي شخصه عاصفة الإصلاح الدينى الإنجائى وثقله ، وحرَم شعبه بخطوات محفوفة بالمخاطر من ولاء جذوره عميقة ، ومع ذلك لا بد أنه كان حرياً بأن يشعر في روحه المنقسمة بدهشة مفتتة - أحرر أمة أو مزق شمل المسيحية ؟

كان الوسط الذى عاش فيه هو الخطر وكذلك السلطة . ولم يكن في وسعه قط أن يعرف المدى الذى يصل إليه أعداؤه ، أو متى ينجحون . وفي عام ١٥٣٨ أمر بالقبض على سير جيوفرى بول شقيق ريجينالد . وخشى جيوفرى أن يتعرض للتعذيب ، فاعترف بأنه هو وشقيق آخر يدعى لورد مونتاجو ، وسير إدوار فيفيل والمركيز والمركيزة أف إكستر كانوا يتبادون رسائل تنطوى على خيانة الدولة مع الكاردينال . وظفر جيوفرى بالصفح أما إكستر ومونتاجو وآخرون عديدون فقد شنقوا وشطروا إلى أربعة أقسام (١٥٣٨ - ٣٩) ، وأما ليدى إكستر فقد سجن ، ووضعت الكونتيسة أف سالزبورى ، والدة بول وإخوته الأشقاء تحت الحراسة . وعندما زار الكاردينال شارل الخامس في طليطلة (١٥٣٩) يحمل له طلبا لا طائل تحته . من بول الثالث يرجو فيه من الإمبراطور أن ينضم إلى فرانسيس في تحريم التجارة مع إنجلترا^(٤٣) ، انتقم هنرى بالقبض على الكونتيسة ، التى كانت وقتذاك في السبعين من عمرها ، ولعله كان يأمل بالاحتفاظ بها في البرج ، أن يكبح جماح الكاردينال للغزو . كان كل شيء عادلا في لعبة الحياة والموت :

وبعد أن ظل هنرى عامين دون أن يتزوج أمر كرومويل أن يبحث له عن حليف بالمصاهرة يقوى سلطانه ضد شارل . فنصح كرومويل بالزواج من أن أخت زوجة الأمير المختار لسكسونيا ، وشقيقة الدوق أف كليفنس الذى كان وقتذاك على خلاف مع الإمبراطور . وآلى كرومويل على نفسه

أن يتم هذا الزواج الذى كان يعلق عليه آمالا بتكوين حلف من الولايات البروتستانتية آخر الأمر ، وهذا يجبر هنرى على إلغاء المواد الست المناهضة للوثر . وأرسل هنرى المصور هولبين لرسم صورة للسيدة ، ولعل كرومويل أضاف بعض التعديلات للفنان ، وجاءت الصورة ، ورأى هنرى أنها محتملة ، فهى تبدو حزينة ، لا تشجع فى الصورة التى رسمها هولبين ، والمعلقة فى متحف اللوفر ، ولكن تقاطيعها ليست أقل وضوحاً من جين سيمور التى رقت لحظة من قلب الملك .

وعندما جاءت آن بشحمها ولحمها ، ووقعت أنظار هنرى عليها (أول يناير سنة ١٥٤٠) مات الحب لدى أول نظرة . وأنغمض عينيه وتزوجها ، وتضرع مرة أخرى أن يرزقه الله بابن يوطد به وراثته العرش فى آل تيودور ، إذ كان مظهر الأمير إدوارد وقتذاك يدل على ضعفه الجسدى . ولكنه لم يصفح قط عن كرومويل .

وأمر بالقبض على وزيره الذى أفاده أكثر من أى وزير آخر بعد أربعة شهور زاعماً غلظه وفساده . ولم يكن يعترض ، فقد كان كرومويل تابعاً يحظى بأكبر نصيب من الكراهية فى إنجلترا - بسبب أصابه ووسائله وخسته وثروته . وطلب فى سجن البرج أن يوقع بيانات يعارض فيها صحة الزواج . وأعلن هنرى أنه لم يكن قد قدم « رضاه الباطنى » عن الزواج ، وأنه لم يدخل بزوجه قط . واعترفت آن بأنها لا تزال عذراء ووافقت على بطلان الزواج ، مقابل معاش يوفر لها سبيل الراحة . وكرهت أن تواجه أخاها ، فاختارت أن تعيش وحيدة فى إنجلترا ، وكان لها عزاء صغير فى أنها دفنت فى مقابر دير وستمنستر عند وفاتها (١٥٥٧) . وقطعت رأس كرومويل يوم ٢٨ يوليو سنة ١٥٤٠ هـ

وفى اليوم نفسه تزوج هنرى من كاثرين هوارد ، البالغة من العمر

عشرين عاماً ، وهى من أسرة كاثوليكية لا تحيد عن عقيدتها قيد أنملة ، وكان هذا كسباً للحزب الكاثوليكي . وكف الملك عن أن يتقرب من البروتستانت بالقارة ، وعقد صلحاً مع الإمبراطور . وعندما شعر بأنه أصبح أخيراً آمناً فى ذلك الحمى تحول بفكره شمالاً معلقاً الآمال على ضم لسكوتلنده ، وبذلك يكمل دائرة الحدود الجغرافية لبريطانيا ويضمن لها الأمن . وصرفته عن هذا ثورة أخرى فى شمالى إنجلترا . وقبل أن يرحل لقمعها وإخماد مؤامرة دبرت وراء ظهره ، أمر بإعدام جميع المسجونين السياسيين فى البرج ومنهم الكونتيسة أف سالزبورى (١٥٤١) . وانهارت الثورة وعاد هنرى إلى هامبتون كورت يتخبط فى الهموم ، لينشد السلاوى عند ملكته الجديدة .

وكانت كاترين الثانية أجمل زوجاته ، وتعلم الملك كيف يجها تقريباً ، وهو يعتمد أكثر من قبل على الخدمات الجليلة بزوجة ، وحمد الله على الحياة الطيبة التى كان يعيشها ، والتى راوده الأمل فى أن يحققها تحت إشرافها ، ولكن فى اليوم الذى ردد فيه تسبيحة الشكر هذه (٢ نوفمبر سنة ١٥٤١) سلمه رئيس الأساقفة كرايمر وثائق تدل على أن كاترين كانت لها علاقات سابقة للزواج مع ثلاثة خاطبين متعاقبين : واعترف اثنان من هؤلاء وكذلك اعترفت الممكلة . وقال السفير الفرنسى فى تقرير له : أن هنرى تملكه حزن شديد ، حتى ساد الاعتقاد بأنه جن^(٤٤) . وأمضه الخوف من أن تكون لعنة الله قد حلت بكل زيجاته . وكان يميل إلى الصفح عن كاترين ، ولكن قدم إليه دليل على أنها اقترفت الزنا مع ابن عمها بعد زواجها بالملك . وأقرت بأنها استقبلت ابن عمها فى جناحها الخاص فى ساعة متأخرة بالليل ، ولكن حدث هذا فى حضور اليدى روشفورد ، وأنكرت أنها ارتكبت أى ذنب وقتها ، أو فى أى وقت منذ زواجها ، وشهدت ليدى روشفورد بصحة هذه البيانات بقدرما وصل إلى علمها^(٤٥) . بيد أن المحكمة

الملكية أعلنت أن الملكة مذنبة . وفي يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٥٤٢ قطع رأسها في نفس البقعة التي سقط فيها رأس آن بولين قبل ذلك بست سنوات ، أما عشاقها فقد حكم عليهم بالسجن مدى الحياة .

وكان الملك وقتذاك رجلاً محظماً . وأعيت قرحته طب عصره ، وكان الزهرى للذي لم يشف منه تماماً ينتشر ويعيث فساداً في هيكله^(٦). وبعد أن فقد لذة الحياة سمح لنفسه بان يصبح كتلة ضخمة من اللحم ، وكان خداه مهتلين ويكادان يغطيان فكليه ، وكادت عيناه الضيقتان أن تختفيا في تلافيف وجهه . ولم يكن في وسعه أن يسير من غرفة إلى أخرى دون أن يستند إلى أحد . وأدرك أنه لن يعيش إلا بضع سنوات فأصدر (١٥٤٣) مرسوماً جديداً يحدد فيه وراثه عرشه : يتولاه أولاً إدوارد ثم ماري ثم اليزابث ، ولم يذهب إلى أبعد من ذلك ، لأن من تليهم في سلسلة النسب هي ماري ستيوارت ملكة اسكتلنده . وقام بمحاولة لكي ينجب ولداً صحيحاً معافى ، بعد أن حثه مجاسه مراراً فبنى بزوجة سادسة (١٢ يوليو سنة ١٥٤٣) . وكانت كاترين بار قد عاشت بعد وفاة زوجين سابقين ، ومع ذلك فإن الملك لم يعد يصر على الزواج من عنذاري . وكانت امرأة على حظ من الثقافة والفطنة ، فقامت برعاية مريضها الملك في صبر ، وصالحته مع ابنته اليزابث ، التي طال إهماله لها ، وحاولت أن تلطف لاهوته ، وتخف حماسه للاضطهاد .

ولم تنقطع المشاعر اللاهوتية حتى نهاية حكمه ، فأحرق ستة وعشرون شخصاً بتهمة الهرطقة في الثماني السنوات الأخيرة من عهده . وفي عام ١٥٤٣ أبلغ الجواسيس الأسقف جاردنر أن هنري فيلمر قال : « إذا كان الرب موجوداً حقاً (في القربان المقدس) فإنني أكون قد أكلت في حياتي عشرين ربا ، وأن روبرت تستوود حذر القسيس عند رفع القربان المقدس ، من أن يترك الرب يسقط ، وأن أنتوني بيرسون وصف كل

قسيس يعظ الناس بأى شيء سوى « كلمة الله » - أى الكتاب المقدس -
يكون لصاً . وأحرق كل هؤلاء الرجال تنفيذاً لأوامر أصدرها الأسقف
الإنجليكاني ، فى مرج أمام القصر الملكى فى وندسور . وانزعج الملك لأنه
وجد أن الدليل الذى قدمه شاهد فى هذه القضايا كان قسماً زوراً ، وأرسل
الجانى الأثيم إلى سجن البرج (٤٧) . وفى عام ١٥٤٦ أدان جاردنر أربعة
آخرين ، وأرسلهم إلى المحرقة لإنكارهم وجود المسيح حقاً فى القربان
المقدس : وكانت لإحداهم امرأة شابة تدعى آن اسكيو تشبثت بهرطقتها طوال
خمس ساعات من الاستجواب وقالت فى محاكمتها : « إن ما تسمونه ربكم
قطعة من الخبز ، والدليل على ذلك أنكم لو تركتموها فى صندوق لمدة ثلاثة
شهور لتعفنت » . وعذبت حتى أشرفت على الموت لكى تكشف عن أسماء
هراطقة آخرين ، وظلت صامتة لم تنبس ببيت شفة ، وهى تتوجع ،
وسارت إلى حتفها وهى تقول : « إننى سعيدة كواحدة كتب عنها أن
تتجه للسما (٤٨) » : ولم يكن للملك دور فعال فى هذه المطاردات غير أن
الضحايا استغاثوا به دون جدوى .

واشتبك عام ١٥٤٣ فى حرب مع اسكتلنده و « وأخيه المحبوب »
فرانسيس الأول ، ومرعان ما وجد نفسه متحالفاً مع عدوه القديم شارل
الخامس ، ولكى يمول حملاته طالب رعاياه بتقديم « قروض » جديدة ،
وامتنع عن سداد قروض عام ١٥٤٢ وصادر الهبات للجامعات (٤٩) . وحمل إلى
ميدان القتال ليشارك فيها شخصياً وأشرف على حصار بولونيا والاستيلاء
عليها . وغزت جيوشه اسكتلنده ، وهدمت أديار ملروز ودرابورج
وخسة أديار أخرى ، ولكنها هزمت هزيمة منكرة فى أنكرم مور (١٥٤٥) ،
وأبرم اتفاق فيه فائدة مع فرنسا (١٥٤٦) ، واستطاع الملك أن يموت
فى سلام .

وكان وقتذاك ضعيفاً واهناً إلى حد أن الأسر النبيلة أخذت تتنازع

فما بينها على من تكون له الوصاية على إدوارد الصغير . وكان إيرل أف سورى ، وهو شاعر ، واثقا أن أباه الدوق أف يورك سوف يكون وصيا إلى حد أنه اتخذ درعا وضع عليه شارة لا تصلح إلا لولى العهد، وقبض هنرى عليهما معا فاعترفا بأنهما مذنبان وقطع رأس الشاعر فى التاسع من يناير عام ١٥٤٧ ، أما الدوق فقد سجل فى قائمة انتظار الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام بعد السابع والعشرين فورا .

ولكن الملك مات فى اليوم الثامن والعشرين . وكان فى الخامسة والخمسين من عمره ، ولكنه عاش عمره عشرات المرات . وترك مبلغا كبيرا . يدفع لإقامة قداسات لكى ترقد روحه فى اطمئنان .

وقد دام عهده سبعة وثلاثين عاما ، حول إنجلترا إلى بلاد أخرى أعمق مما كان يتصور أو يشتمى : وفكر فى أن يخلف البابا ، ويترك العقيدة القديمة التى عودت الناس على القيود الأخلاقية والخضوع للقانون دون أن يمسخا بتغيير ، ولكن تحديه للبابوية الذى صادفه التوفيق ، وتشثيته السريع للرهبان والخلفات ، وإذلاله المتكرر لرجال الإكليروس ، ونزعه للملكية الكنيسة وإسباغ الصفة العلمانية على الحكومة ، كل ذلك أضعف الهيبة الكنسية والسلطة الدينية إلى حد كبير ، مما أدى إلى حدوث التغييرات اللاهوتية التى أعقبت ذلك فى عهدى إدوارد واليزابث . كان الإصلاح الدينى الإنجليزى أقل اعتمادا على العقيدة من الإصلاح الدينى الألمانى ، ولكنهما أثمرا نفس النتيجة البارزة - وهى انتصار الدولة على الكنيسة . ونجا الشعب من براثن بابا معصوم ليقع فى أحضان ملك مستبد .

ولم يغم شيئا من الناحية المادية فقد دفع ضرائب العشور كما دفع من قبل ، غير أن صافى الفائض عاد إلى الحكومة . وكان كثير من الفلاحين يزرعون وقتذاك أراضيهم المستأجرة « للورداتهم المحدثين » ، وكانوا

أشد قسوة من الرهبان الذين اتخذ منهم كارلايل مثالا في كتابه :
« الماضي والحاضر » .

ومن رأى وليام كوبرت أن « الإصلاح الدينى الإنجليزى » كان فى الحقيقة من وجهه الاجتماعى ، ثورة قام بها الأغنياء ضد الفقراء (٥٠) ، وتشير سجلات الأسعار والأجور إلى أن العمال الزراعيين وعمال المدن كانوا أحسن حالا عند ما ارتقى هنرى العرش منهم عند وفاته (٥١) .

وكانت المظاهر الأخلاقية لهذا العهد سيئة . فقد ضرب الملك للأمة مثلا يدل على فساد خلقه بانغماسه فى علاقات جنسية وبناتقاله الفظ فى خلال بضعة أيام من مصرع زوجة إلى فراش الزوجة للتالية وبقسوته الهادئة وعدم أمانته المالية وجشعه المادى . وأشاعت الطبقات العليا الفوضى فى البلاط والحكومة بما دبرته من مؤامرات فاسدة . وتبارى الأعيان مع هنرى فى الاستحواذ على ثروة الكنيسة ، وابتز رجال الصناعة عمالهم وابتزهم الملك : ولم تكمل الصورة باضمحلل البر لأنه بقى هناك الخضوع الحقير للحاكم مطلق أنانى من شعب يرتجف لهعا . ولم ينقذ الموقف سوى شجاعة الشهداء البروتستانت والكاثوليك وأشرفهم فيشر ومور قد اضطهدا فى دورهما .

وإذا تأملنا بمنظور واسع هذه السنوات المريرة نجد أنها كانت تحمل بعض الثمار الطيبة . ولم يكن هناك بد من الإصلاح الدينى . ولا بد أن نذكر أنفسنا مرارا وتكرارا بهذا ونحن نسجل شيطنة القرن الذى ولد فيه ، كان الانفصام عن الماضى عنيفا ومؤلما ولم يكن فى الإمكان زعزعة قبضته على أذهان الناس إلا بتوجيه ضربة وحشية . وعندما أزيل الكابوس أصبحت روح القومية ، التى سمحت فى أول الأمر بالاستبداد ، حماسة شعبية وقوة خلاقة . وأدى تخلص الشئون الإنجليزية من للهابوية إلى ترك الناس تحت رحمة الدولة حينما من الزمن ، ولكنه أجبرهم فى المدى الطويل على الاعتماد

على أنفسهم في كبح جماح حكامهم والمطالبة ، عقدا وراء عقد ، بقدر من الحرية يكافئ ذكاهم . ولن تكون الحكومة قوية دائما كما كانت في عهد هنرى الرهيب ، بل سوف تكون ضعيفة في عهد ابن عليل وابنة تطوى جوانحها على مرارة شديدة ، ثم تنهض الأمة بعد أن تتفجر طاقتها المنطلقة من عقابها في عهد ملكة مندبذة ، ولكنها ظافرة ، وترفع نفسها إلى مرتبة زعامة الفكر الأوروبي . ولولم تكن إنجلترا قد تحررت على يد أسوأ وأقوى ملوكها فربما كان قدر للعالم أن لا يرى اليزابث وشكسبير .

الفصل السادس والعشرون

إدوارد السادس ومارى تيودور

١٥٤٧ - ١٥٥٨

١ - حماية سومرست

لقد رسم هولبين صورة تعد من أعظم صورهِ على الإطلاق جاذبية للصبي البالغ من العمر عشر سنوات ، والذي ارتقى عرش إنجلترا باسم إدوارد السادس ، وذلك قبل ارتقائه العرش بأربع سنوات : قلنسوة مزينة بالريش ، وشعراً أحمر ، ورداء له بنيقة من فرو للقاقم ، ووجهاً فيه من الدعة والرقة التي تنم على قلق دفين ، ما يدفعنا إلى الظن بأنه ورث كل هذه الصفات من جين سيمور ولم يرث شيئاً من هنرى الثامن . ولعله ورث عنها ضعفها الجسماني الذي جعلها تدفع حياتها فداء له ، ولم يوفق يوماً في الحصول على القوة التي تعينه على الحكم . ومع ذلك فإنه قام بالتبعات الملقاة على عاتقه باعتباره أميراً أو ملكاً بإخلاص نبيل ، فدرس اللغات والجغرافية وفن تدبير الحكم والحرب بشغف ، وفرض رقابة دقيقة على كل شئون الدولة التي تصل إليها معرفته ، وأبدى للجميع ما عدا الكاثالكة المنشقين شفقة عظيمة وحسن نية كبيرة ، إلى حد أن إنجلترا ظنت أنها دفنت غولاً لتتوج قديساً . وتعلم على يد كرانمر فأصبح بروتستانتياً متحمساً ، ولم يكن من أنصار توقيع أى عقوبة قاسية على من يتهم بالهرطقة ، ولكنه كره أن يترك أخته غير المتبقية ماري تحضر القداس ، لأنه كان يؤمن بإخلاص أن القداس أشد ضرراً بعبادة الأوثان ككفراً . وقبل مسروراً القرار الذي اتخذته المجلس

الملكى باختيار عمه إدوارد سيمور - الذى أنعم عليه حالا بلقب دوق أف سومرست - وصيا عليه ، وقد آثر انتهاج سياسة بروتستانتية .

كان سومرست رجلا على حظ من الذكاء والشجاعة ، ويتصف بتياسك ، يشوبه بعض النقص ، وإن كان فى عصره من السجايا البارزة ، وكان وسيا رقيق الحاشية كريما ، وأخجل بسيرته الطبقة الأرسقراطية الجبانة التى كانت لا تنشء إلا مصلحتها ، وتغفر له كل شىء إلا تعاطفه مع الفقراء . وعلى الرغم من أنه كان يتمتع بسلطة مطلقة تقريبا ، فإنه قضى على الحكم المطلق الذى أقامه هنرى السابع وهنرى الثامن ، وسمح للناس بحرية أكبر فى التعبير بالكلام ، وخفض عدد الأفعال التى كانت تعد فيما سبق من قبيل خيانة الدولة أو الخيانة العظمى ، واقتضى وجود دليل أقوى للحكم بثبوت الجريمة ، وأعاد إلى أرامل المحكوم عليهم صدقهن ، وأغنى القوانين الجائرة الخاصة بالدين والتى صدرت فى العهد السابق . وظل الملك رئيسا للكنيسة الإنجليزية . وكان الحديث فى غير خشوع عن القربان المقدس جريمة تستحق العقاب ، بيد أن القانون نفسه أمر بأن يقدم القربان المقدس بالصورتين المعروفتين ، ونص على أن الإنجليزية هى لغة الصلاة ، ورفض المطهر والقداسات للموتى . وعاد البروتستانت الإنجليز الذين كانوا قد فروا من إنجلترا ومعهم لقاح لوثر وزوينجلى وكالفن ، وعندما اشتم مصاحون أجانب غير الحرية الجديدة ، جاءوا معهم إلى الجزيرة المضطربة بأنجيل متعددة .

وأقبل بيتر مارتير فيرجلى ومارتن بوسر من ستراسبورج ، وجاء برنادينو أوكينو من أجسبورج ، وجان لاسكى من إمدن . وعبر المذكرون للتعميد والقائلون بوحدة الكنيسة القناة للتبشير فى إنجلترا بهرطقات أفزعت البروتستانت بقدر ما أفزعت الكاثوليك . وأزالت الجماهير محطمة الأصنام فى لندن الصلبان والنصور والتماثيل من الكنائس ، ووعظ نيكولاس ريدلى ، عميد كلية إمبروك ، بجامعة كامبردج بعنف ضد الصور الدينية والماء المقدس ،

ولكى يتفوق عليهم جميعاً رئيس الأساقفة كرانمر « أكل اللحم علنا في الصوم الكبير ، وهو أمر لم يشهده أحد قط من قبل منذ أصبحت إنجلترا بلدا مسيحياً^(١) » . ورأى المجلس الملكي أن هذا قد تجاوز الحد ، ولكن . ومرست تغلب عليه ، وأطلقت الحرية للإصلاح الديني ، وأصدر المجلس النيابي (١٥٤٧) برئاسته أمراً بنزع كل صورة على جدار كنيسة أو نافذتها تشيد بذكر نبي أو حوارى أو قديس « حتى لا تبقى هناك أى ذكرى له نفسه » . وحطم معظم الزجاج الملون في الكنائس وسحقت أغلب التماثيل ، واستبدل بالصلبان شعارات ملكية ، واتخذت الجدران المبيضة بالكلس والنوافذ ذات الزجاج الأبيض لونها من ديانة إنجلترا .

وكان في كل محلة كفاح مرير من أجل فضة الكنيسة وذهبها ، واستولت الحكومة عام ١٥٥٦ على ماتبقى . وبقيت تقريبا كاتدرائيات القرون للوسطى الفخمة .

وكان الأسقف كرانمر هو الذى تزعم حركة القيام بهذه التغيرات ، وكان خصماها الكبيران آدموند بونر ، أسقف لندن ، وستيفن جاردنر ، أسقف ونشستر ، وقد أمر كرانمر بإرسالها إلى سجن فليت^(٢) . وفى غضون ذلك كان الأسقف يقوم منذ سنوات بمحاولة ليقدم فى كتاب واحد بديلا لكتاب القداس وكتاب الصلوات عند الكنيسة المغاوبة على أمرها . وساعده بيتر مارتير وعلماء آخرون ، بيد أن هذا الكتاب الأول للصلوة العامة (١٥٤٦) كان أصلا ثمرة جهد شخصى لكرانمر ، امتزجت فيه الحماسة للعقيدة الجديدة بإحساس رقيق لجمال رزين فى الشعور واللفظ بل أن ترجماته من اللاتينية فيها سحر عبقريته .

(١) سجن فى لندن أطلق عليه هذا الاسم بسبب قربه من نهر فليت ، وهو مصب (مغطى الآن) لنهر التيمس .

ولم يكن الكتاب ثوريا تماما فقد أخذ ينتهج بعض السوابق اللوثرية مثل رفض سمعة التضحية في القداس ، ولكنه لم ينكر أو يؤكد التجسيد ، واحتفظ بالكثير من الشعيرة الكاثوليكية ، وكان يمكن قس من أنصار الكنيسة الرومانية لا يدقق كثيراً أن يقبلها . ولم يقدمه كرانمر إلى المجمع الاكليروسى بل قدمه إلى المجلس النيابى ، ولم تكن هذه الهيئة العلمانية تطوى بين جوانحها أى تبيكت مصدره سلطة قضائية فى النص على شعيرة أو عقيدة دينية . وأصبح الكتاب قانونا للمملكة ، وصدرت الأوامر لكل كنيسة فى إنجلترا بالعمل به . وأعيد سجن بوئروجرادنر ، وكانا قد أطلق سراحهما فى عفو عام ١٥٤٩ ، وذلك عندما رفضا الاعتراف بحق المجلس النيابى فى سن تشريع فى مجال الدين . وسمح للأميرة مارى بحضور قداس فى خلوة بجانبها .

ونشأ موقف دولى خطير أدى إلى تهدئة الجدل العنيف بين الكاثالكة والبروتستانت إلى حين . وطلب هنرى الثانى ملك فرنسا الجلاء عن بولونيا ، وعندما رفض طلبه أعد لحصارها ، والحق إن مارى ستیورات ، ملكة الاسكتلنديين ، وكانت وقتذاك فى الخامسة من عمرها وتقيم فى فرنسا ، كانت حريية بأن تدخل اسكتلندة فى الحرب ، وعندما علم سومرست أن الاسكتلنديين يتسلحون ويهيرون فتنة فى إيرلندة قاد قوة عبر بها الحدود وهزمهم فى بنكى كليو (١٠ سبتمبر سنة ١٥٤٧) ، وكانت الشروط التى عرضها على الاسكتلنديين سخية وتدل على بعد النظر : لن يتعرض الاسكتلنديون إلى التفريط فى حريتهم أو مصادرة أملاكهم ، وتتحد اسكتلندة وإنجلترا فى « إمبراطورية بريطانيا العظمى » . ولكل أمة أن يكون لها حكم ذاتى تطبق فيه قوانينها الخاصة ، ولكن كلا البلدين تحكمهما ، بعد الحكم الجارى ، ذرية ملكة الاسكتلنديين ، وكان هذا على وجه الدقة الاتحاد الذى تم فى عام ١٦٠٣ ، اللهم إلا إذا استثنينا أنه يسر عودة الكاثوليكية

إلى إنجلترا وتواصلها في اسكتلندا : ورفض الكشالكة في اسكتلندا المشروع خشية أن تصل عدوى البروتستانتية الإنجليزية إلى بلادهم ، وإلى جانب هذا كان النبلاء الاسكتلنديون يتلقون مرتبات من الحكومة الفرنسية ، وكانوا يرون أن عصفوراً في اليد خير من عشرة على الشجرة .

وأجبت مساعي سومرست في سبيل السلام وواجه الحرب مع فرنسا ، وجاهد أن يرسى دعائم مصالحة بين عقائد لا تعرف المصالحة في الوطن ، وترامى إلى أسماعه دقات متجددة لطبول ثورة زراعية في إنجلترا ، فشرب كأس السلطة حتى الثمالة عند ما دبر شقيقه مؤامرة للإطاحة به . ولم يقنع توماس سيمور بأن يكون اللورد أمير البحار وعضو المجلس الخاص بل كان يريد أن يصبح ملكاً . فنودد إلى الأميرة ماري ثم إلى الأميرة اليزابث ، ولكن عبثاً . وتلقى مالا مسروقاً من دار السكة وأسلاباً من القراصنة الذين سمح لهم بالدخول في القناة ، وعندما حصل على الأموال اللازمة حشد مخازن سرية للأسلحة والذخيرة . واكتشفت مؤامراته ، واتهمه إيرل وارويك وإيرل سوثمبتون ، وأدانه مجلسا البرلمان بالإجماع تقريباً ، وحكم عليه في ٢٠ مارس سنة ١٥٤٩ بالإعدام ، وحاول سومرست أن يحميه ، ولكنه فشل ، وسقطت وضاعت هيبة الحامي بسقوط رأس أخيه :

وألحقت ثورة كيت الخراب الشامل بسومرست . وأوضحت تلك الثورة مدى ما تتسم به من شذوذ ظاهر ، فبينما كان ثورة الفلاحين في ألمانيا بروتستانتية ، كانت في إنجلترا كاثوليكية ، وفي كل حالة كان الدين مظهراً للاستياء من الحالة الاقتصادية ، وفي إنجلترا كان المظهر كاثوليكيّاً لأن الحكومة كانت وقتذاك بروتستانتية . وكتب فرود البروتستانتى يقول : « في التجربة التي خاضها فقراء المزارعين كانت زيادة معاناة الأشخاص نتيجة رئيسية للإصلاح الدينى (٢) » .

ومما يفاخر به رجال الدين البروتستانت في هذا العهد - كرانر ولا تيمر
وليفر كراولى ، أنهم استنكروا الاستغلال الشديد للفلاحين ، ولقد ندد
سومرست في غضب شديد باغتصاب الملاك الجدد « الذين برزوا من
الحضيض » لثروة المدينة (٣) .

ولم يكن في وسع المجلس النيابي أن يفكر في وسائل علاج أكثر حكمة
من إجازة قوانين صارمة ضد التسول ، وأن يوجه الكنائس بأن تتولى جمع
تبرعات للفقراء كل أسبوع : وأرسل سومرست لجنة تنقضى الحقائق عن
الأراضى المسورة والإيجارات المرتفعة ، وقوبلت بمقاومة مستورة حيناً
أو صريحة حيناً آخر من ملاك الأراضى ، وأرهب المستأجرون إلى حد العمل
على إخفاء أخطائهم ، ورفض المجلس النيابي الأخذ بالتوصيات المتواضعة
للجنة وكان يمثل الأعيان فيه ملاك المناطق الزراعية . وافتتح سومرست محكمة
خاصة في داره لسماع شكاوى الفقراء ، وانضم عدد من النبلاء ، أخذ
يتزايد يوماً بعد يوم ، ويتزعمهم جون دولي ، إيرل أف وارويك ،
إلى حركة تستهدف خلعهم :

ولكن الفلاحين كالوا وقتذاك غاضبين بسبب الأخطاء المتركمة وفشل
القضايا المرفوعة لرد الحيف ، فانفجروا في ثورة امتدت من أقصى إنجلترا
إلى أدناها ، وثار أولاً سومرستشاير ثم ويلتشر و جلوسستر شاير ودورست
وهامبشاير وبركس واكسفورد وبيكنجهام في الغرب كورنول وديفون ،
وفي الشرق نورفولك وكنت : ونظم روبرت كنت وهو من صغار ملاك الأراضى
في نورويتش ، الثوار وقبض على زمام الحكم البلدى وأقام كومونا للفلاحين
تولى حكم المدينة وما وراءها شهراً : وضرب كنت مخيماً عسكرياً فيه ١٦٠٠٠ رجل ،
وهناك كان يجلس يوماً تحت شجرة سنديان للحكم بين ملاك الأراضى
المدنيين الذين قبض عليهم الفلاحون : ولم يكن متعظشاً للدماء ، ذا الذين أدانهم
وحكم عليهم سجنوا وقدم إليهم الطعام . ولم يكن يقيم وزناً كبيراً لحقوق

الملكينة وصكوكها وأمر رجاله بأن ينقبوا في الأراضي الريفية المجاورة وأن يقتحموا المنازل في الضياع ، وبصادروا كل الأسلحة ويسوقوا كل الماشية ، ويستولوا على كل المؤن حينما وجدت لصالح الكومون . أما الأغنام ، وهى أكبر خصوم للفلاح في الانتفاع بالأرض ، فقد جمع منها ٢٠٠٠٠ رأس ، ووزعت للاستهلاك في كثير من السرف ، (عجول لا تحصى) ، ويجمع وإيلات ويط وغزلان وخننازير . ومع ذلك فقد حافظت وسط هذه الوليمة على نظام عجيب ، بل وسمح لوعاظ بدعوة الرجال إلى التخلي عن الثورة . وشعر سومرست بكثير من التعاطف مع الثوار ، ولكنه اتفق الرأى مع وارويك على تشتيتهم ، لتلايهدم البناء الاقتصادي بأسره في الحياة الإنجليزية . وأنفذ وارويك مرة أخرى لقتالهم ومعه جيش كان قد حشد حديثاً للقتال في فرنسا . وعرض على الثوار منحهم عفوا عاما ، إذا عادوا إلى بيوتهم وآثر كت القبول ، بيد أن بعض المتهورين رأوا بحسم الأمر بالمعركة ، فأذعن كت لهم . وتقررت النتيجة يوم ١٧ أغسطس سنة ١٥٤٩ ، وانتصر تكتيك وارويك ، وقتل ٣٥٠٠ نائر ، ولكن عندما استسلم الباقون قنع وارويك بشق تسعة ، وأرسل كت وأحد أشقائه إلى السجن في لندن ووصلت أنباء الهزيمة إلى جماعات الثوار الأخرى فخارت عزيمتهم ، ووضعت جماعة إثر أخرى أسلحتها ، بعد أن وعدت بالحصول على عفوا عام . واستخدم سومرست نفوذه لإطلاق مراح معظم الزعماء وبقى أشقاء كت على قيد الحياة إلى حين .

واتهم الحامى بأنه شجع على الثورة بتعاطفه الصريح مع الفقراء ، ووصم بالفشل في الشؤون الخارجية لأن فرنسا كانت وقتذاك تحاصر بولونيا . واتهم بحق بالصاح بالفساد بين موظفي الحكومة وتخفيض قيمة العملة ومضاعفة ثروته وبناء بيت سومرست الفخم ، وسط الظروف التي أشرفت فيها الأمة على الإفلاس . وتزعم وارويك وسوثامبتون حركة لإقصائه عن مقعده .

وكان معظم النبلاء على استعداد للتغاضي عن ثروته ، ولكنهم لن ينفروا له أبدا عطفه على فلاحهم ، فانتهزوا الفرصة للانتقام . وفي ١٢ أكتوبر سنة ١٥٤٩ سبق الدوق أف سومرست باعتباره سجيناً في موكب اخترق شوارع لندن وسجن في البرج .

٢ - حماية وارويك (١٥٤٩ - ٥٣)

كان أعداء سومرست رقيقى الحاشية بمقاييس ذلك العهد . وحرّم من الأملاك التي اكتسبها إبان وصايته على العرش ، وأطلق سراحه يوم ٦ فبراير سنة ١٥٥٠ ، واسترد عضويته في المجلس الملكي في مايو . ولكن وارويك كان وقتذاك حامي المملكة .

وكان مكيا فيلينا صريحاً ، وعلى الرغم من أنه كان بزغ في أعماق نفسه إلى الكاثوليكية إلا أنه سلك نهجاً بروتستانتياً ، لأن خصمه سوتهامبتون كان الزعيم الذي ارتضاه الكاثوليك لهم ، وكان أغلب النبلاء مرتبطين مالياً بالعقيدة الجديده . وقد تعلم جيداً فن الحرب ولكنه أدرك أنه لن يستطيع أن يحتفظ ببولونيا أمام فرنسا التي تملك ضعف موارد إنجلترا ، معتمداً على حكومة مفلسة وشعب معدم ، وسلم المدينة إلى هنرى الثاني ووقع معاهدة صلح مهينة كان لا بد منها (١٥٥٠) .

وفي ظل سيطرة ملاك الأراضي من النبلاء أو العامة وافق المجلس النيابي (١٥٤٩) على قانون يعاقب بشدة على ثورة الفلاحين . وأيد قانون صريح وجود الأراضي المسورة ، وألغيت الضرائب التي كان سومرست قد فرضها على الأغنام والصوف لكي تفرّهم الناس في إقامة الحظائر . ونص القانون على عقوبات صارمة توقع على العمال الذين يتحدون لرفع أجورهم (٤) ، وأعلن عدم شرعية الاجتماعات التي تعقد لمناقشة تخفيض الإيجارات أو الأسعار ، ومصادرة ممتلكات الأشخاص الذين يحضرونها . وشتق روبرت

كت وأخوه ، واشتد الفقر ، بيد أن دور البر التي اكتسحتها الثورة الدينية لم تنشأ دور بدلا منها ، وأصبح المرض متوطنا ، ولكن المستشفيات كانت مهجورة . وقصور الناس جوعا ، ولكن العملة خفضت قيمتها مرة أخرى وارتفعت الأسعار . ثم إن ملاك الأراضي في إنجلترا الذين كانوا أقوى في يوم من الأيام أخذوا يهلكون ، وكان أفقر الفقراء يغرقون في بحر المهجورة (٥) . وكانت الفوضى الدينية لا تقل عن الفوضى الاقتصادية ، وظلت أغلبية الناس كاثوليكية (٦) ، بيد أن انتصار وارويك على سوهمبتون تركهم بلا قائد وشعروا بضعف موقف الذين يظهرون الماضي . وأدى انهيار ساطة القساوسة الروحية والأديسة ، وكذلك عدم استقرار الحكومة وفسادها إلى السماح لبازياد الفجور فحسب ، ولكن إلى استفحال الهرطقة ، بصورة أفزعت الكنائس والبروتستانت على السواء . ووصف جون كليمنت (١٥٥٦) « الأنواع العجيبة من الطوائف التي احتشدت في كل مكان لا من أنصار البابوية فحسب . . . ولكن من الأريوسيين والمنكرين للتعميد وكل صنوف الهرطقة الآخرين أيضاً . . . بعضهم يذكر أن الروح القدس هو الرب ، والبعض ينكر الخطيئة الأولى ، والبعض الآخر ينكر القدر . . . وعدد لا يحصى من أمثال هؤلاء ، يقصر بنا المقام عن ذكرهم (٧) . وكتب روجر هتشنسون (حوالي عام ١٥٥٠) عن « الصدوقيين والفاستين (أحرار الفكر) ، الذين يقولون : « إن الشيطان » ليس إلا . . . غرام دنس بالجد . . . وأنه ليس هناك مريض للطمانينة أو العذاب بعد هذه الحياة الدنيا ، وأن الجحيم ليس إلا ضميراً يلائساً يعذب صاحبه ، وأن الجنة ضمير مبهج ساكن مرح (٨) » .

وتحدث جون هوبر ، أسقف جلويستر البروتستانتي فقال : « هناك من يقول إن روح الإنسان ليست أفضل من روح حيوان ، وأنها فانية وهالكة ، وهناك أشقياء يتجاسرون في اجتماعاتهم على القول بأن

المسيح ليس هو المخلص لنا ، بل يذهبون إلى أن الطفل المبارك مؤذ
ومحتمل (٩) .

وأفاد الناس من الحرية التي منحها لهم سومرست فطعن جناح متهور
أ من البروتستانتية في الدين القديم طعنا قاسيا وتمكّم طلبة جامعة أكسفورد
بالقداس بمحاكاته في مسرحياتهم الهزلية ، ومزقوا كتب القداس إربا ،
واختطفوا الخبز المقدس من المذبح ووطأوه بالأقدام . وأطلق وعاظ لندن
على هؤلاء القساوسة اسم : « عفاريت بعفى بابل » - أى البابا (١٠) .
والتقى رجال الأعمال في مؤتمرات بكاتدرائية سانت بول ، واجتمع
هناك الشبان من ذوى النخوة وقتلوا وقتلوا . وكانت الحماية الجديدة
وقتذاك بروتستانتية على التحقيق . وعين المصلحون الديليون في أسقفيات
بشرط أن يحولوا جانبا من دار الأسقفية إلى رجال الحاشية الذين كان
لهم الفضل في تعيينهم (١١) ، وقضى المجلس النيابي (١٥٥٠) بإزالة كل
اللوحات والتماثيل من أى كنيسة في إنجلترا ما عدا « الصور التذكارية
للملوك أو النبلاء الذين لم يسلكوا قط في عداد القديسين » وأتلفت كل
كتب الصلاة (١٢) ما عدا كتاب كرامر . وصودرت أو بيعت ووهبت
الثياب الكهنوتية والقباءات وكسوة المذبح ، وسرعان ما ازدانت بها بيوت
النبلاء (١٣) . وأصدر المجلس أمراً بمصادرة كل آنية مخصصة للبرعات
بقيت في الكنائس بعد عام ١٥٥٠ لصالح الخزنة . وانتزع المجلس النيابي
فيما بعد للحكومة العملات التي في صناديق البرعات للفقراء بالكنائس (١٤) .
ووجدت أموال أخرى للحكومة أو لموظفيها بإلغاء المنح الدراسية للطلبة الفقراء
ومنع الأستاذيات المعانة من الدولة بالجامعات ، والتي أنشأها هنرى
الثامن (١٥) . وأوصى المجلس النيابي لعام ١٥٥٢ بأن يبقى رجال
الإكليروس بلا زواج ولكنه أذن لهم بالزواج إذا ثبت أن العفة
تضمنهم .

وكان الاضطهاد الديني للهراطقة ، الذى قام به الكشالكة منذ عهد بعيد ، قد نهض به وقتذاك البروتستانت فى إنجلترا ، وكذلك فى سويسرة وألمانيا اللوثرية ، وذلك بمطاردة الهراطقة والكشالكة . وأعد كرانمر بيانا بالهرطقات التى يعاقب مرتكبوها بالإعدام إذالم يرتدوا عنها ، وتضمنت تأكيد وجود المسيح حقا فى القربان المقدس أو السيادة الكنسية للبابا ، وإنكار الوحي فى العهد القديم ، أو الطبيعتين فى المسيح أو التزكية بالإيمان (١٦) . وذهبت جوان بوشر الكنتيسة إلى المحرقة لشكها فى تجسد الأبنوم الثانى (١٥٥٠) . وقالت لريدلى ، أسقف لندن البروتستانتى الذى توسل إليها أن تراجع عما تقول : « لقد أحرقتم آن أسكيو منذ عهد غير بعيد من أجل قطعة من الخبز (لإنكارها التجسد) ، ومع ذلك حدث أن آمنتكم بالعميدة التى أحرقتموها من أجلها ، وأنتم سوف تحرقوننى الآن من أجل قطعة من اللحم (تشير إلى العبارة الواردة فى الإنجيل الرابع . « لقد صنعت الكلمة لحما ، وسوف تؤمنون بهذا أيضا آخر الأمر (١٧) » . ولم يحرق فى عهد إدوارد إلا هرطيقان ، ومهما يكن من أمر فإن كثيرا من الكشالكة سجنوا لحضورهم القداس أو لانتقادهم علنا العميدة المحافظة المقبولة (١٨) . وأقيل القساوسة الكاثوليك المتشبهون بأرائهم من مناصبهم وأرسل بعضهم إلى سجن البرج (١٩) ، وعرض على جاردنر ، وكان لا يزال هناك ، الحرية إذا وافق على التبشير بالعميدة التى يقول بها أنصار الإصلاح الدينى . وعندما رفض نقل إلى « مسكن أحقر » فى البرج وحرم من الورق والقلم والكتب . وفى عام ١٥٥٢ أصدر كرانمر كتابه الثانى عن الصلاة العامة وفيه أنكر وجود المسيح حقا فى القربان المقدس ، ونبذ تقديم القربان المقدس بالمسيح المغالى فيه ، وراجع فى ظروف أخرى الكتاب الأول بإنجاد بروتستانتى .

ووافق المجلس النيابى وقتذاك على قانون ثان بشأن التجانس ، اقتضى

أن يحضر جميع الأشخاص بانعظام وألا يحضروا سوى الصلوات الدينية التي تقام طبقاً لما ورد في كتاب الصلاة العامة هذا ، وكل من يخالف هذا القانون ثلاث مرات ، يعاقب بالإعدام . وفي عام ١٥٥٣ أصدر المجلس الملكي اثنين وأربعين « مادة في الدين » وضعها كرائمر وجعلها إلزامية على كل الإنجليز .

وفي الوقت الذي أصبحت فيه الفضيلة والحفاظة على العقيدة بمثابة قانون تميزت حماية وارويك بفسادها في عصر فاسد ، ولم يمنع هذا إدوارد الشاب المطاوع من تعيين وارويك دوقاً لنورثمبرلاند (٤ أكتوبر سنة ١٥٥١) . وبعد بضعة أيام كفر الدوق عن خطيئته التي ارتكبها بقيامه بعمل من أعمال حسن التصرف - إطلاق سراح سومرست - وذلك باتهام سلفه بالقيام بمحاولة لاستعادة السلطة لنفسه . وقبض على سومرست وحوكم وأدين في الغالب بناء على دليل قدمه سير توماس بالمر ، وزيف أمر صادر من الملك بالدعوة إلى إعدام سومرست ، وفي ٢٢ يناير سنة ١٥٥٢ لقي حتفه بشجاعة وإباء . وعندما واجه نورثمبرلاند الإعدام بدوره ، اعترف أن سومرست قد أتهم زوراً بفضل وسائله ، واعترف بالمر قبل وفاته أن الدليل الذي أقسم على صحته كان من اختراع نورثمبرلاند (٢٠) .

ونادراً ما كانت الإدارة في إنجلترا قد وصلت إلى هذا الحد من الكراهية ، فقد انقلب البروتستانت ضد الحامي الجديد الذي أثنوا عليه شكراً منهم لتأييده وذلك بسبب ازدياد جرائمه . وكان الملك إدوارد يقترب من الموت وقد عينت ماري تيودور بمقتضى قانون أصدره المجلس النيابي ولاية للعهد إذا ظل إدوارد بلا ذرية . وإذا قدر لماري أن تصبح ملكة فإنها سوف تنتقم في الحال من هؤلاء الذين حولوا إنجلترا عن العقيدة القديمة . وشعر نورثمبرلاند بأن حياته معرضة للخطر . وكان عزائه الوحيد أن وكلاءه قد دربوا إدوارد على طاعته . وأغرى الملك المحضّر بأن يقرر التاج لليدي جين جراي ، ابنة الدوق سفولك وحفيده شقيقة

هنرى الثامن ، وفضلا عن هذا فإن جين كانت قد تزوجت حديثاً من ابن نورثمبرلاند . ولم يكن إدوارد قد خول مثل أبيه السلطة من المجلس النيابى لتعيين خلفه ، وكانت إنجلترا بأسرها تقريباً ترى أن ارتقاء الأميرة مارى العرش أمر لا مفر منه وعادل ، واحتجت جين بأنها لم ترغب قط فى أن تكون ملكة . وكانت امرأة نالت قسطاً غير عادى من التعليم : وكتبت باليونانية ودرست العبرية وتراسلت مع بولينجر بلغة لاتينية لا تقل جمالا عن لغته . ولم تكن قديسة ، وكان فى وسعها أن تلتقد الكاثوليكية هشة ، وسخرت من التجسيد . ولكن نسب إليها من الآثام أكثر مما أتمت ، وحسبت فى أول الأمر أن خطة حميها من قبيل الدعاية ، وعندما أصرت حماها قاومت جين . وأمرها زوجها فى آخر الأمر أن تقبل العرش فأطاعت « دون أن تختار أن تعصى زوجها » كما قالت ، وأعد نورثمبرلاند وقتذاك العدة للقبض على كبار أنصار مارى وإيداع الأميرة نفسها فى البرج حيث يمكن أن تتعلم التنازل .

وأوشك الملك على نهايته فى أوائل يولية ، وسعل وبصق دماً ، وتورمت ساقاه تورماً مؤلماً ، وتنفشى الطفح على جسده ، وسقط شعره ، ثم سقطت أظافره ، ولم يستطع أحد أن يجزم بالمرض الغريب الذى يعانى منه ، وراود الشك الكثيرين أن نورثمبرلاند قد ستمه . وأخيراً مات إدوارد بعد أن عانى كثيراً (٦ يوليوسنة ١٥٥٣) ولم يتعد الخامسة عشرة من عمره ، وأصغر كثيراً من أن يشارك فيما ارتكب فى عهده من آثام .

وفى صباح اليوم التالى ركب نورثمبرلاند إلى هفسدون للقبض على الأميرة . بيد أن مارى هربت ، بعد أن حذرت ، إلى أصدقاء كاثوليكين فى سفيرلك ، وعاد نورثمبرلاند إلى لندن دون أن يحصل على فريسته . وأقنع الخجاس الخاص بالوعود أو التهديدات أو الرشاوى بالانضمام إليه فى المناداة

بجین جرای ملكة ، وأغوى عليها ، وعند ما أفاقت ظلت تحتج على أنها لا تصلح للشرف المحفوف بالمخاطر ، الذى أكرهت عليه . وتوسل إليها أقاربها بحجة أن حياتهم تنوقف على قبولها . وفى التاسع من يوليو أقرت فى نفور أنها ملكة لإنجلترا .

ولكن فى العاشر من يوليو وصلت إلى لندن أنباء تقول إن مارى قد نادت بنفسها ملكة ، وإن النبلاء فى الشمال كانوا يتقاطرون لتأييدها ، وأن قواتهم كاذت تزحف على العاصمة . وحشد نورثمبرلاند سريعاً ما استطاع جمعه من جنود ، وقادهم لتقرير مصير المعركة . وأبلغه جنوده فى بورى أنهم لن يسيروا خطوة أخرى للقتال ضد عاهلتهم الشرعية . وأرسل نورثمبرلاند أخاه ، مزوداً بالذهب والمجوهرات والوعد بكاليه وجينس ليرشو هنرى الثانى ملك فرنسا ، للتيايم بغزو إنجلترا لتويجاً لجرائمه . وعلم المجلس الخاص بالمهمة ومنعها ، وأعلن لإياه لمارى . وانطلق الدوق أف سفولك إلى غرفة جين وأبلغها أن حكمها الذى استمر عشرة أيام قد انتهى . فرحبت بالأنباء وسألت ببراءة هل تستطيع الآن أن تذهب إلى البيت ، ولكن المجلس ، الذى كان قد أقسم على خدمتها أمر بسجنها فى البرج . وسرعان ما سجن هناك أيضاً نورثمبرلاند وأخذ يطلب الصفح عما ارتكب ، وإن أخذ يترقب موته .

وبعث المجلس برسلى ينادون بأن مارى تيودور ملكة وتلقت إنجلترا الأخبار بفرح وحشى . وظلت النواقيس تفرع والمشاعل تتوهج طوال تلك الليلة من ليالى الصيف . وجلب الناس موائد الطعام وأولموا فى الخلاء ورقصوا فى الشوارع .

وبدا أن الأمة آسفة على الإصلاح الدينى ، وأنها تتطلع بشغف إلى ماضى كان فى الإمكان وقتذاك أن يعد نموذجاً ، طالما أنه لن يعود . والحق أن الإصلاح الدينى لم يظهر حتى الآن إلا جانبه المرير لإنجلترا : لم يكن تحريراً

من المذهبية ومحاکم التفتيش والطغيان ، بل كان تثبيتها لها ، ولم يكن انتشاراً للاستنارة ، بل كان سلباً للجامعات وإغلاقاً لمئات المدارس ، ولم يكن توسعاً في الرقعة ، بل كان تقريباً قضاء على البر ، ورقعة بيضاء للجشع ، ولم يكن تخفيفاً للفقر ، بل كان سحماً للفقراء بلا رحمة لم تعرفه إنجلترا منذ قرون — ولعلها لم تعرفه قط (٢١). وكان كل تغيير يكاد يلقى ترحيباً ما دام يؤدي إلى تخليصهم من نورثمبرلاند وطغمته .

ثم إن الأميرة ماري المسكينة ، التي ظفرت بحب إنجلترا في الخفاء بفضل صبرها على الإذلال طوال اثنين وعشرين عاماً — هذه المرأة المهذبة سوف تكون ولا شك ملكة رقيقة .

٣ — الملكة للرقيقة (١٥٥٣ — ٥٤)

لا بد لسكى نفههما من أن نكون قد عشنا معها شبابهها المأساوى الذى لم تذق خلاله قط طعماً للسعادة . ولم تكن تتجاوز الثانية من عمرها (١٥١٨) ، عندما شغل أبوها بالحظايا ، وأهمل أمها المحزونة . وكانت في الثامنة عندما طلب إعلان بطلان زواجه ، وفي الخامسة عشرة عندما افترق والداها ، وذهب كل من الأم والبنت إلى متقى منفصل . ومنعت الابنة من الذهاب إلى أمها حتى وهى تحتضر (٢٢) . وأعلن أن ماري ابنة سفاح بعد مولد اليزابث (١٥٣٣) وجردت من لقبها كأميرة . وخشى سفير الإمبراطور أن تسعى آن بولين إلى قتل ابنة غريمتها المنافسة لها على العرش . وعندما انتقلت اليزابث إلى هاتفيلد أجبرت ماري على أن تذهب إلى هناك لخدمتها وأكرهت على أن تعيش في « أسوأ غرفة في البيت » (٢٣) ، وأخذ منها خدمتها ، واستبدل بهم آخرون ، يخضعون لمس شلتون أف هاتفيلد التى قالت لها تذكرها بأنها ابنة سفاح : « لو كنت فى موضع الملك لطردتك من بيت الملك لعدم طاعتك » . وأخبرتها أن هنرى قد عبر عن عزمه على قطع رأسها (٢٤) .

وكانت ماري مريضة طوال ذلك الشتاء الأول الذى قضته فى هاتفيلد (١٥٣٤) ، وتحطمت أعصابها بسبب الإهانة والخوف وكادت تشرف على الموت جسما وروحا على غير كره منها . ثم رق لها الملك ومنحها بعض محبته إلى حين ، ونعمت بوضع ميسور فى باقى أيام حكمه . ولكن طلب منها أن توقع إقراراً بسيادة هنرى الكنسية وبأن « زواج أمها من قبيل سفاح ذوى القربى » وبأن ميلادها غير شرعى^(٢٥) وذلك ثمنا لهذه الرقة القاسية .

وتأثر جهازها العصبى على الدوام بهذه المحن ، و كانت عرضة لأن تشكو من قلبها^(٢٦) » وظلت صحتها ضعيفة حتى آخر يوم فى حياتها . وعاودتها شجاعتها عند ما أعلن المجلس النيابى فى عهد حماية سومرست أنها ولية العهد . ولقد نشأت عقيدتها الكاثوليكية ، فى طفولتها مشبعة بجرارتها الإسبانية ، وقويت بما أثارته حياة أمها ومماتها فى نفسها من ألم ، وكانت عوناً ثميناً لها فى أحزانها ، فرفضت أن تتخلى عنها عند ما حومت على حافة السلطة ، وعند ما أمرها مجلس الملك أن تكف عن سماع القداس فى حجراتها (١٥٤٩) لم تدعن لأمره . وأغضى سومرست عن مقاومتها ، ولكن سومرست سقط ، وصدق أخوها الملك على الأمر ، وأرسل ثلاثة من خدمها إلى سجن البرج بسبب تجاهله (١٥٥١) ، وأخذ منها القس الذى رتل لها القداس ، ووافقت آخر الأمر على أن تكف عن ممارسة الشعيرة المحبوبة . وعندما تحطمت روحها طلبت من سفير الإمبراطور أن يدبر لها الهرب إلى القارة ، ورفض الإمبراطور الحذر أن ييجز الخطة ، ونخاب فألها .

وجاءت لحظة انتصارها أخيراً عندما عجز نورثمبرلاند عن أن يجرد رجالا يحارب ضدها ، ولم يطلب الذين أقبلوا مدججين بالسلاح لمناصرة قف بيتها أى أجر ، بل لإتهم أحضروا معهم مؤتمهم ، وعرضوا عليها ثروتهم لتحويل الحملة . وعندما دخلت لندن كملك (٣ أغسطس سنة ١٥٥٣) هبت تلك المدينة نصف البروتستانتية للترحيب بها بالإجماع . وجاءت اليزابث تمشى على

استحياء للملاقاتها عند أبواب المدينة ، وهى تتساعل على تتمسك ضدها بالشتام التى تعرضت لها باسم اليزابث . ولكن مارى حيثما بقبلة حارة وقبلت جميع السيدات المرافقات لأختها غير الشقيقة . وكان لإنجلترا سعيدة كما كانت عند ما ارتقى العرض هنرى الثامن وهو شاب وسيم كريم .

كانت مارى وقتذاك فى السابعة والثلاثين من عمرها ، وكان الزمن القاسى قد ترك على وجهها خطوطاً تنذر بالدبول . وقلما مرت بها سنة كاملة دون أن تصاب بمرض خطير . وكانت تشكو من الاستسقاء وسوء الهضم ونوبات صداع تحطم الرأس ، وعولجت مراراً بالحجامة مما تركها عصبية شاحبة ، وأدى تكرار انقطاع الطمث عنها إلى استغراقها أحياناً فى حزن هستيرى مصحوب بخوف من ألا تحمل أبداً (٢٧) . وكان جسدها وقتذاك نحىلاً هزيلًا وجينها مملتاً بالتجاعيد وشعرها المائل للاحمرار تتخلله شعرات بيضاء وعيناها ضعيفتين جداً إلى حد أنها لم تكن تستطيع القراءة إلا إذا أمسكت بالصحيفة قرب وجهها . وكانت تقاطيعها واضحة ، تكاد تشبه تقاطيع الرجال ، وكان صوتها عميقاً كصوت الرجل ، وقد وهبتها الحياة كل ما فيها من وهن وحرمتها من المفاتن ومن الأنوثة . وكانت لديها بعض المواهب الأنثوية . فكانت تحيك فى جلد وتطرز بمهارة وتعزف على العود ، وأضافت إلى هذه المواهب معرفة باللغات الإسبانية واللاتينية والإيطالية وانفرنسية . وكان يمكن أن تكون امرأة صالحة لو لم تلحقها لعنة اليقين اللاهوتى والسلطة الملكية . وكانت أمينة إلى درجة البساطة ، عاجزة فى مجال الدبلوماسية ومتلهفة إلى درجة يرثى لها لأن نحب وتكون محبوبة . وكانت تتعرض لسورات غضب ولها لسان سليط . وكانت عنيدة ولكنها لم تكن متكبرة ، وأدركت قصور قدراتها الذهنية وأصاحت السمع للنصيحة فى تواضع . ولم تكن تلين لها قناة إذا كان الأمر يتعلق بعقيدها فحسب ، وفى غير هذه الحالة كانت حليلة حنوناً وحررة الفكر مع التسامح ، وتواقة إلى رفع الحيف الذى تسببت فيه

أخطاء القانون ، وكثيراً ما زارت بيوت الفقراء وهى متنكرة وجلست وتحدثت مع ربات البيوت وسجلت مذكرة بالحاجات والمظالم وقدمت كل ما فى وسعها من مساعدة (٢٨) . وأعدت لى الجماعات الهبات التى اختلسها منها أسلافها .

وظهر أحسن جانب من خلقها فى التسامح النسبى فى أول عهدها ، فهى لم تطلق سراح جاردنر وبونر وغيرهما ممن سجنوا لرفضهم قبول اعتناق البروتستانتية فحسب ، بل لأنها صفحت تقريباً عن كل من حاولوا إبعادها عن العرش ، ومهما يكن من أمر فإنها أجبرت بعض هؤلاء ؛ مثل الدوق أف سفولك ، على دفع غرامات باهظة للاخزانة ، ثم خفضت الضرائب تخفيضاً جوهرياً بعد تقديم هذه المساعدة لى الدخل . ومنحت جوازات أمان لبيت مارتير وغيره من البروتستانت الأجانب لكى يغادروا البلاد . وعقد مجلس الملكة محاكمة عاجلة لنورثمبرلاند وستة آخرين تأمروا على القبض على مارى ، وتوجوا جين جراى ، وحكم على السبعة جميعاً بالموت . وأبدت مارى رغبتها فى الصفح عن نورثمبرلاند ، ولكن سيمون رينار سفير الإمبراطور وقتذاك أنابها عن عزمها ، وقام الثلاثة الذين لم يصفح عنهم جميعاً باعتناق عقيدة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى آخر لحظة . ووصفت جين جراى الحكم بالعدل والاعترافات بالجين (٢٩) .

وكان من رأى مارى أن تطلق سراحها ، ولكنها أذعنت لآراء مستشاريها لى حد بعيد وأمرت بأن تبقى طليقة من كل قيد فى الاعتقال داخل أراضى سجن البرج (٣٠) .

وأصدرت الملكة فى ١٣ أغسطس إعلاناً رسمياً بأنها لن « نكره الضمائر أو تلزمها » بشىء فى مسألة المعتقد الدينى (٣١) ، وكان هذا أحد الإعلانات الأولى فى التسامح الدينى تصدره حكومة حديثة . وكانت تأمل فى براعة أن

تحول البروتستانت بالحجة فنظمت مناظرة عامة بين علماء اللاهوت المتعارضين في الرأي ، ولكنها تبخرت في جدل مرير عقيم . وبعد ذلك بوقت قصير قذف واعظ الأسقف يونر بنجنجر انطلق من جمهور استاء من وعظه الكاثوليكي ، وأنقذه من الموت اثنان من رجال الدين البروتستانت (٣٢) ٥ وراع ماري تسامحها فأمرت (١٨ أغسطس سنة ١٥٥٣) بعدم التصريح بعظات تتعلق بالعقائد إلا في الجماعات ، وذلك إلى أن يتيسر اجتماع المجلس النيابي وينظر في المشكلات التي أثارها النزاع بين العقائد . وأمر كرانر ، وكان لا يزال رئيساً للأساقفة ، بملازمة قصره في لامبث ، فرد على ذلك بمهاجمة القدامس ووصفه بأنه « كافر بغيض » ، وحكم عليه هو ولا تيمر بالسجن في البرج (سبتمبر سنة ١٥٥٣) . أما ريدلي أسقف لندن الذي كان قد وصف ماري واليزابث معا بأنهما ابتتا سفاح فكان قد ذهب إلى سجن البرج قبل ذلك بشهرين . وعلى الحملة فإن سلوك ماري في هذه الشهور الأولى من حكمها فاق في اللين والتسامح سلوك غيرها من عظماء الحكام في عصرها .

وكانت المشكلات التي واجهتها حرية بأن تقهر امرأة تفوقها كثيراً في الذكاء والفضيلة . وصدمت بالارتباك والفساد السائدين في الإدارة وأمرت بوقف الفساد ، غير أنه أخفى رأسه ولم ينقطع . وضربت مثالا حسناً بتخفيض نفقات الأسير الملكية ، وتعهدت بتثبيت قيمة العملة ، وتركت انتخابات المجلس النيابي حرة لم تتأثر بأى نفوذ ملكي . وكانت الانتخابات الجديدة « أعدل انتخابات حدثت منذ سنوات (٣٣) » ، ولكن تخفيضها للضرائب ترك دخل الحكومة أقل من مصروفاتها ، واكفى نحصل على الفرق فرضت ضريبة صادرة على القماش وضريبة وارد على الألبدة الفرنسية وأدت هذه الإجراءات التي كان ينتظر أن تساعد الفقراء إلى نكسة تجارية . وحاولت أن توقف نمو الرأسمالية بتحديد عدد ما يملكه أى فرد بنول أو اثنين . ونددت بـ « القماشين الأغنياء » بسبب دفعهم أجوراً منخفضة وحظرت دفع

الأجور عيناً^(٣٤) ولكنها لم تجد في حاشيتها رجالا يملكون القوة والكمال اللازمين لإنجاز إرادتها الطبية ، وتغلبت القوانين الاقتصادية على أهدافها . بل لأنها قوبلت بعقبات اقتصادية قاسية حتى أمور الدين . ولم تكن هناك أسرة لها نفوذ في إنجلترا لا تحتفظ بأموالها من الكنيسة^(٣٥) ، وعارضت هذه الأسر بالطبع أى عودة للعقيدة الرومانية . وكان البروتستانت أقلية من حيث العدد وأقرباء بفضل ما لديهم من مال ، وكانوا بذلك في موقف يسمح لهم بأن يظهروا في أية لحظة أسباب الثورة التي تبضغ اليرابث البروتستانتية على العرش .

وكانت ماري تلهف على إعادة حق الكاثوليكية في العبادة طبقاً لشعيرتهم ، ومع ذلك فإن الإمبراطور الذي ظل يحارب البروتستانتية اثنين وثلاثين عاماً حذرهما وطلب منها أن تتحرك ببطء ، وأن تقنع بترديد القداس سرّاً لنفسها وفي محيطها المباشر . ولكن شعورها نحو دينها كان عميقاً ولا تستطيع أن تكون سياسية فيما يتصل به . وتعجب الخليل الذي ينزع إلى الشك الذي نشأ في لندن من كثرة صلواتها وحرارتها ، ولعل السفير الإسباني اعتقد أنها تطالب أمراً إدارياً عند ما سألته أن يركع بجوارها ويطلب الهداية من الله . وشعرت بأن لها رسالة مقدسة تستعيد بها العقيدة التي أصبحت عزيزة عليها لأنها قاست من أجلها . وبعثت برسول إلى البابا تطلب منه أن يرفع التحريم الذي فرضه على إقامة الصلوات بإنجلترا ، ولكن عندما أبدى الكاردينال بول رغبته في الحضور إلى إنجلترا قاصداً رسولياً ، اتفقت مع شارل على أن الوقت لم يمن بعد للقيام بنقل هذه الحركة الجريئة .

ولم يكن المجلس النيابي الذي اجتمع في ٥ أكتوبر سنة ١٥٥٣ مجدداً بالمرة . فقد وافق على إلغاء كل تشريع يتعلق بالدين ، صدر في عهد إدوارد ، وخفض العقوبات المنصوص عليها في قوانين هنرى الثامن وإدوارد السادس إلى ما كانت عليه من قبل . وأبلغ الملكة في تاليف أن عدم شرعية

النسب المتعلقة بشخصك الأمثل ، قد ألغى وأنها لم تعد ابنة سفاح ، ولكنه
أبى أن ينظر في إعادة أملاك الكنيسة إليها وقاوم أى تلميح إلى أن سيادة البابا
يجب أن يعترف بها ، وترك هذا ماري رئيسة للكنيسة الإنجليزية رغم أنها .
وبمقتضى هذه السلطة المخولة لها استبدلت بالأساقفة البروتستانت الأساقفة
الكاثوليك الذين كانوا قد أقصوا عن مناصبهم ، وعاد بونر أسقفاً للندن
وجاردرز أسقفاً لونيشتير ومشيراً مقرباً للناج . وطرد القساوسة المتزوجون
من أبرشياتهم . وسمح بإقامة القداس مرة أخرى ثم شجع ، (ويقول مؤرخ
بروتستانتى) : « إن اللهفة التي أبدتها البلاد الإفادة بوجه عام من الإذن
بإعادة الشعيرة الكاثوليكية تدل بلا شك على أن الشعور العام كان مع الملكة (٣٧)
فيما عدا لندن وبضع مدن كبيرة » . وأعيدت العبادة الكاثوليكية إلى ما كانت
عليه تماما بمقتضى مرسوم صدر في ٤ مارس سنة ١٥٥٤ . وعادت الهرطقات
الأخرى غير شرعية وحرم كل وعظ بروتستانتى أو نشره بروتستانتية .

وكان انزعاج الأمة بعودة التذبذب اللاهوتى أقل كثيراً من انزعاجها
بخطط زواج ماري . كانت تخشى الزواج من الناحية الدستورية ، ولكنها
واجهت المحنة أملاً في أن تنجب وريثاً يحول دون ارتقاء اليزابث البروتستانتية
العرش : وادعت ماري أنها عذراء ، والراجح أنها كانت كذلك ، ولعلها
لو كانت قد أتمت هوناما لكانت أقل كآبة وتوتراً وبقينا . وأوصى مجلسها
باختيار إدوارد كورتناى حفيد إدوارد الرابع ، ولكن طرق عيشه المتبذلة
لم تصادف هوى في نفس ماري ، وعندما رفضته دبر أن يتزوج اليزابث ،
ويخلع ماري ويولى اليزابث على العرش ويحكم إنجلترا عن طريقها -
ولم يحلم قط بضالة فرصته في السيطرة على تلك السيدة المسترجلة .
وعرض شارل الخامس على ماري الزواج من ابنه فيليب الذي كان يوشك
أن يوصى له بكل شيء سوى اللقب الإمبراطورى ، وتعهد

بتقديم الأراضي المنخفضة لأى ولد يكون عمرة لهذا الزواج . وتهللت ماري عندما خطر لها أن زوجها سيكون حاكماً لإسبانيا والفلاندرز وهولندا ونابلى والأمريكتين ، وتدفقت دماؤها نصف الإسبانية ساخنة في عروقها وهى تتوقع لإنشاء اتحاد سياسى ودينى بين إنجلترا وإسبانيا . وأشارت فى لواقع إلى أن سنها الأكبر - أكبر من فيليب بعشر سنوات - تقف عائقاً ، وخشيت ألا تكن مفاتها الذابة لإرضاء حيويته وشبابه أو خياله ، إنها لم تكن واثقة أنها سوف تعرف كيف تطارحه الغرام (٣٧) . وكان فيليب من ناحيته يشعر بالنفور فقد أبلغه وكلاؤه الإنجليز أن ماري كانت « قديسة كاملة » وأنها ترتدى ملابس قبيحة (٣٨) ، أفلا يمكن أن يوجد شيء أكثر إغراء بين الأسر المالكة فى أوروبا ؟ وأقنعه شارل بالإشارة إلى أن الزواج سوف يتيح لإسبانيا حليفاً قوياً ضد فرنسا وعوناً ثميناً فى الأراضي المنخفضة التى كانت مرتبطة تجارياً بإنجلترا . ولعل البروتستانتية فى ألمانيا يمكن قمعها بعمل موحد من إسبانيا وفرنسا وإنجلترا باعتبارها دولاً كاثوليكية ؛ ثم إن المصاهرة بين آل هابسبورج وآل تيودور يولف قوة قادرة على منح أوروبا الغربية سلاماً إجبارياً يدوم جيلاً .

وأدرك مجلس الملكة والشعب الإنجليزى قوة هذه الاعتبارات ولكنهم خشوا أن يودى الزواج إلى تحويل إنجلترا إلى بلد تابع لإسبانيا ويورط إنجلترا فى الحروب المتكررة مع فرنسا . وواجه شارل الموقف بإجراء مضاد عرض باسم ابنة عقد زواج بمقتضاه لا يحمل فيليب لقب ملك إنجلترا إلا فى حياة ماري ولها أن تحتفظ وحدها بالسلطة الملكية الكاملة على الشؤون الإنجليزية ولها أن تشارك فيليب فى جميع ألقابه ، وإذا مات دون كارلوس (ابن فيليب من زواج سابق) دون أن يعقب ذرية تراث ماري أو ابنتها الإمبراطورية الإسبانية وعلاوة على هذا أضاف الإمبراطور الداهية أن لمارى الحق فى أن تتلقى مدى الحياة ٦٠٠٠٠٠ جنيه من

الموارد الامبراطورية ، وبدا هذا كله عرضاً سخياً جداً ، وصدق المجلس
الإنجليزي على الزواج مع تعديلات يسيرة في النصوص
وأخذت ماري ، على الرغم من حياثها المتواضع تتطلع في لطفة إلى المستقبل
فكم طال انتظارها لعاشق !

ولكن الشعب الإنجليزي استاء من اختيارها ، فالأقلية البروتستانتية
التي كانت تصبر على الاضطهاد ، آملة في أن تخلف اليزابث قريباً ماري
العاقرة الضعيفة خشيت على حياتها إذا وقفت قوة إسبانيا بجانب ماري
في إعادة الكاثوليكية بالقوة ، وارتجف النبلاء الذين اغتنوا بضم الأملاك
الكنسية عندما خطر لهم أنهم سوف يخرجون ما في بطونهم . بل إن الإنجليز
الكاثوليك اعترضوا على وضع أجنبي قاس على العرش . وهو ولا شك
سوف يستخدم إنجلترا لتحقيق أغراضه الأجنبية . وارتفعت أصوات
الاحتجاج من كل مكان في البلاد ، وسرى الدعر في مدينة بلايموث ،
فطلبت من ملك فرنسا أن يضعها تحت حمايته . ووضع أربعة نبلاء
خططاً لثورة تبدأ في ١٨ مارس سنة ١٥٥٤ ، فكان على الدوق أف
سفولك (والد جين جراي الذي صدر العفو عنه) أن يحدث ثورة في
وارويكشاير وعلى سير جيمس كروفرت أن يتزعم مستأجره الولزيين ،
وعلى سير بيتر كارو أن يثير ديفونشاير ، وعلى سير توماس ويات الصغير
أن يقود ثورة في كنت . وكان ويات الكبير - الشاعر - قد استولى على
مجموعة من أراضى الكنيسة - كره ابنه أن يسلمها ، وأخطأ المتآمرون
بأن أسروا بخططهم لكورتناي ، وكانت مهمته تنحصر في ضمان اشتراك
إليزابث معهم • وكان الأسقف جاردنر يراقب كورتناي باعتباره خاطباً
منبوذاً لماري يتلهف على الانتقام ، فأمر بالقبض عليه ، وأفضى كورتناي
أسرار المؤامرة ، بتأثير التعذيب على الأرجح .

وآثر المتآمرون أن يلاقوا حتفهم في المعركة بدلا من المقصلة فحفوا

سريعاً إلى الأسلحة واشتعلت نيران الثورة في أربعة أقطار في الحال (فبراير سنة ١٥٥٤) ، وقاد ويات جيشاً قوامه ٧٠٠٠ رجل وزحف نحو لندن ، وبعث ببناء إلى كل المواطنين أن يمنعوا انجلترا من أن تصبح إقطاعية لإسبانيا ، وبدأ الجانب البروتستانتي من أهالي لندن في وضع خطة لفتح الأبواب لويات ، وتردد مجلس الملكة في أن يرتبط بشيء ، ولم يحشد جندياً واحداً للدفاع عنها ، ولم تستطع ماري أن تدرك لماذا ترفض البلاد التي رحبت كثيراً بارتقاءها العرش أن تتمتع بالسعادة وتحقيق أمانها التي حلمت بها طوال سنوات النعاسة العديدة . وإذا لم تمسك بزمام الأمور في يديها بعزم غير عادي فإن حكمها وحياتها سوف ينتهيان وشيكاً . ولكنها ذهبت بنفسها إلى جلد هول وواجهت اجتماعاً ثائراً كان يتباحث إلى أي جانب ينحاز . وقالت للجميع إنها على استعداد تام لأن تتخلى عن فكرة الزواج الإسباني إذا كانت هذه رغبة العموم ، وقالت حقاً « إنني على استعداد لأن أمسك عن الزواج طوال حياتي » ولكنها لن تسمح في الوقت نفسه أن يتحول موضع الخلاف إلى « عبادة إسبانية » لثورة سياسية . وقالت : « إنني لا أستطيع أن أقول كيف تحب الأم طفلها بفطرتها لأنني لم أكن يوماً أما ، ولكن لا شك أنه إذا كانت الملكة يمكن أن تحب رعاياها حباً طبيعياً وحراراً كما تحب الأم طفلها ، فإنني أؤكد أنني باعتباري سيدتكم ومولاتكم ، أحبكم حباً حاراً رقيقاً وأعطف عليكم^(٣٩) » . وقوبات كلماتها وروحها بتصفيق حار ، وتعهد الجمع بتأييدها . واستطاع وكلاء الحكومة ، في يوم تقريباً ، أن يحشدوا ٢٥٠٠٠ رجل مسلح وقبض على سفولك وفركروفت وكاريو إلى مخبأ . أما ويات فقد قاد ، بعد أن تخلى عنه زملاؤه على هذا النحو ، قوة صغيرة قاتل بها في شوارع لندن ، وشق طريقه تفريراً إلى قصر الملكة في هويتبول . وتوسل الحراس إلى ماري أن تهرب ، ولكنها رفضت وأخيراً غلب رجال ويات

على أمرهم فاستسلم بعد أن وهن منه الجسد والروح وأخذ إلى سجن البرج وتلصقت ماري عبر الأمان مرة أخرى ولكنها لم تعد قط الملكة الرقيقة .

٤ - « ماري الدموية » : ١٥٥٤ - ٥٨

كثيراً ما أدان مستشاروها سياستها القائمة على الصنح . وقد لامها الإمبراطور وسفيره على السماح بالحياة بل وبالحرية لأشخاص تأمروا ضدها وسوف يكونون أحراراً لتكرار هذا - وسئلت كيف يستطيع فيليب أن يأمن على نفسه في بلد ترك فيه أعداؤه يمرحون بلا عائق ليدبروا مؤامرة لاغتياله ؟ وكان من رأى الأسقف جاردنر أن الرحمة بالأمة تتطلب إعدام الخونة . وتملك الذعر الملكة فمالت إلى العمل بأراء مستشاريها . وأمرت بإعدام الليدى جين جراى التى لم ترغب قط فى أن تكون ملكة ، وزوج جين ، الذى أراد أن يكون ملكاً ، وانطلقت جين ، وهى فى السابعة عشرة من عمرها ، إلى حتفها وهى تؤمن بأن هذا قدرها ، دون أن تبدى احتجاجاً أو تذرف دموعاً (١٢ فبراير سنة ١٥٥٤) . وقطع رأس والدها سفولك وشنق مائة من صغار الثوار . وأبقى على حياة بعض المتآمرين إلى حين أملا فى أن ينزع منهم اعترافات مفيدة ، وأتهم ويات فى مبدأ الأمر إليزابث بأنها على علم بالخطة ، ولكن عندما وقف على المنصة (١١ ابريل سنة ١٥٥٤) برأها من كل علم بها . وأطلق سراح كورنتاى بعد أن سجن عاماً وأقصى عن البلاد . وأشار شارل على ماري بإعدام كورنتاى وإليزابث باعتبارهما مصدر تهديد دائم لحياتها . وأرسلت ماري إلى إليزابث بالحضور واحتفظت بها فى قصر سانت جيمس شهراً ثم سجنتها شهرين فى البرج . وحثها رينارد على لتفيد حكم الإعدام فيها فوراً ، ولكن ماري اعترضت وقالت إنه لم يثبت اشتراك إليزابث فى الجريمة (٤٠) ، وظلت حياة إليزابث خلال هذه الشهور المشثومة معلقة فى الميزان ، وساعد هذا الرعب على تكوين شخصيتها القائمة على الريبة

واستشعار الخطر ، وكان له صدها فيما اتسم به عهدهما المتأخر من قسوة عندما ساورها بشأن ماري ستيوارت نفس القلق الذي كان يساور ماري تيودور وقتذاك حول إليزابث . وفي ١٨ مايو نقلت من أصبحت ملكة في الأيام التالية إلى وود ستوك حيث عاشت مطلقة السراح في معتقل تحت الرقابة : وأدى خوف ماري من مؤامرة أخرى تدبر لتولية إليزابث على العرش إلى أن تتعجل ماري الزواج أملاً في أن تحظى بالأمومة .

ولم يكن فيليب متلهفاً إلى هذا الحد . وتزوج ماري يوم ٦ مارس سنة ١٥٥٤ بطريق الوكالة ولكنه لم يصل لإنجلترا قبل يوم ٢٠ يوليو ، ودهش الإنجليز وسرهم أن يجذوه شخصاً يمكن احتماله بدنياً واجتماعياً : وجه غريب مثلث الشكل تقريباً ينحدر من جبهة عريضة إلى ذقن مدبب يزينه شعر أصفر ولحية ، ولكنه يمتاز بخلق كريم وبديهة حاضرة ومواهب تصلح لأي شيء ، ولم يبد أي إيماء بأنه هو وحاشيته يعدون الإنجليز براية . بل إنه قال كلمة رقيقة في صالح إليزابث ، ولعله كان يتنبأ بأن ماري ربما لا ترزق بذريرة وأن إليزابث قد تكون يوماً ملكة ، وذلك يكون شراً أهون من أن ترتقى ماري ملكة الإسكوتلنديين - التي ارتبطت منذ عهد بعيد بفرنسا - عرش إنجلترا . وعلى الرغم من أن ماري كانت أكبر سنّاً بكثير من فيليب فلما تطلعت إليه بإعجاب ساذج ، وكادت متعطشة إلى الحب طوال سنوات عديدة ، فابتهجت وقت ذلك لفوزها بأمير ساحر وقوي إلى هذا الحد ، ومنحته نفسها بإخلاص لا شك فيه إلى حد أن الحاشية تساءلت هل أصبحت إنجلترا بالفعل تابعة لإسبانيا ، وكتبت نشارل الخامس في تواضع رسالة تقول فيها إنها : « أسعد مما أستطيع التعبير عنه لأنني في كل يوم أكتشف في زوجي الملك من الفضائل العديدة وصفات الكمال ما يدفعني باستمرار إلى أن أتضرع إلى الله أن يهني العون لأسعده (٤١) » .

وكانت رغبتها في أن تلد ابناً لفيليب وولى عهد لإنجلترا ، عارفة استغرقت كل اهتمامها إلى حد أنها سرعان ما تصورت أنها حامل . ولقي انقطاع الطمث عندها وقتذاك ترحيباً ، باعتباره شارة ملائمة ، وألجم الأمل السنة من خطر لهم أن تلك الحالة حدثت لها كثيراً من قبل . وتقبل الناس الاضطرابات الهضمية على أنها أدلة أخرى على الأمومة ، وأبلغ سفير البندقية أن « حلمتى » الملكة قد انتفختا ودر ثدياها لبناً . وابتهجت ماري وقتاً طويلاً عندما راودتها فكرة أنها أيضاً يمكن أن تحمل طفلاً شأنها في هذا شأن أفقر امرأة في مملكتها ، ولا نستطيع أن نتصور مدى تعاستها عندما أقنعها أطباؤها آخر الأمر أن انتفاخ بطنها إنما حدث بسبب الاستسقاء ، وفي غضون ذلك كانت شائعات حملها قد اكتسحت إنجلترا وأقيمت الصلوات ونظمت المواكب من أجل ولادتها السعيدة ، وسرعان ما انتشرت شائعة بأنها أنجبت ولداً . وأغلقت الحوانيت ابتهاجاً واعتبر اليوم عطلة واحتفل الرجال والنساء في الشوارع ، وقرعت نواقيس الكنائس وأعلن أحد رجال الدين أن الطفل « أشقر وجميل » كما يليق بأمير (٤٢) . وتحطمت ماري من الإحباط والحجل فانزوت شهوراً عن أنظار الجمهور ،

وشعرت بالعزاء إلى حد ما بعودة الكاردينال بول إلى إنجلترا . وكان شارل قد أخرج بول عن السفر في بروكسل لأنه عارض الزواج الإسباني ، أما وقد تم هذا الزواج فلإن اعتراضات الإمبراطور هدأت ، وعبر الكاردينال القناة بصنفته قاصداً رسوليّاً (٢٠ نوفمبر سنة ١٥٥٤) إلى البلاد التي كان قد تركها منذ اثنين وعشرين عاماً ، وقوبل بترحيب حار من الموظفين ورجال الاكابر وس والشعب أثبت الرضا العام عن تجديد العلاقات مع البابوية . وحيما ماري بعبارة تكاد تكون منتفاة من معجمه : « السلام عليك يا مريم ، الممتلئة بالنعمة ، الرب معك . أنت مباركة بين النساء Ave Maria, gratia Plena, Dominus tecum, benedicta tu in mulieribus وكان على ثقة

من أنه قريباً سوف يردف قائلا : « مباركة ثمرة رحمةك (٤٣) » .

وعندما علم المجلس النيابي أن بول جاء معه بموافقة البابا على احتفاظ الحائزين الحاليين بأملك الكنيسة المصادرة فرح الجميع ، كما يحدث في أي زفاف . وأعرب أعضاء المجلس النيابي وهم راكمون عن ندمهم لما ألحقوه من إساءات بالكنيسة ومنح الأسقف جاردنر التائبين الغفران بعد أن اعترف بتذنبه . واعترف بسيادة البابا في الشؤون الكنسية وأكد حقه في دخول السنة الأولى للأساقفة حديثي التعمين و « الثمرات الأولى » وأعيد إنشاء المحاكم الأسقفية وأعيدت ضرائب العشور الأبرشية لرجال الاكليروس وجددت القوانين القديمة ضد اللولاردية وأعيدت الرقابة على المطبوعات من سلطات الدولة إلى سلطات الكنيسة . وبدأ كل شيء كسابق عهده بعد غنمة دامت عشرين عاماً .

وليث فيليب مع ماري ثلاثة عشر شهرا يأمل في أن يرزق بطفل ، وحينما لم يظهر أي دليل مؤكد رجاها أن تسمح له بالذهاب إلى بروكسل حيث كان نزول والده عن العرش يقتضى حضوره . ووافقت في حزن وانطلقت معه إلى النقالة المائة التي سوف تقله إلى أدنى نهر النيمس ، وأخذت ترتب النقالة من نافذة إلى أن اختفت (٢٨ أغسطس سنة ١٥٥٥) . وشعر فيليب نه قد أدى واجبه طوال سنة لقي فيها من أمره عسراً وهو يطارح الغرام امرأة مريضة ، وكافأ نفسه بسيدات بروكسل القويات البنية .

وكان بول وقتذاك أعظم رجل يتمتع بالنفوذ في إنجلترا . وشغل نفسه بإعادة تنظيم الكنيسة الإنجليزية وإصلاحها . وأعاد فتح بعض أديار الرهبان ودير للراهبات بمساعدة ماري . وسعدت ماري عندما رأت بعث العادب الدينية القديمة ، وسرها أن ترى الصليبان والصور المقدسة في الكنائس مرة أخرى ، وأن تشترك في مواكب تتسم بالورع مع التساوسة أو الأطفال أو الطوائف المهنية فتعجاس أو تركع لتخضر قداسات تقام للأحياء والأموات .

رغسات وقبنت يوم خميس العهد عام ١٥٥٦ أقدام لإحدى وأربعين امرأة مسنة وهي تذلّف على ركبها من واحدة للأخرى ومنحّتن جميعها صدقات^(٤٤). وما دام الأمل في الأمومة قد تبدد أصبح الدين سلواها التي تعينها على الاحتمال .

ولكنها لم تستطع أن تبعث الماضي تماماً . فقد حفزت الأفكار الجديدة إلى اضطراب مثير في عقول أهل المدينة ، وكانت لا تزال هناك اثنتا عشرة طائفة تنشر كتبها وعقائدها في الخفاء . وتأملت ماري عند ما سمعت عن جماعات تنكر ألوهية المسيح ووجود الروح القدس وانتقال الخطيئة الأولى . وخيل إليها أن هذه الهرطقات تعد جرائم مهلكة بالنسبة لإيمانها الساذج وأنها أسوأ بكثير من خيانة الدولة . هل في وسع المراطقة أن يعرفوا كيف يعاملون الروح الهشرية خيراً مما يعرفه كاردينالها المحبوب ؟ وتراى إلى أسماعها أن واعظاً تضرع بصوت عال أمام جمهور أبرشيته أن يهديها الله أو يرفعها من الأرض^(٤٥) . وألقى يوماً كلب ميت ، حلق شعر رأسه جرياً على عادة الرهبان ، وحول عنقه حبل ، من نافذة في غرفة الملكة^(٤٦) . وفي سكت جدد أنف قسيس^(٤٧) . ورأت ماري أنه من غير المعقول أن يقوم المهاجرون البروتستانت الذين سمحت لهم بالرحيل عن إنجلترا في سلام ، بإرسال كتيبات يهاجمونها فيها ويصفونها بأنها حقاء رجعية ويتحدّثون عن « صلاة لاتيئية مكروهة عند إقامة قداس وثني^(٤٨) » . وحثت بعض الكتيبات قوادها على أن يهبوا في ثورة ويخلعوا الملكة^(٤٩) . وعقد اجتماع من ١٧٠٠٠ شخص في أولدچيت (١٤ مارس سنة ١٥٥٤) ونادى بوضع إليزابث على العرش^(٥٠) . وكانت حوادث التمرد في إنجلترا من تدبير البروتستانت الإنجليز في الخارج .

وكانت ماري تنزع بفطرتها وعادتها إلى الرحمة - حتى عام ١٥٥٥ فماذا حولها إلى ملكة تحظى بأكبر قدر من الكراهية بين الملكات

الإنجليزيات ؟ هناك استفزاز الهجمات التي أظهرت عدم الاحترام لشخصها أو عقيدتها أو مشاعرهما من ناحية ، وهناك الخوف من أن تكون الهرطقة ستاراً لثورة سياسية من ناحية ثانية ، وهناك الشدائد التي عانتها وخيبة الأمل المتكررة التي كدرت صفو روحها وجعلت حكمها على الأشياء مظلماً من ناحية ثالثة ، وهناك إيمانها الذي لا يتزعزع بصواب آراء مستشاريها الذين تثق بهم أكثر من أى شخص آخر - فيليب وجاردنر وبول - التي تذهب إلى أن الوحدة الديلية أمر لا غنى عنه للتضامن القومى وبقائه . وسرعان ما أفصح فيليب عن مبادئه فى الأراضي المنخفضة . وكان الأسقف جاردنر قد أقسم بالفعل (ربيع عام ١٥٥٤) أن يحرق الأساقفة البروتستانت الثلاثة - هوبر وريدلى ولا تيمر - ما لم يرتدوا عن عقيدتهم (٥١) . وكان الكاردينال بول ، مثل مارى ، ينزع بفطرته إلى الرحمة ولكنه كانت لا تلين له قناة فى العقيدة ، وقد أحب الكنيسة حباً جماً إلى حد أنه كان يرتجف للتشكك فى عقائدها أو سلطتها . ولم يكن له دور قيادى مباشر أو شخصى فيما قامت به مارى من اضطهاد ، وأشار بالاعتدال وأطلق مرة سراح عشرين شخصاً كان الأسقف بونر قد حكم عليهم بالموت حرقاً (٥٢) .

ومع ذلك فإنه أصدر تعليماته لرجال الأكليروس بأنه إذا فشلت كل طرق الإقناع سلمياً فإن كبار الهرطقة يجب أن تنتزع منهم الحياة ويستأصلوا مثل الأطراف الفاسدة من الجسد (٥٣) . « وأعربت مارى عن رأيها فى تردد . » نعتقد أن إثارة عقاب الهرطقة يجب أن يتم بغبر اندفاع ولا نتخلى فى الوقت نفسه عن إقامة العدالة لهؤلاء الذين يسعون إلى خداع البسطاء (٥٤) . وكانت مسئوليتها فى بادئ الأمر مقصورة على الإذن ولكنها كانت حقيقة .

وعندما تبين لها (١٥١٨) أن الحرب مع فرنسا قد عادت عليها وعلى

إنجلترا بالوبال عزت القشل إلى غضب الله عليها لترفقها بالهرطقة وتشددت قطعاً بعد ذلك في الاضطهاد .

وافتح جاردنر عهد الإرهاب بأن استدعى إلى محكمته الأسقفية سنة من رجال الإكليروس (٢٢ يناير سنة ١٥٥٥) كانوا قد رفضوا قبول العقيدة التي توطدت من جديد(*) :

وارتد واحد منهم وأحرق أربعة منهم جون هوبر وأسقف جلوسستر وورسستر الذي أقيـل (٤ - ٨ فبراير سنة ١٥٥٥) . ويبدو أن جاردنر أصيب بانتكاس في الشعور بعد تنفيذ هذه الأحكام بالإعدام فلم يشترك بعد ذلك في الاضطهاد ، وانهارت صحته ومات في نوفمبر من هذا العام . واضطلع الأسقف بونر بالمذبحة . ونصح فيليب ، وكان لا يزال بإنجلترا ، بالاعتدال وعندما أذان بونر ستة ، وحكم عليهم بالحرق اعترض سفير الإمبراطور رينار على « هذا التهور البربري (٥٧) » وندد كاهن الاعتراف النخلص لفيليب ، وهو أخ أسباني من الرهبان ، وهو يعظ أمام الحاشية ،

(*) إن المصدر الأساسي لما قامت به ماري من اضطهاد هو كتاب جون فوكس وعنوانه : « في أمور الكنيسة وفي التعليق على ما ثرها **Rerum in ecclesia gestarum Commentarii** » (١٥٥٩) الذي ترجم إلى الإنجليزية بعنوان : « أفعال وآثار » (١٥٦٣) ويعرف بغير كلفة باسم « كتاب الشهداء » وأصبح الوصف الواضح لمحاكمات البروتستانت ووفياتهم من المقتنيات الحبيبة عند الأسرة بعد الكتاب المقدس عند المتطهرين (البيوريتان) ، وعلى الرغم من أن التساوسة من الآباء اليسوعيين نشرها (١٥٠٣) خمسة مجلدات تهاجم صحة ما ورد فيه فقد كان له أثر قوى في تكوين مزاج إنجلترا في عهد ليفر كرومويل . وقد انتقده الكثيرون من رجال الكنيسة البروتستانت لما فيه من المبالغة والخصم في النقل والتحايل وعدم العناية بالتفاصيل (٥٥) . ويقارن مؤرخ كاثوليكي بينه وبين سير القديسين في القرون الوسطى في مدى ما يمكن الوثوق به مما ورد فيه ، ويختم كلامه بقوله إنه على الرغم مما يكتنف الكثير من التفاصيل من شكوك « فليس هناك من يشك في أن هذه الأحداث وقعت بالفعل » (٥٦) .

بالأحكام باعتبارها مخالفة لروح المعتدلة والمتساهلة التي حث عليها المسيح (٨٥) مراراً وتكراراً . وأوقف بونر الأحكام لمدة خمسة أسابيع ، ثم أمر بتنفيذها ، وأعتقد أنه كان رقيقاً متساهلاً ، والحق أن مجاس الملائكة أنه يوماً لأنه لا يظهر حماسة كافية في . طاردة الهرطقة (٥٩) وعرض على كل هرطيق منحه عفواً كاملاً إذا ارتد عما يقول ، وكثيراً ما أضاف وعداً بتقديم مساعدة مالية أو عمل صريح (٦٠) ، ولكن عندما كانت هذه الإغراءات تفشل كان يجيز الحكم بشراسة ، وكانت توضع عادة حقيقة ممثلة بالبارود بين ساقى المحكوم عليه حتى تؤدي السنة اللهب إلى موت سريع ، ولكن الخشب احترق ببطء في حالة هوبر ، وخاب أثر البارود فلم ينفجر . وقامى الأسقف السابق آلاماً استمرت ساعة تقريباً .

- وكان معظم الشهداء عمالاً بسطاء تعلموا تلاوة الكتاب المقدس وشجعوا على العمل بالتفسير البروتستانتي له إبان الحكم السابق . ولعل المضطهدين رأوا أن من العدل استدعاء رجال الدين الذين بذلوا الجهد لتحفيظ مبادئ العقيدة البروتستانتية ، ليشهدوا لها بالاستشهاد ، وفي سبتمبر سنة ١٥٥٥ أحضر كرانمر وعمره ستة وستون عاماً ، وريدلى وعمره خمسة وستون عاماً ، ولاتيمر ، البالغ من العمر ثمانين عاماً ، من سجن البرج ليقفوا للمحاكمة في أكسفورد . وكان لاتيمر قد لطح صفحة حياته البليغة بالموافقة على إحراق المنكرين للتعجيل والفرنسيسكان العنيدين في عهد هنرى الثامن . وكان ريدلى قد أيد بنشاط اغتصاب جين جراى للعرش ، ووصف ماري بأنها ابنة سفاح وساعد في خلع بونروجاردنر من كرسيهما الأستقيين .

وكان كرانمر الرأس المفكر للإصلاح الدينى الإنجليزى ، فقد أحل زواج هنرى وكاترين ، وزوج هنرى من آن بواين ، واستبدل بالقداس كتاب الصلاة العامة واضطهد فريث ولامبرت وغيرهما من الكنايسة ،

ووقع وصية إدوارد بالتاج لـجين جراى ، وندد بالقداس باعتباره كفرة ، وكان هؤلاء الرجال وقتذاك فى البرج منذ عامين يتوقعون الموت كل يوم .

وحوكم كرانمر فى أكسفورد فى اليوم السابع من سبتمبر . وقام قضاته بكل جهد ممكن للحصول منه على إنكار لما ذهب إليه . فتمسك بموقفه بحزم وحكم عليه بأنه مذنب ، ولكن لما كان رئيساً للأساقفة فإن الحكم عليه ترك للبابا وأعيد إلى سجن البرج . وفى ٣٠ سبتمبر حركم ريدلى وتشبث بموقفه وفى اليوم نفسه اقتيد لاتيـمر أمام المحكمة الكنسية ، وكان وقتذاك رجلاً لا يزال بالحياة ، يرتدى ثوباً قديماً مهلهلاً ورأسه الأبيض تكسوه قلنسوة فوق طاقة نوم فوق منديل وتعدى نظاراته من عنقه وربطت بزئارة نسخة من العهد الجديد . وفى اليوم الأول من أكتوبر حكم عليهم بالإدانة وأحرقوا فى اليوم السادس من أكتوبر . وركعوا أمام المحرقة وصلوا معاً . وربطوا بالأغلال إلى عمود حديدى وعلقت حول عنق كل رجل حقيبة ممتلئة بالهارود وأشعلت حرم الحطب . وقال لاتيـمر : « تهلل ولا تهتمس يا سيد ريدلى وتصرف كرجل ، فإننا فى هذا اليوم سوف نشعل شمعة بفضل الله فى إنجلترا ، وأنا على يقين أنها لن تطفأ أبداً (٦١) » .

وفى الرابع من ديسمبر أيد البابا الحكم على كرانمر . واستسلم رئيس الأساقفة البروتستانتى الأول فى كنتبرى لخوف يغتفر له ، ولم يكن فى وسع رجل استطاع أن يكتب بإنجليزية قوية الدلالة كتاباً مثل كتاب الصلاة العامة مواجهة هذه المحن دون أن يتعرض لآلام غير عادية فى الجسد والعقل

ولعل كرانمر تأثر بنساء بول الحار فقرر قوله إنه : « تخلى عن كل طرق الهرطقة وأخطأ اوثر وزوينجلى وكرهها وأبغضها » : وأقر بإيمانه بالشعائر المقدسة السبع واعترف بالتجسيد والمطهر وكل تعاليم الكنيسة الرومانية .

وكان إنكاره هذا قينا بأن يستبدل به الحكم بسجنه جرياً على ما حدث في جميع السوابق ، ولكن ماري (طبقاً لما قاله فوكس) رفضت إنكاره لمعتقده على أساس أنه يفتنر إلى الإخلاص وأمرت بإعدام كرانمر (٦٢)

وفي كنيسة سانت ماري بأكسفورد ثلاثي صبيحة يوم لإعدامه (٣١ مارس سنة ١٥٥٦) إنكاره السابع والأخير . ثم أضاف لدهشة جميع الحاضرين .

وأجىء الآن إلى الأمر العظيم الذى يؤرق ضميرى أكثر من أى شىء آخر فعلته أو قلته طوال حياتى وذلك هو تدبيج رسالة فى الخارج تخالف الحقيقة . وأنا الآن أتبرأ منها وأرفضها . . . لأنها كتبت خوفاً من الموت . . . وذلك شأن جميع البيانات والأوراق التى كتبتها أو وقعت عليها بيدي منذ تجريدي من منصبى . . . وما دامت يدي قد أتمت ، بكتابة ما يخالف صدق مشاعرى فإن يدي سوف تعاقب على ذلك لأنها . . . سوف تحرق أولاً . . . أما بالنسبة للبابا فإني أرفض اعتباره عدواً للمسيح وخارجاً على المسيحية (٦٣) .

وعندما اقتربت السنة الثمان من جسده وهو على المحرقة مد يده فيها واحتفظ بها هناك ، كما يقول فوكس : « ثابتة لا تتحرك ... حتى يستطيع كل الناس أن يروا يده تحترق قبل أن تمس النار جسده . وأخذ يردد كثيراً كلمات ستيفن « رباه ! تقبل روحى » فى عظمة اللهب الذى سلم الروح القدس (٦٤) .

وكانت وفاته دليلاً على بلاغ الاضطهاد ذروته . ومات نحو ٣٠٠ شخص فى أثنائه منهم ٢٧٣ فى السنوات الأربع الأخيرة من ذلك العهد . وكانما مضت المحرقة فدماً أصبح من الواضح أنها كانت خطأ . واستمدت البروتستانتية للقوة من شهادتها كما فعلت المسيحية فى بواكير عهدنا وانزعج كثير

من الكنائس في عقيدتهم وشعروا بالخزي من ملكتهم بسبب ما كابده الضحايا من آلام وما أظهره من جلد . وعلى الرغم من أن الأسقف بوئر لم ينعم بالعمل فقد أطلق عليه اسم « بوئر الدموي » لأن أسقفيته شهدت معظم ما نفذ من أحكام الإعدام ووصفته امرأة بأنه « الذباح المعروف وعبد الخبزرة العامة لكل الأساقفة في إنجلترا (٦٥) » ، ووجد المئات من الإنجليز البروتستانت ملجأ في فرنسا الكاثوليكية وسعوا هناك إلى وضع نهاية للعهد الخزين .

وبينما كان هنري الثاني يطارد البروتستانت الفرنسيين فإنه شجع على تدبير المؤامرات الإنجليزية ضد ماري الكاثوليكية التي أدى زواجها بملك إسبانيا إلى ترك فرنسا محاطة بقوى معادية . واكتشف العملاء البريطانيون في أبريل عام ١٥٥٦ مؤامرة يتزعمها هنري ددلي نخلع ماري وتولية اليزابث على العرش . وتم القبض على عدة أشخاص منهم اثنان من أفراد بيت اليزابث ، وأقبح اعتراف اسم اليزابث نفسها والملك الفرنسي . وقعت الحركة ولكنها تركت ماري في خوف دائم من الاغتيال .

وواجهت جماعة من الهاربين محناً كشفت عن مزاج العصر الذي تسلط العقيدة عليه ، فقد جاء إلى لندن عام ١٥٤٨ جان لاسكي ، وهو كالفيني بولندي وأنشأ هناك أول كنيسة مشيخية في إنجلترا . وبعد ارتقاء ماري العرش بشهر ترك لاسكي وجانب من جمهور المصلين معه لندن في سفينتين دتمركيتين . وفي كوبنهاجن منعوا من الدخول ما لم يوقعوا على الاعتراف الرسمي اللوثرى الخاص بالعقيدة . فأبوا باعتبارهم كالفينيين متمسكين بعقيدتهم . ولم يسمح لهم بالنزول ، فسافروا بجرأ إلى وسمار ولييسك وهامبورج ، وفي كل حالة كانوا يواجهون بالمثل نفسه ويردون بالرفض (٦٦) . ولم يذرف اللوثريون في ألمانيا أية دموع على ضحايا ماري بل نددوا بهم باعتبارهم هراطقة مكروهين و « شهداء للشيطان » بسبب إنكارهم وجود المسيح حقاً في القربان (٦٧) المقدس . وأدان كالفن تعصب اللوثرين الذي لا يعرف الرحمة ، وفي ذلك العام

(١٥٥٣) أحرق سرفيتوس في المحرقة . وبعد أن ظل الهاربون تتقاذفهم أمواج بحر الشمال معظم أيام الشتاء سمح لهم بالدخول أخيراً ووجدوا معاملة إنسانية في إمدن .

وسارت ماري إلى نهايتها المحتومة بقدر كئيب . وكان زوجها التقي في حرب غير منطقية وقتلها مع البابوية وكذلك مع فرنسا ، وجاء إلى إنجلترا (٢٠ مارس سنة ١٥٥٧) وحث الملكة على أن تشارك إنجلترا في الحرب باعتبارها حليفة . ولكي يخفف من كراهية الإنجليز لمهمته ، أقنع ماري بالاعتدال في الاضطهاد (٦٨) ، ولكنه لم يستطع أن يكسب بسهولة تأييد الجمهور بل كان الأمر على العكس ، فبعد شهر من وصوله أشعل توماس ستافورد ، ابن أخى الكاردينال بول ، ثورة لتحرير إنجلترا من ماري وفيليب على الهواء ، ولكنه هزم وشنق (٢٨ مايو سنة ١٥٥٧) ولقد أنزع البابا كأس الملكة تعاسة برفضه الاعتراف ببول قاصداً رسوليا واتهم بالهرطقة . وكانت ماري في لطفة لإرضاء فيليب ومقتنعة أن هنرى الثامن قد أيد ستافورد في مؤامرتة ، فأعلنت الحرب على فرنسا في ٧ يونية . وبعد أن حقق فيليب غرضه غادر إنجلترا في يوليو . وراود الشك ماري في أنها لن تراه أبداً مرة أخرى . وقالت : « سوف أعيش ما بقي من أيامى دون رفيق من الرجال (٩٦) » . وفقدت إنجلترا في هذه الحرب التي لم ترغب فيها كاليه (٦ يناير سنة ١٥٥٨) التي كانت قد احتفظت بها ٢١١ عاماً وآلاف الإنجليز من الرجال والنساء الذين عاشوا هناك وفروا الآن إلى بريطانيا ، لاجئين معدمين ، وأذاعوا الاتهام المرير المنسوب إلى حكومة ماري بأنها أهملت إهمالاً لإجراميا في الدفاع عن آخر ممتلكات إنجلترا في الفارة . وعقد فيليب صلحا موافقا له دون أن يطلب استعادة كاليه . وكانت ثمة عبارة قديمة تتردد هى أن ذلك الميناء الثمين كان « ألمع جوهرة في التاج الإنجليزي » . وأضافت ماري عبارة أخرى إلى الحكاية « عند ما أموت وتفتحون صدرى فسوف

تجدون كاليه في قلبي (٧٠) . وفي أوائل عام ١٥٥٨ اعتقدت الملكة مرة أخرى أنها حامل . وكتبت وصيتها إذ كانت تتوقع أن تكون ولادتها خطيرة وبعثت برسالة إلى فيليب تتوسل إليه فيها أن يحضر الحادث السعيد . فبعث إليها بتهانیه واكن لم تكن هناك ضرورة لحضوره ، فقد كانت ماري على خطأ . وكانت وقتذاك امرأة مهجورة من الجميع ، ولعلها كانت مخبولة إلى حد ما . كانت تجلس على الأرض الساعات الطوال وركبتها مرفوعتان إلى ذقتها ، وكانت تتجول في قاعات القصر مثل شبح ، وكتبت رسائل لطختها بدموعها للملك الذي توقع وفاتها ، فأمر عملاءه في إنجلترا أن يستميلوا قلب اليزابث لزوج من أمير إسباني أو من فيليب نفسه .

وفي أيام الصيف الأخير من حياة ماري انتشر وباء حمى البرداء في إنجلترا وأصيبت به الملكة في سبتمبر عام ١٥٥٨ وتحالف مع الاستسقاء و « زيادة الصفراء السوداء » فأضعفها إلى حد أن رغبتها في الحياة ثلاثت . وفي ٦ نوفمبر بعثت بجواهر التاج إلى اليزابث . وكان هذا عملاً كريماً أذعن فيه حبها للكنيسة لرغبتها في منح إنجلترا وراثه منظمة للعرش . وتعرضت للغيوبة فترات طويلة واستيقظت من إحدى هذه الغيوبات لترى كيف رأت حلماً سعيداً عن أطفال ياعبون ويغنون أمامها (٧١) . وفي ١٧ نوفمبر سمعت القديس مبكراً وهتفت بالعبارات التي يرددونها المصاوم عادة وراء القس بحرارة . وماتت قبل الفجر .

وفي اليوم نفسه مات الكاردينال بول ، الذي منى بهزيمة منكرة مثل مايكته . ولا بد لنا عند تقديره أن نسجل الحقيقة المرة وهي أنه كان قد أذعن ثلاثة رجال وامرأتين وحكم عليهم بالموت حرفاً بتهمته الهرطقة في مستهل القرن السادس عشر . ثم أن كل هذه التهم ما عدا المنكرين للتعميد في تلك الفترة هي من قبيل التهم التي كانت ترمى في ذلك الوقت على الملوك والنبلاء . ولندن لم

يحدث في أى مكان في العالم المسيحي المعاصر - حتى في إسبانيا - أن أحرق هذا العدد للكبير من الرجال والنساء بسبب آرائهم كما حدث في عهد تولى ريجينالد هول رئاسة الكنيسة الإنجيلية .

وفي وسعنا أن نقول كلمة رفيقة عن ماري . فقد أدّى الحزن والمرض وكثير مما تعرضت له من أخطاء إلى انحراف عقلها . ولم تتحول من الحلم إلى القسوة إلا بعد مؤامرات كانت تستهدف حرمانها من التاج الذى تضعه على رأسها وأصاحت السمع في ثقة زائدة لرجال الدين الذين سعوا إلى الانتقام بعد أن تعرضوا هم أنفسهم للاضطهاد . وكانت تعتقد حتى آخر لحظة في حياتها أنها بالقتل إنما تؤدي فرائضها نحو العقيدة التى أحببتها كرجال حيوى لبقائها . وهى لا تستحق اسم « ماري الدموية » ما لم تسحب تلك الصفة على عصرها بأسره ، فهويهنون بلا رحمة من شأن شخصية فيها الكثير من الصفات ، التى تستحق الحب :

وإن امتيازها العجيب إنما هو استمرارها في العمل الذى بدأه والدها لإبعاد إنجلترا عن روما . وأظهرت لإنجلترا ، ولما نزل كاثوليكية ، أسوأ جانب للكنيسة التى خدمتها ، ولما ماتت كانت إنجلترا مهياة أكثر من ذى قبل لاعتياق العقيدة الجديدة التى جاهدت للقضاء عليها .

الفصل السابع والعشرون

من روبرت بروس إلى جون نوكس

١٣٠٠ - ١٥٦١

١ - الإسكوتلنديون الذين لا يقهرون

إن الجنوب الحار اللطيف يولد الحضارة والشمال البارد القاسى يتغلب مراراً على الجنوب المتهاون الكسول ويستوعب الحضارة ويحورها ، وإن بلاد أقصى الشمال - سكوتلنده والنرويج والسويد وفنلنده - لتكافح العناصر التي تكاد تشبه الظروف القطبية الشمالية لتقوم بشيء من الترجيب بالحضارة وتسهم فيها وهي تواجه ألف عقبة .

ولقد شجعت الهضاب المجذبة الخالية من الطرق على قيام الإقطاع ولم تشجع على الزراعة ، بينما رحبت الأراضي المنخفضة الخضراء الخصيبة بغزوة بعد غزوة قام بها الإنجليز الذين لم يستطيعوا أن يدركوا لماذا لا تستقبل سكوتلنده تدفعهم عليها هم وملوكهم . وكان الإسكوتلنديون قديماً من الكلتيين واختلطوا في القرون الوسطى بالأيرلنديين والنرويجيين والإنجليز والساكسون والنورمانديين ، وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانوا قد أصبحوا شعباً ضيق الأفق في المشاعر والأفكار - ومثلهم في ذلك مثل شبه جزيرتهم ، عميق الغور في الخرافة والأساطير مثل الضباب المنتشر عنده معتزلاً بنفسه مثل قننه البحرية ، فظاً مثل أرضه ، متهوراً مثل سيوله الجارفة ، وهو شرس ورقيق ، قاس وشجاع في آن واحد ، ولا يقهر أبداً . ويبدو أن الفقر ضارب

يجنونه في ظروفه الجغرافية والأخلاق في فقره ، وهكذا نشأ الشح من التربة الخائقة ، وكان الفلاحون يرزحون تحت وطأة الكدح والنصب ، فلم يكن لديهم متسع من الوقت لكتابة الرسائل ، أما النبلاء الذين أبقوهم في العبودية فقد فاحروا بالأمية ، إذ وجدوا ألا فائدة من تعلم حروف الأبجدية في ثاراتهم أو حروبهم ، وقسمت الجبال والعشائر السكان المشتمين إلى طوائف متناظرة متهورة لا يعفون عن أعدائهم في الحرب ولا يعطون أماناً في السلم . ولما كان النبلاء يملكون تقريباً كل أسباب الساطة العسكرية في فرقهم الخاصة فلأنهم سيطروا على المجلس النيابي وعلى الملوك . وكان لدى آل دو جلاس وحدهم ٥٠٠٠٠٠ ريه تابع ودخولهم تضارع دخل التاج .

وقبل عام ١٥٠٠ كانت الصناعة بدائية ومزلية والتجارة مضطربة ، والمدن قليلة وصغيرة . وكان تعداد سكان سكوثلندة كلها وقتذاك ٦٠٠٠٠٠٠ نسمة نصف عدد سكان جلاسجو اليوم . وكانت جلاسجو بلدة صغيرة تعمل بالصيد وكانت برت هي العاصمة حتى عام ١٥٤٢ ، وكان بأدنبره ١٦٠٠٠٠ نسمة .

وعبرت روح الاستقلال الفردية والمحلية والقومية عن نفسها في الأنظمة القروية والبلدية التي تتمتع بالحكم المحلي داخل إطار الإقطاع والملكية . وسمح لأوساط الناس - المواطنين المحررين من سكان المدن - بأن يكون لهم ممثلون في المجلس النيابي أو مجلس المقاطعات ، ولم يكن يحق لهم أن يجلسوا بين زملائهم من أعضاء العموم كما في إنجلترا ، ولكن بين ملاك الأراضي من الإقطاعيين ، وكانت أصواتهم تضيع في الأغلبية التي للنبلاء . ولما كان الملوك لا يستطيعون أن يوطدوا سلطانهم ضد النبلاء بالتحالف مع التجار والأغنياء والمدن الآهلة بالسكان ، كما هو الحال في فرنسا ، فإنهم سعوا إلى الحصول على التأييد من ثروة الكنيسة ونفوذها .

أما النبلاء فكانوا على طرفي نقيض مع الملوك وتعلموا أن يكرهوا الكنيسة ويحبوا أملاكها وانضموا في إطلاق الصرخة العامة التي تنادى

بأن الثروة للقومية إنما تصب في روما : وكان النبلاء في اسكوتلنדה -
وليس الملوك والتجار كما في إنجلترا - هم الذين نهضوا بالإصلاح الديني ،
أى تحرير العلمانيين من سلطة الكنسيين (١) .

وحققت الكنيسة الإسكوتلندية عن طريق تسلطها على تقوى الناس
لنفسها ثراء وسط فقر مدقع وآمال معلقة على العالم الآخر . وقام مبعوث
بابوي حوالى نهاية القرن الخامس عشر بإبلاغ البابا أن دخل الكنيسة في
إسكوتلنדה يعادل كل الدخول الأخرى مجتمة (٢) . وكان الوعاظ وأوساط
الناس يكادون يحتكرون معرفة القراءة والكتابة . وكان رجال الإكليروس
الإسكوتلنديون في القرن السادس عشر مشهورين بالتضاع في العلم ، وكانت
الكنيسة بالطبع هى التى أسست جوامع سانت أندروز وأبردين وحافظت
عليهما . وكان الأساقفة ورؤساء الأديار بعد عام ١٤٨٧ ينصبون - وفي
الواقع يعينون - بمعرفة الماوك الذين جمعوا من هذه المناصب مكافآت على
خدمات سياسية أو رواتب لأبنائهم غير الشرعيين . ووهب جيمس الخامس
ثلاثة من أبنائه من السفاح دخولا كنسية من كلسو وهاروز وهوليرودوسانت
أندروز : وكانت الميول الدنيوية طغوا على المعينين من الأسرة الملكية مسبوكة
إلى حدها عن فساد رجال الإكليروس في القرن السادس عشر .

ولكن الانحلال العام للأخلاق والنظام الذى اتسمت به الكنيسة أواخر
العصور الوسطى ، كان واضحا في اسكوتلنדה قبل تعيين الماوك الأساقفة بعهد
طويل . وكتب هيلير بلوك الكاثوليكي المتزمت يقول : « إن فساد الكنيسة
الذى استفحل شره في كل مكان في سائر أرجاء أوروبا في القرن الخامس
عشر ، قد وصل في إسكوتلنדה إلى درجة لم تعرف في أى مكان آخر (٣) » .
ومن هنا نشأ إلى حد ما عدم المبالاة الذى نظر به عامة الناس ، على
ما عرفوا به من محافظة على العتيبة ، إلى إحلال رجال الدين
البروتستانت محل رجال الدين الكاثوليك . وشكا الملك جيمس الأول عام

١٤٢٥ من فجور الرهبان وكسلهم ، وفي عام ١٤٥٥ اضطر قسيس في لينشجو قبل أن يتسلم وظيفته أن يعطى عهداً بأنه لن يرهن أملاك كنيسة ولن يحتفظ بـ « حظية دائمة » . وكان للكاردينال بيتون ثمانية أبناء من السفاج ، وضاجع ماريون أوجياني ليلا قبل أن يمضى لياتي خالقه (٥) ، وحصل جون رئيس أساقفة هاميلتون من جلسات مختلفة عقدها المجلس النيابي الإسكوتلندي على خطابات بشرعية ذريته المتزايدة : ولم يبخل شعراء ما قبل الإصلاح الديني في إسكوتلندا بكلمات في هجاء رجال الأكايروس بل إن رجال الأكايروس أنفسهم ، في المجمع المقدس الكاثوليكي الإقليمي لعام ١٥٤٩ عزوا انحطاط الكنيسة في إسكوتلندا إلى « الفساد في الأخلاق والفسق الدنس في حياة رجال الكنيسة من جميع الدرجات تقريباً » (٦) : ومهما يكن من شيء فلا بد من أن نضيف أن أخلاق رجال الأكايروس كانت مجرد انعكاس لأخلاق العلمانيين - وفوق كل شيء النبلاء والملوك :

٢ - وقائع ملكية ١٣١٤ - ١٥٥٤

إن الحقيقة الأساسية في تاريخ الدولة الإسكوتلندية هي الخوف من إنجلترا ، والحق أن الملوك الإنجليز حاولوا مرارا أن يلاحقوا إسكوتلندا بالتاج الإنجليزي من أجل سلامة إنجلترا من هجوم يباغتها من الخلف . وقبلت إسكوتلندا التحالف مع فرنسا عدو إنجلترا اللود لكي تحمي نفسها . ولذلك تبرز هذه الوقائع .

لقد ظفر الإسكوتلنديون بحريتهم من إنجلترا بانوكبرن (١٣١٤) بالأقواس والسهام والقووس المستخدمة في القتال : ولما كان روبرت هروس قد قادهم هناك إلى النصر ، فقد ظل يحكمهم حتى وفاته متأثراً ببدء الجلام (١٣٢٩) . وتوج ابنه دافيد الثاني ، شأنه في هذا شأن الملوك الإسكوتلنديين منذ أمد بعيد، على « حجر القدر » المقدس في دير سكون .

ولما بدأ إدوارد الثالث ملك إنجلترا حرب المائة سنة مع فرنسا ، رأى أنه من الحزم أن يضمن حدوده الشمالية ، فهزم الإسكوتلنديين في هاليدون هل ، وأقام إدوارد باليو العوبة له على عرش إسكوتلندة سنة ١٣٣٣ ، ولم يسترد دافيد الثاني التاج إلا بعد أن دفع للإنجليز فدية قدرها ١٠٠٠٠٠٠ مارك (٦٠٠٠٠٠٠ رطل) ، ونظراً لأنه لم يترك وريثاً مباشراً عند وفاته (١٣٧١) انتقلت المملكة إلى ابن أخيه روبرت ستيوارت الذى بدأت به أسرة ستيوارت المشهورة .

وسرعان ما استؤنفت حرب نصفي إنجلترا ضد الكل . وأرسل الفرنسيون جيشاً إلى إسكوتلندة ، وعاث الإسكوتلنديون والفرنسيون فساداً في بلاد إنجلترا الواقعة على الحدود؛ واستولوا على درهام وأعدموا كل سكانها - رجالاً ونساء وأطفالاً وراهبات ورهباناً وقساوسة . وقام الإنجليز بالحركة التالية في لعبة الشطرنج الملكى هذه فغزوا إسكوتلندة ، وأحرقوا برث ودندى ودمرو دير ماروز (١٣٨٥) ، وسار روبرت الثالث في الطريق نفسه ، ولكن عندما أسر الإنجليز ابنه جيمس (١٤٠٦) مات حزناً . واحتفظت إنجلترا بالملك الصبى في سجن لطيف إلى أن وقع الإسكوتلنديون « صلحاً دائماً » (١٤٢٣) وتخلوا عن كل تعاون بعد ذلك مع فرنسا .

وقد تعلم جيمس في الأسر ، قدرأ لا بأس به ، وحصل على عروس إنجليزية ، وألف في مدح هذه « الحمامة البيضاء » بلسان الإسكوتلنديين « كتاب الملك » وهو قصيدة مجازية يستكبر على ملك أن ينظم مثلها . والحق أن جيمس كان مبرزاً في عشرات الأمور : فقد كان واحداً من أحسن المصارعين والعدائين والفرسان ورماة السهام وقاذفى الحراب والصناع المهرة والموسيقين في إسكوتلندة ، وكان حاكماً مقبلاً كريماً . وفرض عقوبات على التجارة التي تفتقر إلى الأمانة والزراعة المهملة ، وبني المستشفيات وألزم الخانات بالإغلاق في الساعة التاسعة ، وحول طاقات الشباب من كرة القدم

إلى التدريبات العسكرية ، وطلب إصلاح النظام الكنسى وتقويم حياة الرهبان فى الأديار . وعندما بدأ حكمه الذشيط (١٤٢٤) تعهد بالقضاء على الفوضى والجريمة فى إسكوتلندة ، ووضع حد الحروب الخاصة بين النبلاء واستبدادهم الإقطاعى « إذا لم يهينى الله سوى حياة كلب فىنى سوف أجعل المفتاح يجرس القلعة والسرخس يرعى البقر » ، أى يقضى على السطو على البيوت والماشية - فى كل أنحاء إسكوتلندة (٧) . وسرق لص من أهل الجبال بقرتين من امرأة فأفسمت ألا تلبس أحذية أبداً حتى تسير إلى الملك لتتدد يضعف القانون فقال اللص « أنت تكذبين وسوف أعمل على أن تحتدى » وسمر حدودى حصان فى قدمها العاريتين . ومع ذلك وجدت طريقها إلى الملك وأمر بمطاردة اللص وطوف به حـ; برث ومعه لوحة من الخيش صورت عليها جريمة وحرص على أن يشق الوحش بلا إمهال . وفى غضون ذلك اشتجر النزاع فى وقته بينه وبين بارونات يضعون العراقيل فى طريقه فأتى بقليل منهم إلى منصة الإعدام وصادر الزيادة فى الأراضى المستأجرة وفرض المكوس على اللوردات وأوساط الناس على السواء وأعطى للحكومة الأموال التى احتاجت إليها لكي تستبدل بطغاة عديدين طاغية واحداً .

ودعا أصحاب الأرض - ملاك الضياع الأقل مساحة - إلى المجلس النبائى وجعلهم هم والطبقة الوسطى بديلاً للنبلاء ورجال الإكليروس . وفى عام ١٤٣٧ قتلته عصابة من النبلاء

واستمر أبناء النبلاء الذين كان قد أسقطهم فى الحياة أو انتزع منهم الأمل فى مقاومة جيمس الثانى فى الكفاح ضد الملكية التى تنزع إلى المركزية ه وبينما كان الملك الجديد لا يزال بعد صبيهاً فى السابعة من عمره دعا وزاؤه إيرل اف دو جلاس الصغير وشقيقاً أصغر لينزلا ضيفين على الملك فحضر ا وقدما لمحاكمة هزلية وقطع رأساهما (١٤٤٠) ودعا جيمس الثانى لنفسه بعد اثنى عشر عاماً وليام ، إيرل اف دو جلاس ، لبلاطه فى ستيرلنج ومنحه عهد الأمان

وأنزله في ضيافته الملكية وقتله بتهمة تبادل رسائل فيها تأمر على خيانة الدواة مع إنجلترا ؛ واستولى على كل القلاع الإنجليزية الحصينة في إسكوتلندة لإقلمة واحدة ، ومزق إرباً إثر انفجار عارض من مدفعه ؛ وكفر جيمس الثالث عن فظاظة أبيه فبعد مواجهات وحشية أسره النبلاء وقتل لتوه (١٤٨٨) ، وتزوج جيمس الرابع من مرجريت تيودور شقيقة هنرى الثامن ، وبفضل هذا الزواج طالبت ماري ملكة الإسكوتلنديين بعرش إنجلترا .

ومع ذلك فلإن هنرى الثامن عند ما انضم إلى إسبانيا والنمسا والبندقية والبابوية فى الهجوم على فرنسا (١٥١١) شعر جيمس بأنه ملزم بمساعدة حليفة إسكوتلندة القديمة المعرضة للخطر ، على هذا النحو بغزو إنجلترا ، وحارب بشجاعة جنونية فى فلودن فيلد ، بينما استدار الكثيرون من رجاله وفروا لا يلوون على شيء ، ومات فى تلك الكارثة (١٥١٣) .

وكان جيمس الخامس وقتذاك لا يبلغ من العمر إلا عاماً واحداً ، واستتبع هذا كفاح متشابك من أجل الوصاية على العرش . وفاز بالجائزة دافيد بيتون - وهو أحد رجال الكنيسة المعروفين بالمقدرة والشجاعة وتقدير النساء ، ونصب كبيراً لأساقفة سانت أندروز ، ثم كاردينالاً ، ودرب الملك الصغير على الولاء الحار للكنيسة . وتزوج جيمس عام ١٥٣٨ من ماري أمير اللورين ، شقيقة فرانسيس ، اللوق دى جيز زعيم الحزب الكاثوليكي فى فرنسا المنقسمة على أساس مذهبي ، وتطلع النبلاء الإسكوتلنديون ، ومناهضتهم لرجال الاكليروس تتزايد يوماً بعد يوم ، باهتمام إلى الانقسام القائم بين إنجلترا والبابوية ، وحسدوا اللوردات الإنجليز الذين انتزعوا أو تلقوا أملاك الكنيسة وأخذوا « أجورا » من هنرى الثامن لمعارضة تحالف ملكهم مع فرنسا . وهند ما شن جيمس الخامس الحرب على إنجلترا رفض النبلاء أن يؤيدوه . وهزم فى سولواى موس (١٥٤٢) ففر يجرر أذنيال الخزى إلى

فولكلاند ، ومات هناك في ١٤ ديسمبر ، وأنجبت زوجته في الثامن من ديسمبر ماري ، التي أصبحت ملكة للإسكوتلنديين وعمرها ستة أيام .

وأبرز بيتون وصية من الملك الراحل عينه فيها وصياً على الملكة الرضيعة ، وتشكك النبلاء في صحة الوثيقة وسجنوا الكاردينال واختاروا جيمس ، إيرل آف أران وصياً على العرش ، بيد أن أران أطنق سراح بيتون وعينه كبيراً للوزراء . وعندما جدد بيتون الحنف مع فرنسا عقد هنرى الثامن النية على شن حرب لا هوادة ، فيها ، وبعث لجيشه في الشمال أوامر بإحراق كل شيء في طريقه وتدميره ، و « أن يعمل النار والسيوف في كل رجل وامرأة وطفل دون استثناء أينما يجد مقاومة » وبخاصة « ألا يبقوا على حياة مخلوق » في بلدة سانت أندروز^(٨) مقر بيتون . وبذل الجيش جهده ، وأحال كل دير ومزرعة وقلعة ومحلة إلى خراب شامل^(٩) . وتعرضت لإذنبه يومين للسلب والحرق ، ونهبت قرى الفلاحين في دائرة قطرها سبعة أميال ودكت دكاً ، وسيق إلى إنجلترا (١٥٤٤) رأس من الماشية ذوات القرون و ١٢ر٠٠٠ رأس من الأغنام و ١٣٠٠٠ جواد . وعرض سير جيمس كير كالداى ونورمان لزلى وغيرهما من السادة الإسكوتلنديين أن يساعدوا الإنجليز على « حرق أما كن يملكها الحزب المتطرف في الكنيسة ، وأن يقبضوا ويسجنوا كبار خصوم الحلف الإنجليزى ، وأن يعتقلوا ويقتلوا الكاردينال نفسه^(١٠) . ورحب هنرى بالعرض وواعد بتقديم ألف جنيه لإنجليزى لمواجهة النفقات . وفشلت الخطوة إلى حين ، ولكنها نفذت في اليوم التاسع والعشرين من مايو سنة ١٥٤٦ ، واقتحم اثنان من آل كير كالداى واثنان من آل لزلى وعصبة عديدة من النبلاء والقلة قصر الكاردينال عنوة وقتلوه « في حالة تلهس » تقريباً لأنه ، « كما يقول نوكس » كان مشغولاً بحساباته مع السيدة أوجيلنى في تلك الليلة^(١١) . وأردف نوكس قائلاً : « والآن بما أن الطقس حار فقد رثى أن من الأفضل لمنعه من أن يتعفن أن يعطوه جرعة كبيرة كافية من الملح ،

وقباء من الرصاص ... انتظارا لما سوف يعده له إخوانه الأساقفة من طقوس الفن . ونحن إنما نسجل هذه الأمور بإبتهاج (١٢) . وانسحب القتلة إلى قلعة سانت أندروز على الساحل وانتظروا وصول العون من إنجلترا بطريق البحر .

وعاد آران إلى الاضطلاع بعبء الحكم . ولكي يضمن مساعدة الفرنسيين وعد بأن يزوج الملكة الطفلة ماري ستيوارت لولي عهد فرنسا ، ولكي يحال بينها وبين الوقوع في أيدي الإنجليز ، أرسلت سرّاً إلى فرنسا (١٣ أغسطس سنة ١٥٤٨) . وقضى ارتقاء ماري تيودور العرش في إنجلترا على خطر قيام الإنجليز بغزوات أخرى إلى حين . وكانت الكاثوليكية وقتذاك تسيطر على جانبي الحدود . وغلب النفوذ الفرنسي على آران فحمله على أن يتنازل عن وصاية العرش (١٥٥٤) إلى ماري أميرة اللورين ، أم الملكة الغائبة . وكانت امرأة على حظ من الذكاء والجلد والشجاعة ، لم تدعن إلا لروح العصر الغلابية ووهيت ثقافة النهضة الفرنسية ، فقابلت العقائد الدينية المناظرة التي كانت تضطرم بالغضب حولها بإقسامات تم على التسامح . وأمرت بإطلاق سراح العديد من البروتستانت المسجونين ، وسمحت للهراطقة بجزيرة كبيرة في الوعظ والعبادة إلى حد أن الكثير من البروتستانت الإنجليز الذين فروا من ماري تيودور وجدوا ملجأ ، وسمح لهم بتكوين جماعات دينية برئاسة ماري أميرة اللورين . كانت أعظم حاكمة رقيقة العاطفة متمدينة عرفت اسكتلندة قروناً طوالاً .

٣ - جون نو كس : ١٥٠٥ - ٥٩

كانت الدعاية للإصلاح الديني قد مضى عليها مائة عام في إسكوتلندة . وفي عام ١٤٣٣ آتهم بول كراور بإدخال عقيدتي ويكلييف وهس ، وقضت الكنيسة بإدانته وأحرقته الدولة . وفي عام ١٤٩٤ استبدعى

ثلاثون « لولاردا من كليل » للمثول أمام أسقف جلاسجو بتهمة رفض الاعتقاد في المخلفات والصور الدينية والاعتراف السرى أمام قسيسين ، ورسامة القساوسة وسلطانهم والتجسد ، والمطهر ، وشكوك الغفران والقداست من أجل الموتى ورهبانية رجال الدين والسلطة البابوية (١٣) ، وبذلك نجد أنفسنا أمام تلخيص يكاد يكون كاملاً لمبادئ الإصلاح الدينى قبل نشر رسائل لوثر بثلاثة وعشرين عاماً . ومن الواضح أن المتهمين تراجعوا عما قالوا به .

وسرعان ما دخلت رسائل لوثر إلى إسكوتلنדה بعد عام ١٥٢٣ ، وانتشرت ترجمة للعهد للجديد باللغة الإسكوتلاندية من إعداد ويكلييف في مخطوطة ، وارتفع نداء يطالب بمسيحية تعتمد على الكتاب المقدس وحده دون سواه .

وذهب باتريك هاميلتون إلى باريس ولوفان ، ودرس تعاليم إرازموس والفلسفة اليونانية ومضى إلى فتنبرج وعاد إلى إسكوتلنדה مشجعاً بالعقائد الجديدة ونادى بالتركيز بالإيمان ودعاه جيمس (عم دافيد) وبيتون ، ثم رئيس أساقفة سانت أندروز للحضور ، وإيضاح ما يعنيه بأقواله ، فجاء وتمسك بأرائه وأحرق (١٥٢٨) . وفي عام ١٥٣٤ أحرق اثنان آخران من « العلماء » كما كان المصالحون الدينيون الإسكوتلانديون الأوائل يسمون أنفسهم . وشنق أربعة رجال وأغرقت امرأة عام ١٥٤٤ ، وطبقاً لما يرويهِ نوكس الذى لا يعتمد على روايته دائماً ، ذهبت إلى حتفها وعلى صدرها طفل رضيع (١٤) .

وكانت عمليات القتل العمد هذه موزعة على عصور ومواضع مختلفة ، إلى حد جعلها لا تثير رد فعل عام قوى . بيد أن شنق جورج ويشارت مس شغاف قلوب الكثيرين ، وكان أول حادث له أثره فى الإصلاح الدينى الاسكوتلاندى . وقد ترجم ريشارت حوالى عام ١٥٤٣ الاعتراف السويصرى البروتستانتى الأول ، ومن سوء الحظ أن هذا الإعلان البروتستانتى أمر السلطات

للعلمانية بمعاينة المراقبة (١٥) ، أو أبحاث الاتجاهات البروتستانتية السويسرية منذ ذلك - وكانت في مبدأ الأمر زوينجالية تنسم بالرحمة ثم أصبحت كالفينية صارمة - اللوثرية يوماً بعد يوم في الحركة الإسكوتلندية . وقدام ويشارت عظاته في مونروز ودندي ولازم بشجاعة مرضى وباء منتشر ، وفسر العقيدة الجديدة في إدنبرة في وقت كان فيه دافيد بيتون يعقد مجمعاً لإكليروسياً من رجال الدين الإسكوتلنديين هناك ، فأمر الكاردينال بالقبض عليه بتهمة الهرطقة ، وحكم عليه بالإدانة وقتل ختيماً وأحرق (١٥٤٦) .

وكان من بين من تحوّلوا عن مذهبهم على يديه ، شخصية من أقوى الشخصيات في التاريخ وأعظمها نفوذاً . وقد ولد جون نوكس بين عامي ١٥٠٥ و١٥١٥ قرب هيننجتون. ونذره والداه الفلاحان ليكون قسيساً، ودرس في جلاسجو ورسم قساً (حوالي عام ١٥٣٢) ، وأصبح معروفاً بتضلعه في القانون المدني والقانون الكنسي على السواء . ولا نتحدث سيرته الذاتية « تاريخ إصلاح الدين داخل مملكة إسكوتلندا » بشيء عن شبابه ولكنها تقدمه فجأة (١٥٤٦) بوصفه مريداً متحمساً لجورج ويشارت وحارساً شجاعاً له ، يحمل سيفاً له مقبضان . يؤخذ نوكس يتجول من مخبأ إلى آخر بعد القبض على ويشارت ، ثم انضم في عيد الفصح عام ١٥٤٧ قلعة سانت أندروز إلى العصبة التي قتلت الكاردينال بيتون .

واستشعر الرجال المطاردون الحاجة إلى الدين فطالبوا من نوكس ان يكون واعظاً لهم . فاحتج بأنه لا يصاح ، ثم وافق وسرعان ما اتفقتوا على أنهم يسمعون قط مثل هذا الوعظ المنتهب من قبل . وأطاع على الكنيسة الرومانية اسم : « هيكل الشيطان » وجعلها مرادفة لالوحش الخيف الذي ورد وصفه في سفر الرؤيا . وتبنى العقيدة اللوثرية التي تذهب إلى « أن الإنسان يظفر بالخلاص » ، بأن يؤمن فحسب بأن دم يسوع المسيح يكفر عن خطايانا جميعاً (١٦) . وفي يوليو أبحر أسطول فرنسي وقذف القلعة بالقنابل . وقام

المحاصرون أربعة أسابيع ، وأخيراً غلبوا على أمرهم ، وظل نوكس والآخرون يعملون عبيداً في السفن تسعة عشر شهراً . . ليس لدينا إلا تفاصيل قليلة عن معاملتهم باستثناء ما ذكر من أنهم كانوا يدفعون لسباع القداس (ويقو لنا نوكس) إنه رفض بشدة ، ولعل هذه الأيام المريرة ، وأثر سوط الملاحظ على الأجسام ساهم في اشتداد نزوع نوكس إلى الكراهية وجنوح لسانه وقلمه إلى العنف في العبارة .

وعندما أطلق سراح الأسرى (فبراير سنة ١٥٤٩) عمل نوكس قساً بروتستانتيًا في إنجلترا براتب تقاضاه من حكومة سومرست : وكان يقوم بعظاته يومياً طوال الأسبوع « إذا سمحت له بذلك الحيفة الخبيثة » . ونحن أبناء اليوم الذين لا ننعّم كثيراً بالعظّات ليس في مقدورنا إلا أن نتصور بصعوبة مدى إحساس الناس في القرن السادس عشر بالتعطش إليها . وقد ترك قساوسة الأبرشيات الوعظ الأساقفة الذين تركوه بدورهم للإخوان الرهبان وكانوا يقومون به بين آن وآخر . وأصبح الوعظ في البروتستانتية بمثابة صحيفة يومية للأخبار والرأى ، وكانوا يروون على المصلين أحداث الأسبوع أو أحداث اليوم ، وكان الدين وقتذاك متمزجاً بالحياة إلى الحد الذي جعل كل حدث تقريباً يمس العقيدة أو القائلين عليها ونددوا بنقائص رجال الأبرشية وأخطائهم ونهبوا الحكومة إلى واجباتها وأخطائها . وفي عام ١٥٥١ كان نوكس يعظ أمام إدوارد السادس ونورثمبرلاند فتساءل كيف تأتي في الغالب الأعم لأنبي الأمراء أن يتخذوا مستشاريهم من أفسق الناس . وحاول الدوق أن يسكته بمنحه منصب أسقفية ولكنه فشل .

وكانت ماري التيودورية أشد خطورة عليه ، ففر نوكس إلى ديب وجينيف (١٥٥٤) بعد شىء من التباطؤ الذي أملاه الحرص ، وزكاه كالفن لدى جماعة تتحدث بالإنجليزية في فرانكفورت ، ولكن مبادئه وملاحظه كانت جد قاسية بالنسبة لمستعميه ، فطلب منه أن يرحل . وعاد إلى جينيف (١٥٥٥) ، ونحن نستطيع

أن نحكم على قوة شخصية كالفن من التأثير الذى سيطر به وقتذاك على شخصية إيجابية وقوية تماثل شخصيته . ووصف نوكس ، مدينة جيليف فى عهد كالفن بأنها : « أكل مدرسة للمسيح ظهرت على وجه الأرض منذ أيام الحوارين^(١٧) » . واتفقت الكالفينية مع مزاجه لأن تلك العقيدة كانت واثقة من نفسها ، وعلى ثقة من أنها تنلقى الوحي من الرب ، وواثقة من أن الله قد فرض عاها أن تلزم الفرد بانتهاج سلوك محدد واعتناق عقيدة معينة ، وواثقة من حقها فى توجيه الدولة ، ولقد تعاغل هذا كله فى أعماق روح نوكس ، ثم فى التاريخ الإسكوتلندى عن طريقه . وتوقع فى فزع حكم مارى ستيوارت الكاثوليكية لإسكوتلندة ، فسأل كالفن وبولينجر هل يحق لشعب أن يرفض إطاعة « حاكم يرغم الناس على عبادة الأوثان ويلغى الدين الصحيح » فلم يجبرا جواباً ، ولكن جون نوكس كان يعرف ما يدور فى خلده ،

وفى خريف عام ١٥٥٥ ، وكان وقتذاك فى الخمسين من عمره على الأرجح أظهر الجانب الرقيق من شخصية جافة بالعودة إلى مارى تيودور ملكة إنجلترا والذهاب إلى برويك والزواج من مرجريت بويز لأنه أحب أمهات. وكان لمسز بويز خمسة أولاد وعشر بنات وزوج كاثوليكي ، وكان لوعظ نوكس الفضل فى اكتسابها لصف البروتستانتية ، وأسرت له بمتاعها المنزلية ووجد متعة فى أن يشير عليها بما يجب ، وعزاء فى صداقتها ، ومن الواضح أن العلاقة بينهما ظلت روحية إلى النهاية .

وعند ما تزوج نوكس من مرجريت تركت مسز بويز زوجها وذهبت لتعيش مع ابنتها وكاهن الاعتراف الخاص بها . وماتت الزوجة بعد خمس سنوات من عقد الزواج . وتزوج نوكس للمرة الثانية ، ولكن مسز بويز بقيت معه . ومن النادر أن توجد فى التاريخ حياة محبة ومحبوبة بهذا القدر . وذهب الثلاثى الغريب إلى إسكوتلندة ، حيث كانت مارى أميرة اللورين

لا تزال ترى التسامح مفيداً في كسب تأييد الحزب البروتستانتي من النبلاء ،
وأثنى على الوصية على العرش باعتبارها « أميرة جديدة بالاحترام » . وهبت
حكمة وكياسة تفردت بهما (١٨) . « ونظم اجتماعات بروتستانتية للمصلين في
إدنبره وغيرها من الأماكن وكان له الفضل في أن يتحول على يديه إلى
المذهب البروتستانتي أشخاص من ذوى النفوذ ، مثل وليام ميتلاند ، سيد
ليثنجتون ، وجيمس ستيوارت الشقيق غير الشرعى لمارى ستيورات الذى
قدر له أن يكون وصياً على العرش باسم إيرل ا ف مرأى أو وراى . ولم
ترض محكمة كنسية عن هذا التطور ، فاستدعت نوكس ليقدم حساباً عن أعماله
وآثر أن يسلك سبيل التروى فتسلسل من إسكوتلنדה مع زوجته وأمها ، (يوليو
سنة ١٥٥٦) . ولم تستطع المحكمة الكنسية أن تحرق في غيابه سوى تمثال
له ، وأضفى عليه هذا التجسيم لاستشهاده بدون ألم نبلا في عيون البروتستانت
الإسكوتلنديين ، ومنذ تلك اللحظة جعلوه زعيماً للإصلاح الدينى
الإسكوتلندى ، حينما حل .

واقدم طور وهو في جينيف ، باعتباره راعياً لأبرشية إنجليزية ، البرنامج
الكالفينى الكامل فيما يتصل بإشراف رجل الدين على أخلاق رعايا أبرشيته
وسلوكلهم ، ودعا في الوقت نفسه مسز آن لوك ، التى تحولت عن عقيدتها
على يديه في لندن ، إلى أن تترك زوجها وتأتى مع ابنتها لتعيش بالقرب منه
في جينيف ، وكتب لها رسائل لا تقاوم :

يا أعز أخت ، لو استطعت أن أعبر لك عما أكابده من اشتياق وضنى
لحضورك فسوف أبدو وقد تجاوزت الحد . نعم إنى لأبكى وأبتهج عندما
أذكرك ، ولكن ذلك سوف يزول بما أجده من عزاء في حضورك ، الذى
أؤكد لك أنه جد عزيز لى إلى حد أنه لو لم يكن عبء هذه الجماعة
الصغيرة ، المجتمعة هنا باسم المسيح ، قد عاقنى ، لحضرت إليك قبل رسالتى . .
ولو لم يملك بملك (زوجك) إلى حد ما . . . لوددت من أعماق قلبى ،

نعم ، وماكنت لأستطيع أن أتوقف عن أن أتمنى رضى الله بهدايتك لى هذا المكان (١٩) .

وتركت مسز لوك لندن ضاربة عرض الحائط بمعارضة بعلمها ، ووصات لى جينيف (١٥٥٧) مع ابن ، وابنة بخادمة . وماتت الإبنة بعد ذلك ببضعة أيام ، ولكن مسز لوك ظلت قرب نوكس وعاونت مسز بويز التى تقدمت بها السن ، ولم تعد وقتذاك مصدرراً للراحة كما كانت من قبل ، فى تلبية حاجات الواعظ . وايس لدينا دليل على وجود علاقات جنسية ، ولا نسمع أى شكوى من مسز نوكس ، بل إننا لا نكاد نسمع عنها على الإطلاق . إن هادم البيوت القديم سوف يتخذ لنفسه أمأ ، وكانت له طريقته باسم المسيح . بل كانت له طريقته فى كل شىء تقريباً . وكان مثل كثير من العطاء ، صغير الجسم ، بيد أن كتفيه العريضتين كانتا تنهان على القوة ، ومحياه الصارم يدل على اليقين والتطاع لى السلطة . شعر أسود وجهه ضبة وحاجبان كثيفان وعينان نفاذتان وأنف يتم على التطفل وخدان أسيلان وفم واسع وشفتان غليظتان ولحية طويلة ، وأصابع مسنطيلة ، ونحن نجد فى هذا تجسيدا للإخلاص والرغبة فى السلطة ، وهو رجل يتميز بنشاط مبعثه التعصب . وكان يحب الوعظ مرتين أو ثلاثاً كل أسبوع لمدة ساعتين أو ثلاثاً فى كل مرة ، وكان علاوة على هذا يدبر الشئون العامة ويوجه حياة الأفراد ، فلا عجب « ألا أجد فى الأربع والعشرين ساعة أربع ساعات أخاؤها من العمل للراحة الطبيعية (٢٠) » . ويلطف من شجاعته ، حياء يعتمده لى حين ، وكانت عنده بديهة تنبهه لى الفرار من الموت وشيك الوقوع . واتهم بتحريض البروتستانت على التيام بثورة مخفوفة بالمخاطر فى إنجلترا أو إسكوتلندة فى الوقت الذى بقى فيه فى جينيف أو ديب ، ومع ذلك فإنه واجه عشرات الأخطار وندد بفساد نورمبر لاندى فى وجهه وجاهر فيما بعد بالدمقراطية فى وجه ملكة . ولم يكن فى الإمكان شراؤه بالمال . وظن أو ادعى أن صوته هو صوت الله .

وصدق كثيرون ادعاه وحيوه باعتباره رسولاً من قبل الله ، ولذلك فإنه عندما خطب قال سفير إنجلترا : « إنه ينفخ فينا من الحياة أذًر مما يفعل ١٠٠ بوق تضح في أذاننا (٢١) » .

وكانت العتيدة الكاليفنية مصداً من مصادر قوته . لقد قسم الله كل الناس إلى الصفوة والملعونين ، وكان نوكس وأنصاره من الصفوة ، ومن ثم كتب لهم النصر من الله ، وكان خصومهم أشقياء ، وسوف تكون جهنم مثوهم عاجلاً أو آجلاً . وكتب يقول : « إننا مقتنعون بأن كل ما يفعله خصومنا عمل شيطاني (٢٢) » . وهؤلاء الخصوم الملعونون من الله لا يستحقون أى حب مسيحي لأنهم أبناء الشيطان لا الرب ، وهم لا يطوون أجوائهم على أى خير ، ويحسن استئصال شأنهم تماماً من الأرض : ونعم بملك والكراميه الكامله التي يثيرها الروح القدس في قلوب صفوة الرب ضد أولئك الذين يزدرون تماثيله المقدسه (٢٣) » وفي الصراع مع الأشقياء كانت جميع الوسائل مباحة — الكذب والغدر (٢٤) وتناقضات السياسه (٢٥) المرنة . فالغاية تبرر الوسيله .

ومع ذلك فإن فلسفه نوكس الأخلاقية في ظاهر أمرها كانت تتعارض تماماً مع فلسفه مكيا فيلي . فهو لم يسلم بأن يتحرر الساسة من القانون الأخلاقي المطلوب من المواطنين ، وطالب بأن يطيع الحكام والمحكومون على السواء تعاليم الكتاب المقدس . غير أن الكتاب المقدس كان يعنى بالنسبة إليه في الغالب العهد القديم ، وكان أنبياء يهود المتوعدون أصلح لغايته من الرجل الذي استشهد على الصايب . فقد كان في وسعه أن يستميل الأمة إلى إرادته أويحرقها بنبوءات ملتبه . وادعى أنه يملك قوة تدبئية ، وتنبأ حقاً بوفاة ماري تيودور المبكرة وسقوط ماري ستيوارت — أو لعل هذه الأمانى تحققت لحسن الحظ ؟ — وكان صائب الرأي لا يخطئ الحكم على أخلاق الرجال الآخرين

وأحيانا على أخلاقه . إذا اعترف (٢٦) في سماحة « إننى بفطرتى جلف غليط » .
وعزا فراره من إسكوتلنדה إلى الضعف البشرى والخبث (٢٧) .

وكان وراء زيجرته دعاية جافة ، وكان فى وسعه أن يكون رقيقاً بقدر
ما كان عنيفاً . وأكب بإخلاص كامل على عمله وهو لإنشاء سلطة يتمتع بها
نظام كهنوتى مطهر وعالم يشرف على الجنس البشرى ويبدأ بالإسكوتلنديين .
وكان من رأيه أن النظام الكهنوتى الفاضل إنما يستلهم الله ، وعلى هذا فإنه
فى مجتمع حساس على هذا النحو سيكون الله والمسيح هما الملك . وكان يؤمن
بالحكم بأمر الله ولكنه عمل للديمقراطية أكثر مما فعل أى رجل آخر فى عصره .

ولم تكن رسائله مجرد تمارين أدبية بل كانت وكأنها هزيم رعد سياسى
وكانت تضارع رسائل لوثر فى قوة الهجاء . وكانت الكنيسة الرومانية عنده ،
كما هو الحال عند لوثر ، « بغيا . . . دنستها تماماً كل ضروب الفجور
الروحى (٢٨) » . وكان الكنائس « بابويين أضر من الوباء » و « تجار قداس »
وكان قساوستهم « ذئاباً مفترسة » . ولم يكن هناك رجل يزه فصاحة فى ذلك
العصر الفصيح . وعندما تزوجت ماري تيودور من فيليب الثانى انفجر نوكس
غاضباً فى رسالة بعنوان : « تحذير مخلص إلى معلمى حقيقة الرب فى
إنجلترا » (١٥٥٤) .

لم تثبت ماري أنها خائنة صراح لتاج إنجلترا الإمبراطورى باستقدامها
أجنبياً ، وتنصيب ملك إسباني متعجرف يلاحق الخنزى والعار والدمار
بالنبلاء وذويهم ، وليسلبهم ألقاب شرفهم وأراضهم ومقتنياتهم ومناصبهم
الكبيرة ومراتبهم الرفيعة ، حتى يلاحق البوار التام بخزائن المملكة وأسباب
تجارتها وبحريتها وحصونها ، وحتى يحط من شأن ملاك الأراضى ، ويجعل
عامة الناس يرسفون فيها فى قيود العبودية ، ويطيح بالمسيحية وديانة الرب
الصحيحة ، وحتى يقروض آخر الأمر دعائم الأملاك العامة ورفاهية
إنجلترا بأسرها . . . إن الله برحمته السابغة ، يبعث بنحاس أو إلبسا

أوبوه ، عسى أن يهدئ دم عبدة الأوثان المقيت غضب الرب ولا يهلك
الجمع بأسره (٣١) !

ولكنه كتب بين آن وآخر ، وإن كان هذا نادرا ، فقرات تفيض رقة
وجمالا ، وجديرة بسانت بول الذى ألهمهم ، مثل «رسالة إلى إخوانه في
إسكوتلنדה» لن ألقا إلى أى تهديد ، لأنى كبير الأمل فى أنكم سوف
تمشون مثل أبناء الضوء ، وسط هذا الجحيل الخبيث ، وأنكم سوف
تكونون مثل النجوم فى الليل ، التى لا تتغير مع ذلك فى الظلام ، ومثل
قمحة وسط صدفة ، ومن عداد الرجال المتهلين العقلاء ، وتملأون
مصاييحكم بالزيت من جديد كل يوم ، كأولئك الذين ينتظرون فى صبر
الظهور المجيد ليسوع الرب ومجيئه ، وهو الذى تحكم روحه القدرة
وتعلمكم وتنير قلوبكم وعقولكم فى كل ما يوجه إليكم من هجوم الآن
وإلى الأبد (٣٢) .

وهناك رسالة متميزة أكثر من غيرها هى أول «نفخة فى لابلوق ضد
كتيبة النساء المروعة» التى ديجت فى ديب عام ١٥٥٨ ضد ما خيل لنوكس
أنه وباء الحماكات من النساء فى أوروبا - مارى تيودور ومارى أميرة اللورين
ومارى ستيوارت وكأثرين دى مديتشى . وقى وصعنا أن ندرك مدى هلعها
من تطبيق مارى تيودور لمبادئه ، ولكن حتى إذا لم تضطهد مارى أعداءها
فلأن نوكس بعدها وحشاً ووصمة سياسة تلتك القاعدة الطبيعية التى تقول
إن الرجال يجب أن يحكموا للدول . وبدأ يقول «لا عجب أن نجد بين
كثير من العقول الخصبية التى أنجبتها جزيرة بريطانيا العظمى كثيرا من
الوعاظ الروعين والمتحمسين بقدر ما نطمعت أحيانا ، ولا يوجد بين
الكثيرين من علماء اللاهوت والرجال ذوى الرأى الرصين الذين نفهم
ليزابيل (مارى تيودور) ، رجل مقدام شجاع ومخلص للرب . . .
يجرؤ على تنبيه سكان تلك الجزيرة إلى مدى ما وصلت إليه من بغض

أمام الله ، إمبراطورية أو ملك امرأة ، بل خاتنة وابنة سفاح ، وماذا في وسع شعب أو أمة تركت مجردة من رأس شرعى أن تفعل بسلطة الرب في انتخاب وتعيين حكام وقضاة للعموم لنا لسمع عن سفك دم إخواننا أتباع يسوع المسيح بأشد قسوة والإمبراطورية المتوحشة لامرأة قاسية ، نعلم أنها وحدها سبب كل هذا الشقاء . . . إن الارتقاء بامرأة لكى تنهض بحكم أو سيادة أو سلطان أو إمبراطورية تفوق أى مملكة أو أمة أو مدينة أمر يخالف الطبيعة ويعد إهانة للرب ، ومناقضاً لإرادته التى جلاها وشريعته المسلم بها ، وأخيراً فإنه تقويض للدعائم نظام وطيء ، ولكل إنصاف وعدل ، من ذا الذى يستطيع أن ينكر أن تعيين الأعمى لقيادة المبصرين وتوجيههم إنما يتناقض مع الطبيعة ؟ ومن ذا الذى يقول إن الضعفاء والمرضى والعاجزين يطعمون الأقوياء جميعاً ؟ وأخيراً من يقول إن الحمقى والمجانين والمخبولين يحكمون العقلاء ويقدمون المشورة لأصحاب العقول الرصينة ؟ وهكذا كل النساء إذا قورن بالرجال فى احتمال السلطة . . . فالمرأة فى أكمل صورة خلقت لتخدم الرجل وتطيعه لا لتحكمه وتأمراه (٣٣) .

واستشهد نوكس بوثيقة لا جدال فيها من للكتاب المقدس لكى يثبت هذا ، ولكنه عندما تغلغل فى أعماق التاريخ ، ويبحث عن أمثلة لدول هدمتها نساء حكمتها ، اختلط عليه الأمر تماماً ، لأنه وجد أن التاريخ سجل أنهن أفضل بكثير من الملوك . ومع ذلك فإنه ختم رسالته بلمعة الراضى من حكمه :

إن ليزابيل اللعينة ملكة إنجلترا هى وجيل البابويين المقيت المؤذى كالوباء لا يألون جهداً فى الزهو والتفاخر بأنهم لم ينتصروا على ويات فحسب ، بل انتصروا أيضاً على كل من دبر شيئاً ضدهم . . . وأنا لا أخشى أن أقول إن يوم الانتقام ، الذى سوف يقبض فيه على ذلك المسيح

القطيع جيزيل ملكة إنجلترا *** قد تحدد في مجلس الحكي الباقي *** وليعلم هذا الناس جميعاً لأن البوق قد نفض فيه (٣٤) •

وأخذ نوكس مخطوطة كتابه « نفخة » إلى جينيف وطبعها سرا ولم يضع عليه اسمه ، وأرسل نسخاً منه إلى إنجلترا ، فحزمت ماري تداول الكتاب باعتباره تحريضاً على الثورة ، وجعلت حيازته جريمة يعاقب عليها بالإعدام .
وعاود نوكس الهجوم في رسالة بعنوان : « نداء إسكوتلندة وطبقات سكانها (يوليو سنة ١٥٥٨) » .

لا أحد ممن يرضون الناس على عبادة الأوثان (*) ينبغي أن يعنى من عقوبة الإعدام ويجب تطبيق الحكم نفسه في مكان يؤمن بيسوع المسيح وإنجيله اللذين اعترف بهما الحكام والناس في خشوع ، ووعدوا بالدفاع عنهما ، كما حدث في عهد الملك إدوارد في الأيام الأخيرة بإنجلترا . وفي مثل هذا المكان أقول إن عقوبة الإعدام ليست مشروعة على من يعمل على تقويض دعائم الدين فحسب ، بل إن الحكام والناس ملتزمون بأن يتهجوا هذا السبيل ، إلا إذا أرادوا أن يثيروا غضب الله عليهم وأنا لا أخشى أن أؤكد أن واجب النبلاء والقضاة والحكام والشعب في إنجلترا كان لا يقتضى منهم أن يقاوموا ماري ، تلك الإيزابل ، ويعارضوها فحسب بل عليهم أن يقتصوا منها بإعدامها (٣٦) .

وحدث نوكس شعب إسكوتلندة على تطبيق هذا الرأي الخاص بالثورة الشرعية على ماري أميرة اللورين ، وشكا من أن الوصية على للعرش قد أحاطت نفسها بحاشية فرنسية وجنود فرانسيسين ليأكلوا مدخرات الإسكوتلنديين : بينما يؤتى بالأغراب لسحقنا نحن وخيرنا العام وذريتنا ،

(*) كتب نوكس عام ١٥٦٠ : « إننا نقصد بعبادة الأوثان القداس والتوسل بالنديسن وعبادة الصور واستيفامها والاحتفاظ بها وكل عبادة للرب لا يمويهها كتابه المندس (٣٥) » .

وبينما يحافظ على عبادة الأوثان ويستخف بالدين الصحيح ليسوع المسيح ،
وبينما ذو الكروش وللطهارة الدمويون الأساقفة يبقون ، ويضطهد رسل
المسيح الصادقون ، وأخيراً بينما تحتقر الفضيلة وتمجد الرذيلة . فأى
رجل ورجع يمكن أن يساء إليه لأننا سوف نشهد تقويم هذه الأعمال
للفاضحة (نعم ، حتى لو اقتضى الأمر اللجوء إلى قوة السلاح ، إذا
رأينا أنه لن يتيسر لنا بخلاف ذلك) ؟ . . . إن العقوبة على ارتكاب
جرائم مثل عبادة الأوثان والكفر وغيرهما ، التي تمس الله سبحانه وتعالى ،
لا يختص بها الملوك وكبار الحكام فحسب ، بل تخص بها أيضاً الهيئة
الكاملة لذلك الشعب ، وتخص كل عضو في الهيئة ، طبقاً لما يتيحها الله
من إمكان وفرصة للانتقام من الضرر الذي لحق بمجده (٣٧) :

وهنا نجد مزيجاً غريباً من الثورة والرجعية في بيانات نوكس . وكان
لا بد أن يتفق معه في تبرير قتل الطغاة من آن لآخر كثير من المفكرين ومنهم
هوجينوت فرنسيون مثل هوثمان ويسوعيون مثل ماريانا . ومع ذلك فإن
اقتناعه ، بأن هؤلاء الذين كانوا واثقين من لاهوتهم يجب أن يسحقوا
- وإذا اقتضى الأمر يقتلوا - خصوصاً مهم ، رجع فيه إلى أكثر ممارسات
محكمة التفتيش شوماً . واعتبر نوكس أن الأصحاح الثالث عشر من سفر
التثنية لا يزال سارى المفعول وفسره حرفياً ، فكل هرطيق يجب أن يعدم ،
والمدن التي تغلب عليها الهرطقة يجب أن يقتص منها بالسيف وتدمر تماماً ،
ويقتضى على ما فيها من ماشية ، وكل بيت فيها يجب أن يحرق حتى ينهدم .
ويعترف نوكس أن هذه الأوامر الحالية من الرحمة أفرغته في بعض الأحيان :
قد يبدو هذا الحكم حتى للرجل المادى صارماً وقاسياً ، أجل ، وقد يبدو وكأنه
صدر عن غضب لا عن تعقل وأى مدينة : . . لا يوجد فيها أبرياء
مثل الرضع والأطفال وبعض السذج والجهال لا يقترفون الكفر أو يستسلمون
له ؟ ومع ذلك فإننا لا نجد استثناء بل إن الجميع مكتوب عليهم الموت
القاسى . بيد أنه في مثل هذه الأحوال أرادت مشيئة الله أن تمنحني جميع
المخلوقات وتغطي وجوهها ، وتكف عن التفكير المنطقي ، إذا كان هناك أمر
منه تعالى بتنفيذ إرادته (٣٨) .

وعليها ألا نحاكم نوكس بمقاييسنا الراهنة عن التسامح ، فقد أعرب بإصرار شديد عن الروح العامة لعصره تقريباً .

وكانت السنوات التي قضاها في جينيف ، حيث كان سرفينوس قد أحرق لتوه ، قد أكدت نزعته نحو الالتزام بالحرفية الصارمة واليقين الذي يصل إلى درجة للغرور . ولو أنه قرأ ما احتج به كاستليو لتبرير التسامح لطابت نفسه على الأرجح برد بيز عليه . ومع ذلك فإن رجلاً مغموراً ممن ينكرون وجوب التعميد كتب في تلك السنوات نفسها نقداً للكالفينية بعنوان : « مهمل بالضرورة » وأرسله البروتستانت الإسكوتلنديون إلى نوكس ليرد عليه رداً مفصلاً ، وكأنما كان صوت العقل يهمس لحظة وسط حرب العقائد . وتساءل المؤلف كيف جاز للكالفينيين بعد أن عرفوا مفهوم المسيح عن أبحسب ، أن يؤمنوا بأن الله قد خلق بشرأ كتب عليهم ، وشاء لهم اللعنة الأبدية : وقال المنكر لوجوب التعميد أن الله قد وهب الناس ميلاً طبيعياً لأن يحبوا ذريتهم ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ، فكيف يكون الله أقسى من الإنسان ؟ واستطرد المؤلف قائلاً إن الكالفينيين قد أتوا من الشر أكثر مما أتى به الملاحدون « لأن الذين يؤمنون بأن الله ليس جائراً وقاسياً وظالماً أقل قديماً في حق الله ممن يقولون بأنه كذلك » ورد نوكس « أن هناك أسراراً تخفى على العقل البشري ، ولسوف تحطم كبرياء أولئك الذين لا يقنعون بإرادة الله التي تتجلى ، ويسرهم أن يصعدوا ويحلقوا فوق السموات ليتساءلوا عن إرادة الله الخفية » . وكتب يقول في موضع آخر « والطبيعة والعقل إنما يضللان الناس عن الله الحق : وأى وقاحة أن ينضل المرء الطبيعة الفاسدة والعقل الأعمى على كتب الله المقدسة (٣٩) ؟ » .

ولم يقتنع نوكس بقوة الاستدلال واعتقد في قرارة نفسه أنه مخلص لروح المسيح ، فأرسل عام ١٥٥٩ ، عند ما كانت تحكم إنجلترا ملكة بروتستانتية ، إلى شعبها رسالة بعنوان : « عظة موجزة » ينصحها فيها بأن يكفروا عما قامت

به مارى من اضطهاد يجعل العقيدة الكالفينية ونظامها الأخلاقى إجباريين فى سائر البلاد ، ورفضت إنجلترا العمل بالنصيحة . وعاد نوكس فى ذلك العام إلى إسكوتلندا ليشرف على إيدولوجية ثورتها .

٤ - جماعة أتباع يسوع المسيح : ١٥٥٧ - ٦٠

لقد امتزجت دعواته الإسكوتلنديين إلى الإطاحة بنير الخضوع لروما بتعاليم المصلحين الدينيين الآخرين وتدفق البروتستانت من إنجلترا وتسلل الأنجليك والنشريات من إنجلترا والقارة الأوروبية ، وتعطش لمبلاء الإسكوتلنديين للأرض وإبعادهم الموغر للصدور على يد الفرنسيين الذين يضعون المساحيق على وجوههم من رجال الحاشية ، فعملت على رفع درجة حرارة الثورة إلى نقطة الانفجار . واحتمل سكان إدنبره ، الكاثوليك المتمسكون بعقيدتهم عام ١٥٤٣ بطريق مباشر وبإستياء شديد تدفق الغالين المتغطرسين أثناء وصاية مارى أميرة اللورين على العرش . وحدث كل شىء بحيل حياة الدخلاء بوئساً وشقاء . واشتد الإحساس بالذات فى كلا الجانبين ، ولما كان رجال الاكليروس قد أيدوا الفرنسيين فإن روح القومية رددت نغمات عالية مفاهضة للكاثوليكية وسارت مواكب دينية - حملت فيها تماثيل للعذراء والتقدسيين عبدت فيما يبدو ، وعرضت مخلفات وقبيل باحترام - فأثارت المزيد من السخرية والشك .

وفى سبتمبر عام ١٥٥٧ استولت جماعة من المتشككين المتحمسين على تمثال لسانت جيلس فى « الكنيسة الأم » التى تحمل هذا الاسم فى إدنبره وغمروها فى بركة ، وأحرقوها فيما بعد حتى تحولت إلى رماد . ويروى نوكس أن هجمات مماثلة استهدفت تحطيم الأصنام حدثت فى كل أرجاء البلاد .

وفى الثالث من ديسمبر عام ١٥٥٧ اجتمعت فى إدنبره (التى كانت قد أصبحت عاصمة للبلاد هام ١٥٤٢) « عصبة مشتركة » من النبلاء المناهضين

لرجال الدين أرجيل وجلسكرون ومورتون ولورن وإرسكين - ووقعوا « أول ميثاق إسكوتلندي » وأطلقوا على أنفسهم اسم : « لوردات جماعة المصلين ليسوع المسيح » لتعارض « جماعة المصلين للشيطان » - أي الكنيسة ، وتعهدوا بالمحافظة على « كلمة الله المباركة أكثر من أى شيء » ، ودعوا إلى « إصلاح فى الدين والحكومة » ، وطلبوا من الوصية على العرش الحرية ، التى تبيح لنا أن نمارس أمور الدين والضمير كما ينبغى استجابة لأمر الله : وصمموا على إنشاء كنائس تأخذ بأسباب الإصلاح الدينى فى سائر إسكوتلندا ، وأعلنوا أن كتاب الصلاة العامة الذى كتب لإنجلترا فى عهد إدوارد السادس يجب أن تعمل به كل جماعات المصلين ، واحتج الأساقفة البروتستانت على هذا الانشقاق الجرىء وحثوا رئيس الأساقفة هاميلتون على قعه . فأمر فى شىء من التبرم (٢٨ أبريل سنة ١٥٥٨) - بإحراق والتر ميلن - وهو قسيس عجوز كان قد تجرد من ملابس الكهنوت وتزوج واعتاد أن يهشر بعقيدة الآخذين بالإصلاح الدينى بين الفقراء ، وكان الناس يكتنون احتراماً عظيماً للرجل العجوز فأعربوا عن فزعهم لهذا الإحراق الأخير ببروتستانتى إسكوتلندي بتهمة الهرطقة ، وقاموا ببناء هرمى الشكل من الأحجار فوق الموضوع الذى مات فيه : وعندما استدعى واعظ آخر للمحاكمة امتشق المدافعون عنه السلاح ، واقتحموا طريقهم إلى حضرة الوصية ، وأنذروها أنهم لن يسمحوا بمزيد من الاضطهاد من أجل العقيدة الديلية ، وأنذر لوردات جماعة المصلين الوصية (نوفمبر سنة ١٥٥٨) أنها ما لم تمنح الناس حرية العبادة فإنهم لن يكونوا مسئولين « إذا حدث أن قومت المظالم بالعنف » ، وأرسلوا فى ذلك الشهر رسالة إلى نوكس بأنهم سوف يحمونهم إذا عاد .

وتمهل فى العودة ولكنه وصل إلى إدنبره فى اليوم الثانى من مايو سنة ١٥٥٩ . وقدم يوم ٣ مايو فى برث العظة التى أطلقت الثورة من عقابها ، ويقول لنا إنها كانت عظة « عنيفة ضد عبادة الأوثان » وقد فسرت « ما فى

القداس من عبادة للأوثان وما فيه من أمور بغیضة ، وه الوصية التي أمر بها الله بتدمير الأنصاب لهذا السبب (٤١) ، وخرج (الجمع الأثيم) كما يصفه عن الطاعة ، وعندما حاول قس في كنيسة مجاورة أن يقيم قداساً صاح أحد الشبان : « إن هذا لا يطاق لأنه في الوقت الذي لعن فيه الرب عبادة الأوثان صراحة في كتابه ، فإننا نقف لنراها تعبد على الرغم من ذلك » وجاء في رواية لنوكس أن القسيس وجه للصبي ضربة شديدة ، فتناول في غمرة غضبه حجراً وقذف به للقسيس وأصاب قدم الأقداس ، وحطم أحد التماثيل ، وما لبث أن قذف بالجمع كله المحتشد حوله الأحجار وأعمالوا أيديهم في قدس الأقداس المزعوم وفي سائر آثار عبادة الأوثان (٤٢) . وتدفع الجمهور إلى ثلاثة أديار ونهبوها وحطموا التماثيل ، ولكنهم سمحوا للإخوة الرهبان أن يأخذوا معهم ما تستطيع أكتافهم أن تتحمله : وما هي إلا يومان أو ثلاثة حتى كانت هذه المواضع الثلاثة للكبيرة قد دمرت ولم يبق منها قائماً سوى الجدران (٤٣) » .

وكانت الوصية على العرش بين نارين ، ونصحها أخوها كاردينال اللورين أن تسير على نهج ماري تيودور ، وأن تقضى على كبار البروتستانت ، وكان الثوار المنتصرون في برث وحولها في غضون ذلك يهددون بقتل أي قسيس يجرؤ على إقامة القداس (٤٤) . وفي ٢٢ مايو أرسل لها لوردات جماعة المصلين ، وكان يظاهروهم وقتذاك أتباعهم المسلحون ، إنذاراً نهائياً مششوماً :

« إلى عظمة الوصية على المماكة ، بعد تقديم كل فروض الاحترام والخضوع ، بما أننا حتى الآن قد نخدمنا السلطة في إسكوتلندا ، هي وعظمتكم ، بالمخاطرة بأرواحنا وبقلوب راضية . . . فإننا الآن والأسى يملأ جوانحننا مكرهون ، تحت طأة استبداد ظالم يدبر لنا ، أن نعان لعظمتكم أنه ما لم تتوقف هذه القسوة بفضل حكمتكم ، فإننا سوف نكون مضطرين إلى امتشاق الحسام للدفاع العادل في وجه كل من يطاردوننا في سبيل الدين . . . إن سبريمة القتل القاسية الظالمة التي بلغت أقصى درجات الاستبداد والموجهة إلى المدن

والجاهير ، كانت ولا تزال السبب الوحيد نقردنا على خضوعنا التقليدى ،
الذى نعد بإخلاص أمام الله أن نقدمه لمولاتنا (مارى ملكة الإسكوتلنديين)
ولزوجها ولعظمتكم ، بشرط أن تنعم ضائرتنا بالطمأنينة والحرية اللتين
اشتراهما لنا بدمه يسوع المسيح . . . رهايا هظمتكم الخاضعون لكم فى جميع
الأمور التى لا تغضب الرب - جماعة المصلين المخلصين ليسوع المسيح فى
اسكتلندة (٤٥) »

وفى الوقت نفسه بعثت جماعة المصلين نداء إلى النبلاء بتأييد الثورة
وخطاباً مفتوحاً حذروا فيه « جيل المناهضين للمسيح والأساقفة المؤذنين
كالوباء ورهبانهم . . . إذا مضيتم فى قسوتكم الحاقدة فإنكم سوف تعاملون ،
أيما يقبض عليكم كقتلة وأعداء للرب صراحة . ولن يبرم معكم عقد صالح قط
إلا إذا انقطعت عن عبادتكم الصريحة للأوثان واضطهادكم القاسى لأبناء
الرب (٤٦) » .

ودخلت الوصية مارى مدينة برث بقدر ما استطاعت أن تحشد من كتائب
الهند ، ولكن أنصار جماعة المصايين تجمعوا صفناً مسلحاً ، وأدركت مارى
أنها لن تستطيع أن تتغلب عليهم ، فوعدت معهم هدنة (٢٩ مايو سنة ١٥٥٩) ،
وانسحب نوكس إلى سانت أندروز ، ولم يعبأ بنواهى كبير الأساقفة ، فوعظ
فى كنيسة الأبرشية ضد عبادة الأوثان (١١ - ١٤ يونيه) . وتأثر مستمعوه
بحرارة عباراته فأزالوا كل أثر ينم عن عبادة الأوثان « عن كنائس المدينة
وأحرقوا هذه التماثيل أمام عيني رجال الدين الكاثوليك (٤٧) . وهرب كبير
الأساقفة إلى برث ، ولكن قوات جماعة المصلين ادعت أن مارى قد خرقت
نصوص الهدنة باستخدام الأموال الفرنسية فى دفع رواتب جنودها
الإسكوتلنديين ، وهاجمت القلعة ، واستولت عليها (٢٥ يونيه) . وفى الثامن
والعشرين نهبت دير سكوتون وأحرقته .

وإذا جاز لنا أن نصدق أحياناً ما يقوله نوكس المعروف برحابة خياله
فإن « ربة ببت فقيرة طاعنة فى السن قالت وهى ترى ألسنة اللهب المتصاعدة :

« الآن أرى وأدرك أن أحكام الرب عادلة . فإن هذا المكان بقدر ما تسعفنى
الذاكرة لم يكن إلا وكرراً للقوادين . إنه لأمر لا يصدق ... كم من
زوجة زنى بها ، وكم من عنداء افنض بكارتها الوحوش الدنسة ،
التي كانت تحتضن هذا الوكره ، وبخاصة ذلك الرجل الخبيث . .
الأسقف (٤٨) » .

وكانت ماري أميرة اللورين وقتذاك مصابة بمرض خطير ، تتوقع
وفاتها في أية لحظة ، فهربت إلى ليث وحاولت أن تؤخر تقدم البروتستانت
المنتصرين بالمفاوضات إلى أن يصل إليها العون من فرنسا . ولكن جماعة
المصلين تفوقت عليها في المباراة ، وذلك بالفوز بتأييد إليزابيث ملكة إنجلترا .
وكتب نوكس إلى الملكة خطاباً يؤكد لها فيه أنه لم يتعرض لها في رسالته
« نفخة البوق » ضد الملكات . ونصح وليام سيسل الوزير الأول ملكته
إليزابيث بأن تساعد الثورة الإسكوتلندية كإجراء يحتمق اعتماد إسكوتلندة على
إنجلترا سياسياً . وأدركت أن هذا إجراء وقائي مشروع ضد ماري
ستيوارت ، التي كانت قد طالبت ، عندما أصبحت ملكة فرنسا (١٥٥٩)
بعرش إنجلترا أيضاً ، على أساس أن إليزابيث ابنة سفايح مغتصبة للعرش .
وسرعان ما أخلق أسطول إنجليزي في مضيق فورث الطريق أمام نزول أي
مساعدة فرنسية للوصية على العرش إلى البر ، وانضم جيش إنجليزي
إلى قوات جماعة المصلين في مهاجمة ليث . وانسحبت ماري أميرة اللورين
إلى قلعة إدنبره ، وماتت (١٠ يونيو سنة ١٥٦٠) بعد أن قبلت حاشيتها
واحداً واحداً . لقد كانت امرأة طيبة قدر عليها أن تقوم بالدور الخطأ
في مأساة لا فكاك منها .

واستسلم آخر المدافعين عنها ، بعد أن سدت في وجوههم السبل
وأرثكوا على الموت جوعاً . وفي السادس من يوليو سنة ١٥٦٠ وقع
ممثلو جماعة المصلين وماري ستيوارت وفرنسا وإنجلترا معاهدة إدنبره التي

قدر لموادها أن تكون من صميم أسباب الصراع الأخير بين ماري وإليزابث
وكان على كل الجنود الأجانب ما عدا ١٢٠ فرنسياً مغادرة إسكوتلنדה ، وكفت
مارى استيوارت وفرانسيس الثانى عن مطالبتهما بالتاج الإنجليزى ، واعترف
بمارى ملكة على إسكوتلنדה ، ولكن حذر عليها أن تشن حرباً أو تعقد صلحاً
بدون موافقة أمراء الإقطاع ، وكان على هؤلاء أن يختاروا خمسة رجال
أو اثني عشر رجلاً للتعيين فى مجلسها الخاص ، ولا يجوز أن يشغل أجنبي
أو رجل من رجال الإكليروس منصباً رفيعاً ، ولا بد من إعلان عفو عام ،
مع استثناءات يعينها أمراء الإقطاع . كانت معاهدة صلح مهينة للملكة الغائبة ،
وانتصاراً مبيهاً لجماعة المصلين لم تكذ تسفك فيه دماء

وقبل المجلس النيابى ، الذى اجتمع فى أول أغسطس سنة ١٤٦٠
اعترافاً بالعقيدة أعده نوكس ومعاونوه وخفف من غلواء بعض نصوصه
ميتلاند ليشتنجتون ولم يصوت ضده إلا ثمانية أعضاء . ولما كان لا يزال
العقيدة الرسمية لكنيسة إسكوتلنדה المشيخية نرى لزماً علينا أن نسجل
بعض مواد الأساسية تذكيراً بها :

١ - نعترف ونقر بوجود إله واحد أحد فى ثالث : .

٢ - نعترف ونقر أن إلهنا هذا قد خلق بشراً ندرک أنه أبونا
الأول آدم - خلق منه الله امرأة على صورته حتى لا نلاحظ أى
نقص فى طبيعة الإنسان الكاملة ، ومن هذا الشرف والكمال سقط
الرجل والمرأة معاً .

فالمرأة خدعتها الحية والرجل أصغى لصوت المرأة ،

٣ - وبهذه الزلة ، التى يطلق عليها عادة اسم الخطيئة الأولى دنس
صورة الرب تماماً فى الإنسان ، وأصبح هو وذريته من الطبيعة أعداء
للرب ، عبيداً للشيطان وخدماءاً للخطيئة ، وما دام ذلك الموت كانت له ،
وسوف تكون له دائماً ، قوة وسلطان ، على كل من لم يولد أو ولد

(١٥ - ج ١ ، مجلد ٦) .

أوسوف يولد من أعلى ، وهذا الميلاد من جديد يتم على يد الروح القدس ، وهو يعمل في أفئدة أصفياء الرب فتمتلء إيماناً لا يتزعزع بوعد الرب . وهذا الإيمان يدركون يسوع المسيح .

٨ — وذلك الرب والأب البآ نفسه . . . برحمته وحدها اختارتنا في يسوع المسيح . . . قبل خلق العالم . . .

١٦ — إننا نوؤمن بإخلاص شديد ، بأنه كانت منذ البداية ، ولا تزال ، وسوف تكون إلى نهاية العالم ، كنيسة أى صحبة وجماعة من الناس اختارهم الله ، لكي يعبدوه بحق ، ويحتضنوه بالإيمان الصحيح بيسوع المسيح . . . وخارج هذه الكنيسة لا توجد حياة ولا نعيم أبدى ، ومن ثم فإننا نتمقت بشدة كفر من يؤكدون أن الناس يعيشون ، وهم يراعون الإنصاف والعدل سوف يظفرون بالخلاص أيا كان الدين الذى يعتنقونه .

٢١ — نحن لا نقر إلا اثنتين من المقدسات : التعميد والعشاء الربانى . . . لا لأننا نتصور تحول الخبز إلى جسد الرب الطبيعى . . . ولكننا نوؤمن بأن صنيع الروح القدس إنما يعنى أن المؤمنين بالاستخدام الصحيح لمائدة الرب يأكلون جسد السيد يسوع ويشربون دمه .

٢٤ — نعرف ونقر بأن الإمبراطوريات والممالك والمستعمرات والمدن أقيمت بفضل الله . . . فى الغالب وبصفة رئيسية للملوك والأمراء والحكام ، وذلك من أجل الحفاظ على كل ما يتصل بالدين وتطهيره ، ولهذا فإنهم لا يعينون من أجل السياسة المدنية وحدها ، ولكن من أجل المحافظة على الدين الصحيح ومنع عبادة الأوثان والخرافة أيا كانت أيضاً (٤٩) .

وترتب على هذا الاعتراف أن المجلس النيابى الإسكوتلندى الآخذ بأسباب الإصلاح الدينى رفض التسليم بالسلطة القضائية للبابا ، وجعل التعبدية والشعيرة اللتين تبناها الإصلاح الدينى إجباريين ، ومنع إقامة القداس وإلا تعرض من يتيمة للتعقبة البدلية ومصادرة أمواله عند ارتكاب أول جريمة ، والنفى

عند ارتكابه لها للمرة الثانية ، والإعدام إذا ارتكبها مرة ثالثة ، ولكن لما كان للتبلاء الذين يتحكمون في المجلس النيابي يريدون الأرض أكثر مما يريدون سفك الدماء ، وبما أنهم لم يتبعوا اللاهوت الكالفيني حرفياً فإن مطاردة هؤلاء الإسكوتلنديين الذين ظلوا كاثالكة ، بقي معتدلاً نسبياً ، ولم يصل قط إلى توقيع عقوبة بدلية . وبعد أن سمح للتبلاء برفض الاعتراف بالمظهر باعتباره أسطورة ، ادعوا أنهم غبنوا في جانب من ذمتهم المالية بالهبات التي قدمها أجدادهم من الأرض أو المال لدفع أتعاب لقساوسة يرتلون قداسات من أجل الموتى ، الذين قدر عليهم طبقاً لللاهوت الحديد ، الخلاص أو اللعنة قبل خلق العالم ، ولهذا فإنه يمكن التعبير في بهجة عن نزع ملكية الكنيسة بأنه استرداد للأموال المختلسة ، وأغلقت معظم الأديار الإسكوتلندية ، واستولى التبلاء على ثروتها ولم تدير الحكومة في مبدأ الأمر أي مورد للقساوسة الكالفينيين ، وكان هؤلاء قد استخدموا كمعاونين أيدلوجيين في الثورة ، ولكن التبلاء كانوا قد فقدوا وقتذاك الاهتمام باللاهوت ، وكان نوكس ورفقاؤه من الوعاظ الذين خاطروا وضحوا بالكثير من أجل النظام الحديد قد توقعوا ، أن تستخدم أملاك الكنيسة في مساندة الكنيسة الإسكوتلندية ورجال الأكليروس بها ، والتمسوا من المجلس النيابي لإقرار هذا التدبير فلم يتلقوا جواباً ، ولكن خصص لهم في آخر الأمر سدس الأسلاب . ووجد أن هذا يقصر عن تحقيق مطالبهم فانقلبوا ضد الأرستقراطية النهمة وبدأ الحلف التاريخي بين أتباع الكنيسة المشيخية الإسكوتلندية والديمقراطية .

وتفردت حركة الإصلاح الديني الإسكوتلندي بين حركات الإصلاح الديني جميعاً بأنه لم يسفك فيها إلا أقل قدر من الدماء ، وكانت مع ذلك أبقاها ، وقاسى الكاثالكة في صمت ، وهرب أساقفتهم وقبل معظم قساوسة الأبرشيات التغيير باعتباره ليس أسوأ من ظلم الأساقفة وزياراتهم التفتيشية .

وفقدت المناطق الريفية مفارق طرقها الجانبية ، وهجرت مزاراتها القديمة ، التي كان الحجاج يشدون إليها الرحال ، ولم يعد القديسون يمشون للناس عطلات يرتاحون فيها . وليس من شك في أن نفوساً كثيرة قد حزنت على الماضي وبالغت في مثاليته . وليس من شك أيضاً في أن كثيرين أخذوا يترقبون ، والأمل براودهم ، مجيء ملكتهم الشابة من فرنسا ، ولقد ضاع الكثير مما كان يشيع المرح والجمال في الحياة . والكثير مما كان وحشياً وقاسياً وخداعاً ، ولسوف تحدث أمور كثيرة جافية كنيية ، ومع ذلك لم يكن هناك بد من التغيير .

ونخفت وطأة تبادل التهم وهياً الناس أنفسهم ، لتقبل النظام الجديد ، وأصبح التقاء مواقف ما يشبه العقيدة بالصفوف المشايعة للملكية ، والتي يقترب بعضها من بعض ، يعد نعمة كبرى ، لأنه سيضع حداً للحروب المريرة بين الإسكوتلنديين والإنجليز ، وسرعان ما تمنح الأمة الأضعف البلد الأقوى ملكاً ، وبريطانيا ستصبح مملكة واحدة .

الفصل الثامن والعشرون

هجرات الإصلاح الديني

١٥١٧ - ٦٠

١ - المشهد الإسكندريناوى

(١٤٧٠ - ١٥٢٣)

ما إن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت تفوى الناس قد جعلت الكنيسة تسيطر على اقتصاد اسكنديناوة . وكانت الكنيسة تملك نصف الأرض في الدمرك ، وكان يفلحها مستأجرون في منزلة تقرب من الرق^(١) . وكانت كوبنهاجن نفسها إقطاعية للكنيسة ، ورجال الإكليروس والنبلاء يتمتعون بالإعفاء من ضرائب الأرض . أما النبلاء فلأنهم اشتركوا في الحرب على نفقتهم الخاصة ، وأما رجال الاكليروس فلأنهم نظموا العبادة والأخلاق والتعليم والبر . وكانت الجامعات في كوبنهاجن وأبسالا بالطبع في أيدي رجال الكنيسة ، وكانت الكنيسة تتقاضى سنوياً عشر كل ناتج أو دخل يُحصَل خارج مجال للكنيسة ، وتقاضت رسماً صغيراً على كل بناء يقام وكل طفل يولد وكل اثنين يتزوجان وكل جثة تدفن ، وطالبت بالتبرع بيوم عمل في السنة من كل فلاح . ولم يكن في وسع أحد أن يرث عقاراً ، دون أن يقدم عنه حصة للكنيسة ، باعتبارها محكمة إسهاد للثبوت من صحة الوصايا^(٢) . وكان يدافع عن هذه الضرائب بأنها تمول الخدمة الكهنوتية في الكنيسة ، ولكن الشكاوى ارتفعت بأن الكثير من متحصلات المعاملات التجارية ذهبت لكي يعيش الأساقفة في أبهة ملكية . وأزعج تجار الدمرك السيادة الهنزية في بحرى الشمال والبلطيق ، فتميزوا غيظاً من المنافسة الإضافية للنبلاء ورجال الإكليروس ، الذين كانوا يصدرون فائض إنتاج ضياعهم في سفنهم الخاصة غالباً . وفي

اسكنديناوة كما في غيرها من البلاد ، تطلع النبلاء في شوق إلى أراضي الكنيسة ، ولقد حدث هناك ، كما حدث في كل موضع آخر صراع بين القومية ، وبين الكنيسة التي تسمو على كل قومية ، وأيدت الكنيسة في كل البلاد للثلاث اتحاد كالمار الاسكنديناوى ، الذى كان كريستيان الأول ملك الدنمرك قد جده (١٤٥٧) ، ولكن حزباً قومياً يتألف من سكان المدن والفلاحين رفض الاعتراف بالاتحاد ، باعتباره في الحقيقة سيادة دنمركية ، ونادوا هستن ستور الأصغر نائب ملك يحكم أمة مستقلة (١٥١٢) ، ودافع رئيس الأساقفة جوستاف ترول من أبسالا - وكانت وقتذاك عاصمة للسويد - عن الاتحاد ، فأقاله هستن ستور الصغير وأمر البابا ليو العاشر بإعادته إلى وظيفته فرفض ستور ، وحرّم ليو تقديم الخدمات الدينية في السويد وفوض كريستيان الثانى ملك الدنمرك في غزو للسويد ومعاقبة نائب الملك ، وفشلت أول محاولة لكريستيان ، واضطر إلى توقيع هدنة ، ولكنه حمل معه عند العودة إلى كوبنهاجن عدة رهائن كضمان لالتزام السويديين بنصوص الهدنة ، وكان جوستاف فازا أحد هذه الرهائن : وظفر كريستيان في حملة ثالاية بنصر حاسم ، ومات ستور متأثراً بالجروح ، التي أصيب بها في المعركة . وأعدت أرملته على عجل جيشاً احتفظ باستكهم لمدة خمسة شهور أمام حصار دنمركى ، وأخيراً سلمت مقابل وعد قدمه قائد كريستيان بالحصول على عفو عام . وفي ٤ نوفمبر توج كريستيان ملكاً على السويد على يد ترول الظافر الذى أعيد إلى وظيفته .

وفي السابع من نوفمبر استدعى كبار السويديين الذين أيدا ستور للمثول أمام الملك في قلعة استوكهلم . واتهمهم ممثل ترول بارتكاب جرائم عظيمة بخلعهم كبير الأساقفة وتدمير قلعته ، وطالب الملك بالانتقام منهم لهذه الأخطاء ، وعلى الرغم من العفو العام الذى صدر فقد حكم على سبعين من كبار السويديين بالإعدام . وقطعت رعوسهم في الثامن من نوفمبر في الميدان

الكبير ، وقبض على آخرين عديدين في التاسع من نوفمبر وأعدموا ، وأضيف إلى من قتلوا في هذه المذبحة بعض المشاهدين الذين أعربوا عن تعاطفهم مع المحكوم عليهم ، وصودرت أملاك الموتى لصالح الملك ، وصرخ كل السويديين من الرعب ، وقال الناس إن اتحاد كالمار أغرق في « حمام الدم باستوكهلم » وانحطت مكانة الكنيسة كثيراً في نظر الجماهير لأنها بدأت المذبحة ، وقد رأى كريستيان أن يجعل حكمه آمناً بالقضاء على عقول الحزب القومى . والحق أنه مهد طريق العرش للرهيبة الشاب الذى قدر له أن يحرر السويد ،

واسمه جوستافوس أركسون ، ولكن ذريته أطلقوا عليه اسم فازا ، وهو مشتق من كلمة vasa السويدية و fascis ، اللاتينية ومعناها حزمة من العصي ظهرت في شعار أسرته . وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره أرسل ليدرس في أوسالا ، وعندما بلغ العشرين من عمره استدعى لبلاط ستور الصغير الذى تزوج أختاً غير شقيقة لجوستافوس من أمه ، وهناك تلقى مزيداً من التعليم على يد رئيس الوزراء ، الأسقف هيمينج جاد ، وفي عام ١٥١٩ فر من المراقبة في الدنمرك واتخذ طريقه إلى لوبك ، وأقنع أعضاء مجلس الشيوخ فيها (وكانوا في عداء دائم للدنمرك) ، أن يقرضوه مالا ويعيروه سفينة ، وعاد إلى شواطئ بلاده (٣١ مايو سنة ١٥٢٠) ، وأخذ بضرب على غير هدى وهو متنكر أربعة شهور أو كان يختبئ في قرى مغمورة . وفي نوفمبر وصلت الأنباء إليه بأن ما يقرب من مائة من الوطنيين المخلصين ، ومنهم أبوه ، قتلوا في استوكهلم ، فامتطى صهوة أسرع جواد استطاع العثور عليه ، وركب شمالاً إلى موطنه مقاطعة داليكارليا ، وصمم على أن ينظم هناك من ملاك الأراضي الجسورين طلائع جيش يمكن أن يحرر السويديين من الدنمركيين .

وكانت حياته وقتذاك ملحمة جذيرة : بأن يتغنى بها هو ميروس . فقد مضى

يسير في طرقات ثلجية ، والتمس الراحة في بيت زميل سابق له في المدرسة ،
وقدم له هذا الصديق واجبات الضيافة ثم انطلق ليخطر الشرطة الموالية
للدنمركيين أن الرهينة الهاربة يمكن القبض عليها وقتذاك ، غير أن الزوجة
أنذرت جوستافوس ليلوذ بالفرار . وبعد أن قطع راكباً عشرين ميلاً وجد
ملجأ لدى قسيس أخفاه أسبوعاً . وسافر بعد ذلك ثلاثين ميلاً وحاول أن
يحرص مدينة راتفيك على الثورة بيد أن أهلها لم يكونوا قد سمعوا بعد بقصة
حام الدم ولم يصدقوها . فركب فاذا وسار في مروج متجمدة خمسة وعشرين
ميلاً شمالاً إلى مورا ، وتوسل مرة أخرى للفلاحين أن يقوموا بثورة ، بيد أنهم
أصغوا إليه متشككين في تبلد . ووجد نفسه منبوذاً وتملكه اليأس لحظة ،
فاستدار بفرسه نحو الغرب ، وتغلى عن البحث عن ملجأ في الزويج : وقبل أن
يصل إلى الحدود أدركه رسول من مورا ، ورجاه أن يعود ، وتعهد له بأنه
سوف يمد وقتذاك أذنأ صاغية بروح تفيض حماسة مثل روحه . فقد سمع
الفلاحون أخيراً بأبناء الرعب في استوكهلم ، وعلاوة على هذا انتشرت شائعة
بأن الملك كان يفكر في القيام برحلة يخترق فيها السويد ، وأنه أمر بإقامة
المشائق في كل مدينة كبرى . وتقرر فرض مكوس جديدة على شعب كان
يكافح من أجل الحياة أمام جشع السادة واستبداد المبادئ الأساسية . وعندما
خطب جوستافوس المواطنين في مورا مرة أخرى أعطوه حرساً مكوناً من
سنة عشر من سكان المناطق الجبلية ، وأقسموا أن يساحوا أنفسهم ، وينظحوا
صفوفهم ، ويسيروا وراءه حينما يقودهم لمقاتلة الدنمركيين

ولم يعرفوا وقتها سوى الأقواس والسهام وبنوس الحرب ، وعلمهم
فأذا كيف يصنعون الرماح والحراب برعوس من الحديد : ودرهم بكل حمية
يطويها بين جوانحه شاب يحفزه حب الوطن والساطة ، وبهذه الحماسة استولوا
على فستيريس ثم أبسالاً ، وفر كبير الأساقفة ترول مرة أخرى ، وكسب
الجيش النامي في صر وتصميم مقاطعة إثر أخرى من الحاميات الدنمركية

ولم يستطع كريستيان الثانى الحضور ليتولى بنفسه قيادة قواته. لأنه واجه فى بلده ذاتها حرباً أهلية إلا أن أسطوله أغار مراراً على الشواطئ السويدية ، وبعث جوستافوس برسلى إلى لوبك لكى يطلبوا سفناً حربية . وجهزت المدينة التجارية عشرة سفن صرفت نشاط الأسطول الدنمركى ، وذلك مقابل وعد بالحصول على مبلغ كبير . وفى السابع من يونيه سنة ١٥٢٣ نادى الثوار المنتصرون ، فى ركسراد جديدة بقائدهم ملكاً باسم جوستافوس الأول ، وفى العشرين من يونيه استسلمت ستوكهلم واتخذت فوزاً منها بعد ذلك عاصمة له . وفى غضون ذلك كان كريستيان الثانى قد خلع عن عرشه فى الدنمرك ، وتولى خلفه فريدريك الأول عن كل المطالب الدنمركية فى السيادة على السويد ، وانتهى اتحاد كالمار (١٣٩٧ - ١٥٢٣) وبدأت أسرة فزازا .

٢ - الإصلاح الدينى السويدى

كان جوستافوس لا يزال شاباً فى السابعة والعشرين من عمره . ولم يكن فارع الطول ، كما نههد فى الرجال من أهل الشمال ، ولكنه كان يتمتع بقوة بدنية مثل أى قرصان أسكنديناوى ، وكان وجهه المستدير متورداً بمحمرة الصحة ، ولحيته الصفراء الطويلة تضفى عليه وقار الملك أكثر من دلالتها على سنه ، وكانت أخلاقه رائعة بالنسبة إلى ملك ، بل إن الكنيسة التى قدر له أن يلبدها بعد ذلك بوقت قصير لم تستطع أن تجادل فى تقواه . ووقف نفسه على للقيام بأعباء الحكم بنشاط لا يعرف الأناة، جعله ينزلق أحياناً إلى التوسل بالعنف أو الاستبداد ، بيد أن ظروف السويد عند ارتقائه العرش كانت تبرر أو تكاد طبعه وحكمه المطلق . وقد ترك آلاف الفلاحين ، فى غمرة فوضى الحرب ، حقوقهم دون أن يزرعوها ، وهجر عمال التعدين مناجمهم ، ودمر الصراع المدن ، وخفضت قيمة العملة وأفلست الخزانة العامة ، وأزهقت أرواح أصحاب

العقول المدبرة في البلاد في « حمام الدم » ، واعتبر البارونات الإقطاعيون الباقون على قيد الحياة جوستافوس حديث النعمة ، ونظروا بإحتقار إلى ادعائه الحق في الحكم ، ودبرت المؤامرات لخلعه ففضى عليها بيد من حديد ، وكانت فنلنده ، التي كانت جزءاً من السويد ، لا تزال في أيدي الدتمركيين ، وكان سورن نوربي أمير البحر الدنمركي يحتفظ بجزيرة جوتلاند الاستراتيجية ، وضجت لوبك مطالبة بسداد قروضها .

وكانت أول حاجة ملحة استشعرتها الحكومة مال يدفع للقوات المسلحة التي تحميها ، ثم للموظفين الذين يقومون على شئونها ، أو وعد بدفع هذا المال ، ولكن الضرائب في السويد أيام فاذا كانت تكاد تكلف في جبايتها أكثر من المنحصر منها لأن الذين كان في وسعهم وحدهم أن يدفعوها كانوا أقوياء جداً إلى الحد الذي يقاومون فيه جبايتها . وخضع جوستافوس لما اقتضته الحاجة الملحة من تخفيض قيمة العملة مرة أخرى ، بيد أن العملات الرديئة سرعان ما هبطت إلى قيمتها الفعلية ، وكانت إيرادات الدولة أسوأ مما كانت عليه من قبل ، ولم تكن في السويد إلا جماعة واحدة غنية - هي طبقة رجال الإكليروس ، فتحول جوستافوس إليهم ، وطلب منهم المساعدة ، واعتقد أن من العدل أن تخفف ثروة الكنيسة وطأة الفقر الذي يزرع تخته الشعب والحكومة ، وكتب عام ١٥٢٣ رسالة إلى الأسقف هانز براسك من لذكوبنج ، يطلب فيها هبة قدرها ٥٠٠٠٠ جيلدر للدولة ، فاحتج الأسقف ثم أذعن . وأرسل فاذا طلبا عاجلا إلى كنائس السويد وأديارها بضرورة تسليم كل الأموال والمعادن الثمينة ، التي ليست ضرورية لمواصلة خدماتها ، إلى الحكومة بصفة قرض ، ونشر قائمة بالمبالغ التي يتوقع الحصول عليها من كل مصدر ، ولم تكن الاستجابة إليه كما توقع ، وبدأ يتساءل : ما إذا كانت الحكمة تقتضي منه أن يفعل كما كان يفعل الأمراء اللوثريون في ألمانيا - فيصادر ثروة الكنيسة تلبية لحاجته

الدولة : ولم ينس أن أغلب كبار رجال الإكليروس قد عارضوا الثورة ،
وأثمهم عضدوا حكم كريستيان الثاني في السويد :

وفي عام ١٥١٩ عاد أولوس بترى ، وهو ابن صاحب مصنع
حديد سويدي بعد أن قضى بضع سنوات في الدراسة بفيتنبرج ، وسمح
لنفسه ببعض الهرطقات ، وهو شماس في المدرسة الكاثدرائية في سترانجنارس
وقال إن المطهر أسطورة ، وإن الصلوات يجب أن يخاطب بها الله وحده
وإن الاعتراف يوجه إليه تعالى وحده ، وإن الدعوة إلى ما ورد في
الإنجيل خير من شعيرة القديس . وبدأ الناس يتداولون رسائل لوثر
في السويد . فألح براسك على فاذا أن يمنع بيعها ، فأجاب الملك بأن
تعالم لوثر عرضت على قضاة عدول فلم يجدوا فيها زيفاً^(٢) . ولعله رأى أن
من حسن السياسة الاحتفاظ على سبيل الاحتياط بهرطيق يساوم للكنيسة عليه .
وأصحت الأمور أشد إثارة عندما رفض البابا أدريان السادس أن
يصادق على تعيين قاصده الرسولى جوهانس ماجنوس رئيساً لأساقفة أوسالا ،
واقترح إعادة جوستاف ترول عدو الثورة . فأرسل فاذا إلى مجلس شورى
الفايكان رسالة كانت حرية وقتذاك (١٥٢٣) بأن تفرع هنرى الثامن وتسعده
فيما بعد :

إذا كان عهد أبينا المقدس أى اهتمام بسلام بلدنا فإنه يسرنا أن نراه يصادق
على اختيار قاصده الرسولى ... وسوف نستجيب لرغبات البابا فيما يختص
بإصلاح الكنيسة والدين . ولكن إذا أيد قداسته أنصار كبير الأساقفة ترول
الموصومين بالخرجة ، مخالفاً بذلك كرامتنا وسلامة رعايانا ، فإننا سوف
نسمح لقاصده الرسولى بالعودة إلى روما ، وسوف ندبر أمور الكنيسة في
هذه البلاد بمقتضى السلطة المخولة لنا باعتبارنا ملكاً .
وأدت وفاة أدريان وانصراف كليمنت السابع بجهوده لمقاومة لوثر
وشارل الخامس وفرانسيس الأول ، إلى ترك فاذا حراً في المضي قدماً بالإصلاح

الدينى السويدى ، فعين أولوس بترى فى كنيسة سانت نيكولاس فى استكهلم ،
وعين لورانتيوس شتميق أولاس أستاذاً للاهوت فى جامعة أوسلا ، ورفع
مصلحاً دينياً ثالثاً وهو لورانتيوس أندريا إلى رتبة رئيس شمامسة الكاتدرائية ،
ودافع أولوس بترى عن اللوثرية فى مناظرة دارت بينه وبين بيترجال (٢٧
ديسمبر سنة ١٥٢٤) فى مقر الأسقفية بالكاتدرائية ، برئاسة الملك وقضى
فاذا بفوز أولوس ، ولم ينزعج عندما اتخذ أولاس زوجة له (١٥٢٥) ،
قبل زواج لوثر بأربعة شهور ، ومهما يكن من أمر فإن الأسقف براسك
فزع بسبب هذه المخالفة لرهبانية رجال الأكليروس ، وطلب من الملك أن
يقضى على بترى بالحرمان . فأجاب جوستافوس بأن أولوس يجب أن
يعاقب إذا كان قد ارتكب خطأ ، ولكن « يخيل لى أن من العجب أن
يعاقب المرء بسبب الزواج (وهو شعيرة لا يحرمها الله) ، ولا يقع المرء
تحت طائلة الحرمان بسبب الفسوق وغيره من الآثام» ، وبدلاً من أن يحكم
على بترى بأنه خالف القانون انتدبه هو وشقيقه لترجمة الكتاب المقدس إلى
اللغة السويدية . وساعدت النسخة المترجمة إلى اللغة الدارجة ، كما حدث
فى كثير من البلاد الأخرى ، على تكوين اللغة القومية وتحرير الدين القومى .

وعد جوستافوس ، مثل معظم الحكام ، أى إجراء يقوم به لتدعيم مركز
بلاده أو عرشه مسائراً للأخلاق . وحرص على ترقية الأساقفة الذين
يذعنون لخططه إلى مرتبة المطرانيات السويدية ووجد أسباباً لا يستطيع دفعها
لنزع ملكية أراضي الأديار ، ولما كان قد تقاسم الأسلاب مع النبلاء فإنه
فسر ذلك بأنه إنما كان يعيد إلى العلمانيين ما أغرى أجدادهم على أن
يهبوه للكنيسة ، وشكا البابا كليمنت السابع من أن القساوسة السويديين كانوا
يتزوجون ، ويقدمون القرهان بالخبز والنبيذ ، ويهملون شعيرة المسح
الأخير ويغيرون شعيرة القدامس وبعث بندااء للملك بأن يظل مخلصاً للكنيسة
ولكن جوستافوس كان قد قطع شوطاً بعيداً فلم يستطع أن يتراجع ، وكانت

العقيدة المحافظة حرية بأن تخرب خزائنه . ونادى في مجلس فستيريس (١٥٢٧) بالإصلاح الديني علنا .

كان اجتماعاً تاريخياً في تكوينه ونتائجه معا . فقد اجتمع أربعة أساقفة وأربعة من كبار القساوسة وخمسة عشر عضواً من الـ **Riksråd** و١٢٩ نبيلًا واثنتان وثلاثون من أوساط الناس وأربعة عشر نائباً لعمال المناجم و١٠٤ ممثلاً للفلاحين ، وكان هذا مجلساً وطنياً يمثل أعرش قاعدة بين المجالس في القرن السادس عشر . وطرح كبير وزراء الملك اقتراحاً ثورياً أمام المجلس ، فقال إن الدولة قد افتقرت إلى المال إلى حد عجزها عن القيام بتبعاتها لخير الشعب ، وأن الكنيسة كانت غنية جداً إلى الحد الذي يسمح لها بأن تحول جانباً كبيراً من ثروتها إلى الحكومة ، ويبقى لها مع ذلك ما يكفي لأن تقوم بجميع التزاماتها . وحارب الأسقف براسك لآخر لحظة من أجل مثله العليا وأملاكه العقارية ، فأعلن أن البابا قد أمر رجال الأكليروس بالدفاع عن أملاكهم . وصوت المجلس في صف القائلين بإطاعة البابا . ورأى جوستافوس أن يقامر على كل شيء برمية واحدة ، فأعلن أنه إذا كان هذا حكم المجلس والأمة فإنه سيستقيل ويرحل عن السويد ، وظل المجلس في نقاش مستمر طوال ثلاثة أيام . ووقف الأوساط ورجال الفلاحين إلى جانب الملك ، وكان لدى النبلاء سبب وجيه للتحرك في الاتجاه نفسه ، واقتنع المجلس آخر الأمر بأن فازا أعظم قيمة للسويد من أي بابا ، فوافق على رغبات الملك . وتحولت الأديار في فترة العطلة أوفى ختام مجلس فستيريس إلى إقطاعات للملك ، وإن سمح للرهبان بالإفادة منها ، وتقرر إعادة كل الأملاك التي منحها النبلاء للكنيسة منذ عام ١٤٥٤ إلى ورثة الواهبين ، وأن يسلم الأساقفة قصورهم إلى التاج ، وحرّم على الأساقفة أن يسعوا إلى الحصول على تأييد البابا لتعيينهم ، وتقرر أن يسلم رجال الإكليروس إلى الدولة كل دخل ليست شعائرهم للدينية في حاجة إليه ، ووضع حد للاعتراف السري ، وتقرر أن تعتمد العظات كلها على الكتاب المقدس وحده . وكان الإصلاح الديني في السويد ، بصورة قاطعة أكثر منه في أي مكان آخر ، تأمياً للدين وانتصاراً للدولة على الكنيسة .

وعاش فازا بعد هذه الأزمة ثلاثا وثلاثين عاماً ، وظل حتى النهاية حاكماً مطلقاً . . . قوياً ولكنه يعمل لخير شعبه . . . وكان مقتنعاً بأن السلطة المركزية وحدها هي التي تستطيع أن تعيد النظام والرخاء إلى السويد ، وأنه في مهمة معقدة كهذه لا يستطيع أن يتوقف عند كل خطوة ليستشير مجلساً متروياً ، وبفضل تشجيعه وتنظيمه صبت مناجم الشمال حديدتها في أدوات الحرب السويدية ، واتسعت رقعة الصناعة ، وأبرمت معاهدات تجارية مع إنجلترا وفرنسا والدنمرك وروسيا أوجدت أسواقاً للسلع السويدية ، وجلبت إلى السويد منتجات من اثني عشرة بلداً ، وأضفت تهديباً جديداً وثقة على حضارة كانت قبله معتقلة في سداجة ريفية وأمية . وازدهرت السويد بوقتذاك كما لم تزدهر من قبل .

واشتبك جوستافوس في عدة حروب ، وقع أربع ثورات وعقد قرانه على ثلاث زوجات على التعاقب ، وأنجبت له الأولى ولداً أصبح فيما بعد اريك الرابع عشر ، وأنجبت له الثانية خمسة أولاد وخمس بنات أما الثالثة التي كانت في السادسة عشرة من عمرها عندما تزوجها وهو في السادسة والخمسين فقد عمرت بعده ستين عاماً ، وأغرى الراجسراد Rigsraad بأن يقبل أبناءه ورثة للعرش وأن يجعل وراثته العرش مقصورة على الذكور كقاعدة تتبع في الملكية السويدية .

وصفحت السويد عن حكمه المطلق لأنها أدركت أن النظام أصل الحرية وليس ثمرة لها . وعندما مات (٢٩ سبتمبر سنة ١٥٦٠ ، بعد حكم دام سبعة وثلاثين عاماً دفن في كاتدرائية أبسالا في احتفال صدر عنه بالحب وتميز بالسرف وهو لم يمنح شعبه الحرية الشخصية التي كانوا يستحقونها بصفة خاصة فيما يبدو ، ولكنه منحهم حرية جماعية من السيطرة الأجنبية في الدين أو الحكم ، وقد هيأ الظروف التي استطاعت أمته في ظلها أن تصل إلى درجة

النضج في مجالات الاقتصاد والأدب والفن . كان الأب الحقيقي للسويد الحديثة .

٣ - الإصلاح الديني الدنمركي

كان كريستيان الثاني ملك الدنمرك (حكم ١٥١٣ - ٢٣) شخصية لامعة مثل جوستافوس فاذا الذي هزمه في السويد . وقد أكرهه انبارونات على التوقيع على شروط استسلام مهينة ثمناً لانتخابه ، فأحاط نفسه بمستشارين من الطبقة المتوسطة وتجاهل الريجسراد Rigsraad (مجلس الثواب) الدنمركي ، المكون من الأعيان من ذوى النسب ، وعين أم عشيقته الهولندية الجميلة كبيرة لمستشاريه ولا بد أن هذا المجلس الخاص كان يتمتع بشيء من المقدره والروح ، لأن سياسة كريستيان الوطنية كانت بناءة بقدر ما كانت مغامراته الأجنبية فاشلة لا طائل تحتها ، وعمل جاهداً في تدبير الملك ، وأصلح حكم المدن ، وراجع القوانين ، وقضى على القرصنة ، ومهد الطرق ، وشرع في إقامة نظام يريدى عام ، وألغى أسوأ آفات الرق ، وأبطل عقوبة الإعدام على ممارسة السحر ، ونظم الإعانة للمحتاجين ، وفتح المدارس للفقراء ، وجعل التعليم إجبارياً ، وطور جامعة كوبنهاجن ، فأصبحت مكاناً يشع بالضياء وملاذا للعلم . وتعرض لعداء لوبك بتقييد سلطة الهانز Hanse ، وشجع التجارة الدنمركية وأسبع عليها حمايته ، ووضع حداً للعادة الممجيبة التي خولت للقرويين المقيمين بجوار البحر الحق في نهب كل السفن التي تتحطم على شواطئهم .

وأرسل ليو العاشر عام ١٥١٧ جيوفاني أركمبولدو إلى الدنمرك ليعرض صكوك غفران ، فندد بول هلمجن ، وهو راهب كرملي بما بدا له بيعاً لصكوك الغفران هذه ، وهو بذلك سبق رسائل لوثر (ه) . واشتجر النزاع بين القاصد الرسولى وبين الملك حول تقسيم هذه المبالغ المتحصلة من البيع . وهرب أركمبولدو إلى لوبك بجانب منها ، وصادر كريستيان الباقي ، وعندما

وجد كريستيان أسباباً وجيهة لاعتماد البروتستانتية دفعا للمظالم الحقيقية التي ارتكبتها الكنيسة و ثروتها القائمة ، عين هليجنز في منصب بجامعة كوبنهاجن ، حيث تزعم إرازموس الدنمرك الفصيح هذا ، إلى حين ، حركة للإصلاح الديني . وعند ما تحول هليجنز إلى رجل يأخذ بأسباب الحبيطة أرسل كريستيان إلى فردريك الحكيم الأمير المختار لسكسونيا ، كى يبعث إليه بلوثر نفسه ، أو يبعث إليه على الأقل بعالم في اللاهوت من مدرسة لوثر . وجاء كاراشتادت ، ولكنه لم يمكث طويلا . وأصدر كريستيان قانوناً بالإصلاح الديني : لا يجوز رسامة أحد دون أن يكون قد درس دراسة كافية ليفسر الإنجيل باللغة الدنمركية ، ولا يستطيع رجال الإكليروس قانوناً أن يملكوا عقاراً ، أو يتسلموا تركات ما لم يتزوجوا ، وأمر الأساقفة بأن يتخففوا من الترف الذى يعيشون فيه ، وفقدت المحاكم الكنيسة الاختصاص القضائى ، عند ما يتعلق الأمر بنظر قضية خاصة بالملكية ، وخولت محكمة عليا ، عينها الملك ، السلطة النهائية فى الشؤون الكنسية والمدنية على السواء : ومهما يكن من أمر فإنه عند ما وضع مجلس دايت ورمس لوثر تحت نير الحرمان الإمبراطورى ، أوقف كريستيان إصلاحاته وأشار هليجنز بعقد صلح مع الكنيسة .

وبينما كانت هذه السياسة الوطنية التي انتهجها كريستيان تثير شعبه ، فقد أزمه الموقف بفشله فى الشؤون الخارجية . وأدت قسوته فى السويد إلى أن ينقلب عليه كثير من الدنمركيين . وأعلنت لوبك الحرب عليه بسبب هججانه على السفن الهانزية ، وتجاهل النبلاء ورجال الإكليروس ، الذين نفرتهم منه الضرائب المرتفعة والتشريع المعادى ، دعواته لعقد مجلس وطنى ، ونادوا بعمه الدوق فريدريك أف شلسفيج - هولشتين ، ملكاً جديداً للدنمرك ، وفر كريستيان إلى الفلاندرز مع الملكة زوجته ، شقيقة شارل الخامس البروتستانتية ، وعقد صلحاً مع الكنيسة ، مؤملاً أن يجد مملكة لقداس ؛

وقبض عليه وهو يقوم بمحاولة ، لا طائل تحتها ، لاستعادة عرشه ، وعاش سبعة وعشرين عاماً في سجون سوندربورج ، لا رفيق له إلا قزم نرويجي أحمق . وقادته سبيل المجد إلى رمسه ، يجمله الخزي والعار رويداً (١٥٥٩) .

ولم يجد فردريك الأول ما كان يَشده من سعادة في ظل تاجه المهدد ، فقد رضى به النبلاء ورجال الأكليروس بشروط كثيرة ، أحدها أنه لن يسمح أبداً له بطبق بالوعظ ، الدنمرك ، وبينا كان هلعجن يواصل نقده لنقائص الكنيسة ، حول وقتذاك معظم مناظرته ، التي تشتعل حماساً ، ضد البروتستانت ، وألح على أن إصلاحاً دينياً ، يتم بالتدريج ، خير من ثورة يسودها الشعب . ولكنه لم يستطع أن يقف في وجه التيار ، فقد كان الدوق كريستيان ، ابن فردريك ، لوثيرياً قبل ذلك ، وتزوجت ابنة الملك ، بموافقة ، ألبرخت البراندنبورجى الرئيس اللوثرى السابق للفرسان النيوتون ، وفي عام ١٥٢٦ مال فردريك مع الرياح ، وعين هانز تاوون قساً خاصاً له ، وكان قد درس على يد لوثر . فترك تاوون ديره ، وتزوج ودافع علناً عن آراء لوثر ، ووجد فردريك أن من المناسب أن يأمر بأن تدفع له لا للبابا ، رسوم التصديق على تعيين الأساقفة . وتشجع الوعاظ اللوثريون وتضاعف عددهم ، وطلب الأساقفة نفيمهم ، فرد عليهم فردريك بأنه لا ولاية له على أرواح الناس ، وأنه قرر أن يترك العقيدة حرة - وهو إجراء غير مألوف للغاية . وظهرت عام ١٥٢٤ ترجمة للعهد الجديد باللغة الدنمركية ، ونشر كريستيان بدرسن عام ١٥٢٩ نسخة أفضل من الأولى ، دفعت الحركة البروتستانتية دفعة كبيرة . وكان الناس يتلهفون على وضع حد لضرائب العشور التي تدفع لرجال الأكليروس ، فقبلوا اللاهوت الجديد ، وما أن حل عام ١٥٣٠ حتى كان اللوثريون يسيطرون على كوبنهاجن وفيبورج . وفي ذلك العام عقدت مناظرة في المجلس بكوبنهاجن ، بين زهاء الكاثوليك والبروتستانت ، وقضى الملك والشعب بفوز البروتستانت ، وظل الاعتراف

بالعقيدة الذي قدمه هناك هانز تاووزن مدى عقد من الزمان ، المذهب الرسمي للوثريين الدنمركيين ٥

وكانت وفاة فردريك (١٥٣٣) مقدمة للفصل الأخير من الإصلاح الديني الدنمركي . فقد انضم كبار التجار في الدنمرك إلى أعدائهم القدامى في لوبك ، وقاموا بمحاولة لإعادة كريستيان إلى العرش ، وقاد الكونت كريستوفر اول اولدنبرج قوات لوبك وأطلق اسمه على هذه الحرب فسميت باسم «حرب الكونت» ، وسقطت كوبنهاجن في يده ، وأخذت لوبك تحلم بحكم الدنمرك بأسرها . بيد أن أوساط الناس والفلاحين نظموا صفوفهم تحت علم كريستيان ابن فردريك ، وتغلب جيشهم على اولدنبرج ، واستولى على كوبنهاجن بعد حصار ضربه حولها دام عاماً (يوليو سنة ١٥٣٦) . وقبض على جميع الأساقفة ، ولم يطلق سراحهم ، إلا بعد أن وعدوا بالبقاء إلى جانب النظام البروتستانتي وانعقد المجلس الوطني في أكتوبر سنة ١٥٣٦ ، وأنشأ رسمياً كنيسة الدولة اللوثرية ، ورئيسها الأعلى كريستيان الثالث . وصدورت جميع أملاك الأسقفيات والأديار لصالح الملك ، وفقد الأساقفة كل صوت لهم في الحكم . وقبلت النرويج وأيسلندة كريستيان الثالث وتشريعهم ، وكتب النصر التام للوثرية في اسكنديناوة (١٥٥٤) .

٤ - للبروتستانتية في شرقي أوروبا

نعمت بولندة بعصرها الذهبي في عهد سيجسموند الأول (١٥٠٦ - ٤٨) وابنه سيجسموند الثاني (١٥٤٨ - ٧٢) . وكانا رجلين على حظ من الثقافة والذكاء ، وراعيين متدوقين للأدب والفن ، وكلاهما منح للفكر الديني والعبادة حرية ، وعلى الرغم من أنها لم تكن كاملة ، فإنها جعلت معظم أمم أوروبا تبدو قروسطية إذا قورنت ببولندة . وتزوج سيجسموند الأول بونا سفورزا المرحمة الموهوبة (١٥١٨) ، وهى ابنة الدوق جيامباليازو أمير

ميلان ، وأحضرت معها إلى كراكو بطانة من رجال الحاشية والعلماء ، وبدلاً من أن يتبرم بهم الملك ، رحب بهم باعتبارهم جسراً يوصل بينه وبين النهضة ، وتملكت الأرستقراطية نزعة إلى الترفيع بارتداء الثياب المنمقة واقتناء الرياش الثمينة ، وأصبحت اللغة أكثر صقلًا ، والأخلاق أكثر تهذيباً ، وازدهرت الآداب والفنون ، وكتب إرازموس (عام ١٥٢٣) : « إنى أهنىء هذه الأمة . . . التى بلغت فيها العلوم وفقه القانون والأخلاق والدين وكل ما يفصلنا عن الممجيية درجة من الازدهار تستطيع بها أن تنافس أرفع الأمم شأنًا وأعظمها مجدًا (٦) » . وسيطرت بونا على زوجها بجمالها ورشاقتها ودهائها ، فأصبحت ملكة فعلا ، وملكة فى الزى على السواء . وكان ابنها سيجسموند الثانى عالما بالإنسانيات ولغويا وخطيبا وميالا إلى التزنى بزى النساء (٧) . وأضررت الحروب هذه العهود اللامعة لأن بولندة كانت مشتبكة مع السويد والدنمرك وروسيا فى نزاع على السيطرة على بحر البaltic وموانئه ، وفقدت بولندة بروسيا ، بيد أنها ضمت مازوفيا وتشمل وارسو (١٥٢٩) وليفونيا وتضم ريجا (١٥٦١) . وكانت بولندة فى هذا العصر دولة أوروبية كبرى .

وفى غضون ذلك تسلل الإصلاح الدينى من ألمانيا وسويسرة . وقد عودت حرية العبادة ، التى ضمنها التاج البولندى لرعاياه من الروم الكاثوليك ، الأمة على التسامح الدينى ، وجعلت ثورة الهسبين والأتراكويين فى بوهيميا المجاورة . والتى دامت قرناً من الزمان ، بولندة لا تعبأ إلى حد ما بالسلطة البابوية البعيدة . وكان الأساقفة ، الذين يعينهم الملوك ، رجالا مثقفين محبين لوطنهم ، من أنصار الإصلاح الكنسى ، مع الاعتصام بحجبة إرازمية ، ويؤبدون الحركة الإنسانية تأييداً عظيماً ، ومهما يكن من أمر فإن هذا لم يخفف من شدة الحسد الذى تطلع به النبلاء ، وسكان المدن ، إلى أملاكهم ومواردهم ، وازدادت الشكاوى من استنزاف الثورة

القومية إلى روما ، ومن صكوك الغفران التي تبكلف مشتريها غالباً بصورة غير معقولة ، ومن اتجار رجال الدين بالمقدسات والرتب والوظائف الدينية ، ومن ارتفاع نفقات التقاضى أمام المحاكم الأسقفية . واستاء صغار النبلاء الزلاخته Szlachka بصفة خاصة من إعفاء رجال الأكليروس من الضرائب ومن جباية رجال الأكليروس لضرائب العشور من النبلاء أنفسهم . ولعل بعض البارونات من ذوى النفوذ قد استمعوا فى تعاطف إلى نقد لوثر للكنيسة ، لأسباب اقتصادية ، وكان لما يتمتع به اللوردات الإقطاعيون من شبه سيادة الفضل فى إسباغ الحماية على الحركات البروتستانتية المحلية ، كما كان لاستقلال الأمراء الألمان الفضل فى إمكان نشوب الثورة وحماية لوثر . ودافع راهب دانزج على رسائل لوثر ودعا إلى القيام بإصلاحات كنسية ، وتزوج وارثة (١٥١٨) ؛ وانتهج واعظ آخر نهج لوثر فعلا إلى حد أن عدة جماعات للمصلين أزال كل الصور الدينية من كنائسها (١٥٢٢) وأحل مجلس المدينة الرهبان والراهبات من أقسامهم وأغلق الأديار (١٥٢٢) ، وما أن حل عام ١٥٤٠ حتى كانت كل منابر الوعظ فى دانزج فى أيدي البروتستانت . وعندما قدم بعض رجال الإكليروس فى براونزبرج البولندية البروسية الشعيبة اللوثرية وشكا كبراء القساوسة فى الكاتدرائية إلى أسقفهم ، رد بأن « لوثر بنى آراءه على الكتاب المقدس وكل من يشعر بأن فى مقدوره أن يدحضها فليضطلع بالعبء (١٥١٠) (٨) . وأقنع سيجسموند الأول بفرض رقابة على المطبوعات ، ومنع دخول كتابات لوثر ، غير أن كاتم سره وكاهن الاعتراف الفرنسيسكانى الخاص ببونا اعتنقا العقيدة المحرمة سراً وكسبتهما إلى صفها ، وأهدى كالفز، عام ١٥٣٩ كتابه « تعليق على القداس » لولى العهد .

وعندما أصبح الأمير ملكاً باسم سيجسموند الثانى انتشرت اللوثرية والكالفينية على السواء بسرعة . وترجم الكتاب المقدس إلى اللغة البولندية ، وبدأت اللغة الدارجة تحل محل اللغة اللاتينية فى الشعائر الدينية . وأعلن

القساوسة المبرزون مثل جان لاسكى تحوّلهم إلى البروتستانتية ؛ وفي عام ١٥٤٨ انتقل الإخوة البوهيميون من بلادهم إلى بولندا ، وسرعان ما كانت هناك ثلاثون جمعية سرية من طائفتهم في البلاد . وقام رجال الأكليروس الكاثوليك بمحاولة لاتهم بعض أفراد صغار النبلاء Szlachta بالهرطقة ومصادرة أملاكهم ، فأدت إلى قيام كثير من صغار النبلاء بالثورة ضد الكنيسة (١٥٥٢) وصوت المجلس النيابي الوطني لعام ١٥٥٥ ، وأقر الحرية الدينية لكل العقائد التي تعتمد على « كلمة الله الخالصة » ، وأسبغ صفة الشرعية على زواج رجال الأكليروس ، ومناولة القربان المقدس بالخبز والنبيذ ، وكان الإصلاح الديني في بولندا في أوج ازدهاره .

وتعقد الموقف في بولندا بتطور أقوى حركة للقائلين بوحدة الكنيسة ، إبان القرن السادس عشر في أوروبا ؛ وفي أوائل عام ١٥٤٦ نوقشت محاولات سرفيتوس المنكرة للقول بالثلث ، وذلك في هذا الشرق الأقصى من العالم المسيحي اللاتيني ، وزار لايبلوس سوكينوس بولندا عام ١٥٥١ وترك خاتر من الأفكار المتطرفة ، وواصل جيورجيو بلاندرانا الحملة ، وفي عام ١٥٦١ أصدرت الجماعة الجديدة اعترافاً بالعقيدة . وواصل أعضاؤها الخلط الذي اتسم به لاهوت سرفيتوس ، فقصروا الألوهية الكاملة على الرب الأب ، ولكنهم جاھروا بالإيمان بالمولد الخارق للمسيح ووحية الإلهي ومعجزاته وبعثه وصعوده . ورفضوا التسليم بفكرتي الخطيئة الأولى وتفكير المسيح عن خطايا البشر ، وسلموا بالتعميد والقربان المقدس كرمزين فحسب ، ولقنوا الناس أن الخلاص يتوقّف فوق كل شيء على العمل الواعي بتعاليم المسيح ؛ وعندما أدان الجمع المقدس الكالفيني في كراكو (١٥٦٣) هذه العقائد ، أنشأ القائلون بوحدة الكنيسة لهم كنيسة منفصلة . ولم تبلغ الطائفة أوج ازدهارها إلا على يد فاوستوس

سوكينوس ابن أخى لايلوس ، الذى وصل إلى بولنדה عام ١٥٧٩ .

وحاربت الكنيسة الكاثوليكية هذه التطورات بالاضطهاد والكتابات والدبلوماسية ، وفى عام ١٥٣٩ أرسل أسقف كراكو إلى المحرقة امرأة فى الثمانين من عمرها بتهمة أنها رفضت عبادة القربان المقدس^(٩) . وتصدى ستانسلاوس هوزيوس ، أسقف كولم فى بروسيا ، والكاردينال فيما بعد ، لتعبئة الهجوم المضاد بمقدرة وحماسة ، وعمل جاهداً من أجل الإصلاح للكلمى ، ولكنه لم يكن متعاطفاً مع اللاهوت البروتستانتي أو الشعيرة البروتستانتية وبناء على اقتراحه أرسل لودوفيكوليبومانو أسقف فيرونا إلى بولنדה مندوباً هابويماً ، وعين جيوفانى كومندونى ، أسقف زانتي قاصداً رسولياً فى كراكو ، وكسبوا تأييد سجموند الثانى الفعال للكنيسة بتأكيد الانقسامات بين البروتستانت وتضخيم صعوبة تنظيم الحياة المعنوية للأمة بمثل هذه العقائد الضارة المذبذبة ، وفى عام ١٥٦٤ جاء هوزيوس وكندونى باليسوعيين إلى بولنדה . وضمن هؤلاء الرجال المدربون المخلصون مناصب استراتيجية فى النظام التعليمى ، واستمالوا آذان الشخصيات البارزة ، وأعادوا الشعب البولندى إلى اعتناق العقيدة التقليدية .

وكان البوهيميون من البروتستانت قبل لوثر ، ولم يجدوا فى أفكاره ما يفزعهم إلا قليلاً ، وقبل جانب كبير من الألمان على الحدود الإصلاح الدينى ، وكان الإخوة البوهيميون ويبلغ عددهم حوالى عشرة فى المائة من مجموع السكان البالغ ٤٠٠.٠٠٠ نسمة ، أشد تمسكاً بالبروتستانتية من لوثر ، وكان ٦٠ فى المائة أترაკوين كاثوليك تناولوا القربان المقدس بالنبيذ وبالخبز على السواء ، وتجاهلوا احتجاجات البابوات^(١٠) . وما أن حل عام ١٥٦٠ حتى كان ثلثا سكان بوهيميا من البروتستانت ، ولكن فردينالد أدخل اليسوعيين عام ١٥٦١ ، وتحول التيار إلى العقيدة الكاثوليكية المحافظة .

وعرفت هنغاريا الإصلاح الدينى عن طريق المهاجرين الألمان وهم يحملون أنباء لوثر ، ذلك الرجل الذى استطاع أن يتحدى الكنيسة والإمبراطورية وعاش مع ذلك ، وتطلع الفلاحون الهنغاريون الذين ظلمهم الإقطاع الذى تساعده الكنيسة ، بشيء من التحيز لبروتستانتية يمكن أن تضع حداً لضرائب العشور والمكوس التى تجبها الكنيسة ، وتطلع البارونات الإقطاعيون بعيون جشعة إلى أملاك الكنيسة الشاسعة ، التى كانت منتجاها تنافس منتجات أراضيهم ، ورأى عمال المدن ، الذين أصيبوا بعدوى مبادئ المدينة الفاضلة ، أن الكنيسة هى العقبة الكبرى التى تقف فى طريق أحلامهم ، وانهمكوا فى نشوات تحطيم التماثيل ، وتعاونت الكنيسة فى إقناع الحكومة باعتبار اعتناق البروتستانتية جريمة يستحق مرتكبها الإعدام ، وسعى الملك فرديناند فى غربى هنغاريا جاهداً للحصول على مصالحة ، وأراد أن يسمح لرجال الإكليروس بالزواج وبتقديم القربان المقدس بصورتيه المعروفتين ، وانتشرت البروتستانتية بلا قيود فى شرقى هنغاريا فى ظل حكم تركى ينظر باحتقار وبلامبالاة إلى الاختلاف بين المذاهب المسيحية ، وما إن حل عام ١٥٥٠ حتى بدأ أن هنغاريا بأسرها سوف تصبح بروتستانتية ، ولكن الكالفينية بدأت وقتذاك وتنافس اللوثرية فى هنغاريا ، وأيد المهاجرون ، وهم بفطرتهم مناهضون للألمان ، النمط السويسرى من الإصلاح الدينى ، وما إن جاء عام ١٥٥٨ حتى كان الكالفينيون من الكثرة إلى حد أنهم استطاعوا عقد مجمع مقدس فى زنجر ، كان له أثره الكبير . وشطرت مراكز القوى المتنافسة للإصلاح الدينى الحركة إلى شطرين ، وعاد كثير من الموظفين أو من تحولوا من عقيدتهم ، ممن ينشدون الاستقرار الاجتماعى أو الهدوء الفكرى إلى الكاثوليكية ، وفى القرن السابع عشر استعاد اليسوعيون بزعامة ابن أحد الكالفينيين ، هنغاريا إلى حظيرة الكاثوليكية ؟

٥ - شارل الخامس والأراضي المنخفضة

كانت تجارة نافقة في بلاد الفلاندرز إبان نضج شارل أفضل من الانصراف إلى صناعة ضعيفة مشتتة : وساد الكساد في بروجس وغنت ، وعاشت بروكسل باعتبارها قصبة فلمنكية ، وكانت لوفان تشكل اللاهوت وتصنع الجعة وأنتورب تتحول - وسوف تكون عند حلول عام ١٥٥٠ - أغنى مدينة في أوروبا وأكثرها حركة وعملا : وحولت التجارة الدولية والمال ذلك الميناء الهزيل على نهر شلدت العريض الصالح للملاحة بفضل انخفاض المكوس الجمركية على الواردات والصادرات والارتباط السياسي مع إسبانيا وبورصة متخصصة ، وشعارها يقول إنها أنشئت *ad usum mercatorum cuiusque gentis ac linguae* « ليفيد منها التجار القادمون من كل البلاد والمتحدثون بجميع الألسنة (١١) » : وكان القيام بمشروع أى عمل حراً من قيود الطائفة الحرفية والحماية البلدية ، التي أبقت الصناعة للقرى وسطية غير متقدمة لحسن الحظ : وفتح المصرفيون الإيطاليون هناك وكالات وأقام « التجار المغامرون » الإنجليز مستودعا وركز آل فوجر وجوه نشاطهم التجاري ، وبنى الهانز مؤسستهم العظيمة بيت الشرقيين (١٥٦٤) . وشهد الميناء ٥٠٠ سفينة تدخل إليها أو تغادرها كل يوم و ١٠٠٠ تاجر يشتغلون بتبادل السلع : وكانت حوالة مالية مسحوبة على أنتورب وقتذاك أشيع شكل للعملة الدولية : وفي هذه الفترة حلت أنتورب بالتدرج محل لشبونة ، وأصبحت أكبر ميناء أوروبي لتجارة التوابل ، وكان للوكلاء الفلمنكيون يشترون حوليات السفن الداخلة إلى لشبونة قبل أن تفرغ ثم ترسل مباشرة إلى أنتورب لتوزيعها في شمالي أوروبا : وكتب سفير الهندية يقول : « لقد حزننا لرؤية أنتورب لأنها شهدت مدينة تيز البندقية (١٢) » ، وكان يشهد التحول التاريخي للزعامة التجارية من البحر الأبيض المتوسط إلى شمال الأطلنطي : وحفزت هذه التجارة الصناعة الفلمنكية فانتعشت حتى في غنت ،

وأمدت الأراضي المنخفضة شارل الخامس بمبلغ ١٥٠٠٠٠٠ رينيه (٣٧٥٠٠٠٠ دولار ؟) سنويا ، وهو يعادل نصف دخله الكلي (١٣) .
واستجاب يمنح الفلاندرز وهولندا حكما صالحا معتدلا ، اللهم إلا في مجال الحرية الدينية - وهي هبة لم يكدها يدركها أصدقاؤه أو أعداؤه . وكانت سلطته من الناحية الدستورية مقيدة بتعهداته الذى أقسم على تنفيذه بمراعاة موثيق المدن والمقاطعات وقوانينها المحلية ، وبال حقوق الشخصية والعائلية ، التى حافظ عليها سكان المدن بشجاعة ، وبمجالس الدول . راسيه ، ومحكمة للاستئناف أنشئت لتكون جزءا من الإدارة المركزية ، وكان شارل بوجه عام يحكم الأراضي المنخفضة حكما غير مباشر عن طريق نواب يقبلهم المواطنون : أولا عمته ، وحاضنته ومربيته ومرجريت النمساوية ، ثم شقيقته ماري ، ملكة هنغاريا السابقة ، وهما امرأتان تتمتعان بكفاءة وإنسانية ومهارة . ولكن شارل أصبح أشد استبدادا باسراع رقعة الإمبراطورية وأقام حرسا إسبانيا في المدن المتكبرة ، وقع بقسوة أى مخالفة خطيرة لسياسته الدولية ، فعندما رفضت غنت أن تصوت على قرار بالاعتمادات العسكرية التى طلبها ومنحتها له المدن الأخرى ، أخذ شارل الثورة باستعراض قوة لا جدال فيها ، واقتضى إعانة مالية وتعويضا ، وألقى الحريات التقليدية التى كانت تتمتع بها البلدية ، واستُبدِل بالحكومة المختارة محليا موظفون معينون . من قبل الإمبراطور (١٥٤٠) (١٤) ، ولكن لم يكن هذا المتبع فى الأغلب ، وعلى الرغم من هذه القسوة العارضة فقد ظل شارل يحظى بشعبية بين رعاياه فى الأراضي المنخفضة ونال للثقة لما حققه من استقرار سياسى ونظام اجتماعى ، وطدا دعائم الرخاء الاقتصادى . وعندما أعلن تنازله عن العرش حزن كل المواطنين تقريبا (١٥) .

وسلم شارل بالنظرية المتداولة القائلة بأن السلام القومى والقوى يتطلبان وحدة المعتقد الدينى ، وخشى أن تؤدى البروتستانتية فى الأراضي المنخفضة

إلى تعريض جناحه للخطر في نزاعه مع فرنسا وألمانيا اللوثرية^{١١١} ، فأهد الكنيسة تأييداً كاملاً في قمع الهرطقة في الفلاندرز وهولندا ، وكانت حركة الإصلاح الديني هناك معتدلة قبل لوثر ، ودخلت بعد عام ١٥١٧ ، مثل ما دخلت اللوثرية ومذهب المنكرين للتعميد من ألمانيا ، والزوينجيلية والكالفينية من سويسرة والألزاس وفرنسا : وسرعان ما ترجمت رسائل لوثر إلى الهولندية وشرحها وعاظ في أنتورب وغنت ودور درخت واترخت وتسفولي ولاهاي . وتزعم الأخوة الرهبان الدومينيكان حركة معارضة نشيطة دحضوا فيها آراء خصومهم ، وقال أحدهم إنه يود لو استطاع أن ينشب أسنانه في زور لوثر ، وإذنه لن يتردد في أن يذهب لتناول العشاء الرباني والدم يلطخ فيه (١٦) : ورأى الإمبراطور ، وهو لا يزال شاباً ، أن يخمد الهياج بنشر « إعلان ملصوق » بناء على طلب البابا ، يحرم طباعة مصنفات لوثر أو قراءتها : وفي العام نفسه أمر الحاكم العلمانية بتنفيذ منشور ورمس في سائر أرجاء الأراضي المنخفضة ضد كل من يعرض آراء لوثر . وفي اليوم الأول من يوليو عام ١٥٢٣ أرسل هنري فوس وجوهان إيك ، وهما راهبان أوغسطينيان إلى المحرقة في بروكسل ، فكانا أول شهيدين من البروتستانت في الأراضي المنخفضة : وسجن هنري الزتفيني ، وهو صديق وتلميذ للوثر ، ورئيس الدير الأوغسطيني في أنتورب ، وفر ، وأقبض عليه في هولستايين وأحرق هناك (١٥٢٤) وكان تنفيذ هذه الأحكام بالإعدام بمثابة إعلان لآراء المصلحين الدينيين ،

وعلى الرغم من الرقابة فإن ترجمة لوثر للعهد الجديد انتشرت على نطاق واسع ، وتداولها الناس في هولندا بحماسة أكثر من الفلاندرز الغنية : وكانت هناك أمنية لإعادة المسيحية إلى بساطتها الأولى ، فنشأ عنها أمل ، بعد مرور ألف عام ، في عودة المسيح مبكراً ، وإنشاء أورشليم جديده لا تكون فيها حكومة ، ولا زواج ولا ملكية ، وامتزجت بهذه الأفكار نظريات

سيوعية عن المساواة وتبادل العون بل «رواحب الحر» (١٧) ، وتكونت جماعات تنكر التعميد في أنتورب وماسترخت وأمستردام ، وجاء ملشيور هوفان من إمدن إلى أمستردام عام (١٥٣١) وأعاد جون الليدنى عام ١٥٣٤ الزيارة يحمل معه عقيدة المنكرين للتعميد من هارلم إلى منستر ، وقدر أن ثلثى السكان في بعض المدن الهولندية كانوا من المنكرين للتعميد ، بل إن العمدة في ديفنتر تحول لنصرة القضية ، وشحذت المجاعة الحركة ، فأصبحت ثورة اجتماعية * وكتب صديق لإرازموس عام ١٥٣٤ يقول « إن اشتعال حماسة المنكرين للتعميد في هذه المقاطعات يجعلنا نشعر بقلق بالغ لأنه يتصاعد مثل ألسنة اللهب ولا تكاد توجد بقعة أو مدينة لا تتأجج فيها سراً شعلة التمرد (١٨) » ، وحذرت ماري المنغارية الإمبراطور ، وكانت وقتذاك نائبة له ، من أن الثوار قد وضعوا خطة لانتهاج كل ضروب الملكية من النبلاء ورجال الاكلروس والأرستقراطية التجارية ، وتوزيع الغنائم على كل رجل حسب حاجته (١٩) ، وفي عام ١٥٣٥ أرسل جون الليدنى مبعوثين لتدبير ثورة في نفس الوقت يقوم بها المنكرون للتعميد في عدة عمالات هولندية ، وبذل الثوار جهود الأبطال ، ففسد استولت جماعة على دير في فريزلاند الغربية ، وحصلته ، وحاصروهم الحاكم بالمدفعية الثقيلة ، ومات ٨٠٠ وهم يدافعون دفاعاً لا أمل فيه ، (١٥٣٥) وفي ١١ مايو اقتحم بعض المنكرين للتعميد المسلحين قاعة المدينة في أمستردام واستولوا عليها ، فطردهم سكان المدينة ، ونكلوا بالزعماء ، وانتقموا منهم انتقاماً مُفزعاً من رجال مُفترزين ، فاستلقت الألسنة ، ومزقت القلوب من أجساد الأحياء ، وألقي بها في وجوه المختضرين أو الموتى (٢٠) .

وظن شارل أن ثورة شيوعية تتحدى البناء الاجتماعى بأكمله ، فاستقدم محكمة التفتيش إلى الأراضي المنخفضة ، ونحوول موظفيها سلطة سحق الحركة وكل المرطقات الأخرى ، مهما قضى ذلك على الحريات المحلية . وأخذ

بين عامي ١٥٢١ و ١٥٥٥ يصدر الإعلان الملصق بعد الإعلان ضد الانقسام بين الطبقات الاجتماعية أو الانشقاق الديني . وقد كشف أعنف هذه الإعلانات (٢٥ سبتمبر سنة ١٥٥٠) عن تدهور الإمبراطور ، ووضعت الأسس التي قامت عليها ثورة الأراضي المنخفضة ضد ابنه :

لا يحق لأحد أن يطبع أو يكتب أو يفسخ أو يحنى أو يبيع أو يشتري أو يعطى في الكنائس أو في الشوارع أو غير ذلك من الأماكن أى كتاب أو رسالة من تأليف مارتن لوثر ، أوجون كالفن ، أو غيرهم من الهرطقة ، الذين استهجن أعمالهم الكنيسة المقدسة . . . ولا يحق له أن يحطم أو يؤذى أى صورة أخرى تماثيل العذراء المقدسة ، أو القديسين الذين اعترفت بهم الكنيسة وليس له أن يعقد اجتماعات سرية أو اجتماعات غير قانونية ، أو يحضر أى اجتماع من هذه الاجتماعات ، التي يدعو فيها أنصار الهرطقة المذكورين ويعمدون ويهدرون مؤامرات ضد الكنيسة المقدسة والصالح العام ونحن نمنع جميع الأشخاص العلمانيين من أن يتحدثوا أو يجادلوا في أمر يتعلق بالكتب المقدسة جهراً أو سراً . . . أو أن يقرأوا أو يعلموا أو يفسروا الكتب المقدسة ، ما لم يكونوا قد درسوا اللاهوت في حينه ، أو اعترفت بهم إحدى الجامعات المشهورة ، أو يرحبوا بأى رأى من آراء الهرطقة المذكورين وإلا تعرضوا للعقوبات المنصوص عليها فيما يلي الرجال (تقطع رؤوسهم) بالسيف والنساء يذبحن أحياء إذا لم يصرن هلى أخطائهن ، وإذا أصررن عليها فلأنهن يعدمن حرقاً ، وفي كاتنا الحالتين تصادر أملاكهن كلها لمصلحة التاج .

وتمنع كل الأشخاص أن يُنزلوا عندهم أو يستضيفوا أو يزودوا بالطعام أو الدفء أو الملابس أو يؤيدوا بأية طريقة أخرى أى امرئ يُعتقد أنه هرطيق ، أو يشتبه في أن له سمعة سيئة كهرطيق ، وكل من يتخلف

عن التنديد بأى واحد من هؤلاء الذين نأمر بإدانتهم يكون عرضة للعقوبات المذكورة آنفاً ٢٤٥، وكل من يعرف شخصاً موصوماً بالمهرطقة يجب أن يبلغ عنه ويسلمه ٢٤٦، ويكون للمبلغ ، في حالة الإدانة ، الحق في نصف أملاك المتهم ٢٤٧، ولكى لا يكون لدى القضاء والموظفين أى ذريعة - بحجة أن العقوبات جسيمة جداً وشديدة ، ولم ينص عليها إلا لإثارة الفزع في قلوب المجرمين - ليوقعوا عليهم عقوبة أقل مما يستحقون (نأمر) بأن يعاقب المجرمون حقاً بالعقوبات التى أعلننا عنها سابقاً ، ونحظر على جميع القضاة أن يغيروا أو يخففوا العقوبات بأية طريقة ، ونحظر على أى أحد ، فى أى ظرف أن يطلب منا ، أو من أى أحد له سلطة ، أن يمنح عفواً عن ، أو أن يقدم التماس فى صالح ، هؤلاء الهراطقة أو المنفيين أو الهاربين ، وألا تعرض للحكم عليه إلى الأبد بعدم الأهلية لتولى الوظائف المدنية أو العسكرية ، ولأن يعاقب بعقوبة يقضى بها عليه بطريقة تحكيمية (٢٤٨) .

وعلاوة على هذا كان يطلب من أى شخص يدخل البلاد المنخفضة أن أن يوقع على تعهد بالولاء للعقيدة المحافظة بجنادفيرها (٢٤٩) .

وتحولت الأراضى المنخفضة عن طريق هذه المشورات الياسة ، إلى ساحة قتال بين الشكلين القديم والحديد من المسيحية ، وقدر سفير البندقية فى بلاط شارل أن ٣٠,٠٠٠ شخص ، وهم كل المنكرين للتعميد تقريباً ، هلكوا عام ١٥٤٦ فى هذه المذبحة الإمبراطورية الطويلة (٢٥٠) ، التى قتل فيها الآمنون من المواطنين ، وخفض تقدير آخر أقل إثارة عدد الضحايا إلى ١٠,٠٠٠ شخص (٢٥١) ، وبقدر ما كان الهولنديون المنكرون للتعميد مهتمين ، بقدر ما نجحت محكمة التفتيش الكارولينية ، وظل بقية منهم على قيد الحياة فى هولندا بإبداء عدم المقاومة ، وهرب بعضهم إلى إنجلترا ، حيث أصبحوا من أوصار البروتستانتية الشطيط فى عهد إدوارد السادس

والنزاهة ، وانهارت الحركة الشيوعية في الأراضي المنخفضة بعد أن روعها الاضطهاد وخنقها الرخاء .

ولكن عندما انحصرت موجة المنكرين للتعמיד تدفق نهر من الهوجينوت المطاردين إلى الأراضي المنخفضة من فرنسا ، وجاء معهم بلنجيل كالفن ، وراقت الحماسة الصارمة القائلة بالحكم الديني للهرطقة الجديدة ، لمن ورثوا تقاليد المتصوفة وإخوان الحياة المشتركة ، وكان قبول كالفن للعمل باعتباره كرامة بدلاً من أن يعد لعنة ، وللثورة باعتبارها بركة بدلاً من أن تعد جريمة ، وللنظم الجمهورية باعتبارها أكثر موافقة من الملكية للمطامح السياسية لطبقة رجال الأعمال ، يحتوى على أجزاء تليق ترحيباً متفاوتاً من كثير من العناصر بين السكان . وما إن حل عام ١٥٥٥ حتى كانت هناك جماعات كالفيلية للمصلين في إيبيرس وتورناى وفالنسينس وبروجس وغنت وانتورت ، وكانت الحركة تنتشر في هولندا ويرجع الفضل إلى الكالفينية لا إلى الماثرية ، أو مذهب المنكرين للتعמיד ، في أن ابن شارل سوف يحصر خلال جيل مريض ، في صراع قدر له أن يشطر الأراضي المنخفضة إلى قسمين ، ويحرر هولندا من السيطرة الإسبانية ، ويجعلها موطناً وملجأً من أعظم المواطنين والملاجئ للفكر الحديث .

وفي عام ١٥٥٥ طرح شارل الخامس كل أحلامه ما عدا حلمه بأن يموت في طهارة ، وتخلي عن أمله في قمع البروتستانتية في ألمانيا والأراضي المنخفضة أو مهادنة الكاثوليكية في مجلس ترنت * وتخلي عن طموحه في زعامة البروتستانت والكاثوليك والألمان والفرنسيين ، في زحف رائع يقوم به ضد سليمان والقسطنطينية والتهديد التركي للعالم المسيحي . وقد أدى إفراطه في الطعام والشراب والعلاقات الجلسية وحملاته المنهكة وأعباء منصب واجهه صدمة تغير ثوري إلى تحطيم جسده وتبلد سياسته وتحطيم

إرادته ، وكان يشكو من قروح ، وهوفي الثالثة والثلاثين ، واكمل في الخامسة والثلاثين وأصيب وهوفي الخامسة والأربعين بالنقرس والريو وسوء الهضم والتأتأة ، وكان وقتذاك يقضى نصف وقت بقظنه في ألم ، ووجد أنه من الصعب عليه أن ينام ، وكثيراً ما كانت الصعوبة التي يجدها في التنفس تجعله يجلس منتصباً طوال الليل ، وكانت أصابعه مشوهة بداء المفاصل ، إلى درجة أنه لم يكده يستطيع أن يقبض على القلم ، الذي وقع به على صلح كريبى . وعندما قدم كوليني رسالة من هنرى الثانى ، لم يستطع شارل أن يفتحها إلا بصعوبة وقال متسائلاً : « ما رأيك فيّ يا سيدى أمير البحر ؟ ألسنت فارساً رائعاً يستطيع أن يهاجم ويحطم حربة ، أنا الذى لا أستطيع أن أفتح خطاباً إلا بعد مشقة كبيرة ؟ » (٢٥) ولعل قسوته العارضة وشيئاً من الوحشية التي هاجم بها البروتستانتية في البحر المنخفضة ، ترجع إلى نقاد صبوريه بسبب آلامه . وأمر بقطع أقدام الأسرى من الجنود الألمان المرتزقة ، الذين حاربوا في صفوف فرنسا ، على الرغم من أن ابنه الذى قدر له أن يكون فيليب الثانى الصلب الرأى ، طلب لهم الرحمة (٢٦) ، وقد حزن حزناً مريراً دام طويلاً لوفاة زوجته الحبيبة إيزابلا (١٥٣٩) ، ولكنه سمح في حينه بحضور عذارى لا حول لها ولا طول إلى مخدعه (٢٧) .

ودعا في خريف عام ١٥٥٥ إلى عقد اجتماع لمجلس الطبقات في الأراضى المنخفضة ، يوم ٢٥ أكتوبر ، واستدعى إليه فيليب من إنجلترا ، وفي قاعة دوقات برابانت الواسعة المغطاة بالسجاجيد في بروكسل حيث اعتاد فرسان الجزرة الذهبية أن يعقدوا اجتماعاتهم ، اجتمع النواب والنبل والحكام من سبع عشرة مقاطعة في نطاق حرس من الجنود المدججين بالسلاح . ودخل شارل يستند على كتف وليام أف أورانج ، الذى قدر له أن يكون عدواً لابنه في المستقبل . وتبعه فيليب مع نائبة الإمبراطور مارى الهنغارية ، ثم أمانويل فيليبرت أف سافوى ، ومستشارور الإمبراطور ، وفرسان الجزرة

الذهبية ، وكثير من الأعيان الآخرين الذين أقبلت عليهم الدنيا يوماً قبل أن تنسأهم . وعندما جلس الجميع نهض فيليبرت وشرح في إسهاب ووضوح اغتبط لهما شارل ، الأسباب الصحية والعقلية والسياسية التي حدثت بالإمبراطور إلى إبداء رغبته في أن يتنازل عن حكم الأراضي المنخفضة لابنه ، ثم وقف شارل نفسه وهو يتكئ من جديد على أمير أورانج الوسيم فارغ القامة ، وتحدث ببساطة ، وفي صميم الموضوع ، وخلص كيف ارتقى إلى أن بلغ آفاقاً متسعة من السلطان على التعاقب وتحدث عن ذوبان حياته في الحكم . وتذكر أنه زار ألمانيا تسع مرات وإسبانيا ستاً وفرنسا أربعاً وانجلترا وأفريقية مرتين ، وقام بإحدى عشرة رحلة بالبحر واستأنف كلامه قائلاً :

هذه هي المرة الرابعة التي أفكر فيها في الذهاب لإسبانيا من الآن ... ولم يسبق أن جربت شيئاً سبب لي مثل هذا الألم العظيم الذي أشعر به وأنا أفترق عنكم من اليوم دون أن أترك خلفي ذلك السلام والهدوء اللذين طالما رغبت في تحقيقهما ... ولكنني لم أعد قادراً على مباشرة شئوني دون أن أشعر بتعب شديد يسرى في بدني ، وبالتالي ألحق بالدولة الضرر ... وإن ما يتطلبه تحمل المسؤولية من اهتمام عظيم ، وما تسببه خور بالغ للعزيمة ، وصحتي التي تدهورت من قبل ، كل هذه لم تعد تترك لي القوة اللازمة للحكم .. وينبغي لي في حالتي هذه أن أقدم لله والإنسان حساباً خطيراً إذا لم أطر السلطنة عن كاهلي ... وأن ابني ، الملك فيليب قد وصل إلى سن تكفي لأن يكون قادراً على حكمكم ، وهو ، كما أرجو ، أمير صالح لكل رعاياي المحبوبين (٢٨) .

وعندما تهالك شارل متألماً في مقعده نسي الحاضرون خطاياهم واضطهادهم وهزائمهم ، رثاء لرجل عمل بجاهد مدى أربعين عاماً ، حسب ما أملته عليه آراؤه وسمحت به قدرته ، تحت وطأة أثقل الالتزامات في عصره . وبكى كثير من السامعين . ونصب فيليب رسمياً حاكماً للأراضي المنخفضة ، وحلف

يمية مغالطة (كما سوف يذكرها فيما بعد) أن يراعى كل القوانين والحقوق التقليدية للمقاطعات ؛ وفي أوائل عام ١٥٥٦ سلم له شارل تاج إسبانيا ، بكل منمناكاته في العالم القديم والعالم الجديد، واحتفظ شارل باللقب الإمبراطوري ، وكان يأمل أن ينقله لإبنه قريباً ، ولكن فرديناند احتج ، وفي عام ١٥٥٨ تنازل الإمبراطور عن لقبه لأخيه . وسافر شارل بجرأ في السابع عشر من سبتمبر سنة ١٥٥٦ من فلشنج إلى إسبانيا .

٦ - إسبانيا

١ - ثورة العامة : ١٥٢٠ - ٢٢

كانت نعمة مشكوكاً فيها لإسبانيا أن يصبح الملك شارل الأول (١٥١٦ - ٥٦) الإمبراطور شارل الخامس (١٥١٩ - ٥٨) ، وولد وتربى في الفلاتدور : وتعلم مناهج الحياة الفلمنكية ، واكتسب الأنوار الفلمنكية ، إلى أن تغلبت عليه روح إسبانيا في سنواته الأخيرة . ولم يكن في وسع الملك إلا أن يصبح جزءاً صغيراً من الإمبراطور ، الذي كان مشغولاً تماماً بالإصلاح الديني والبابوية وسليمان وبارباروسا وفرانسيس الأول ، وشكا الإسبان أنه لم يمنحهم إلا القليل من وقته ، وأنه أنفق الكثير من مواردهم البشرية والمادية في الحملات التي كانت في الظاهر لا تهم المصالح الإسبانية . وكيف كان في وسع إمبراطور أن يتعاطف مع نظم جماعية جعلت إسبانيا تتمتع بنصف ديمقراطية ، قبل مجئ فرديناند الكاثوليكي ، وكانت تتوق كثيراً إلى أن تستعيدتها ؟

وقام بأول زيارة لمملكته (١٥١٧) ولم تكسبه حب أحد : وعلى الرغم من مضي عشرين شهراً عليه وهو ملك ، فإنه كان لا يزال لا يعرف الإسبانية وكان عزله الفظلاً كسيميونس صدمة للدمائة الإسبانية . وجاء يحيط به فلمنكيون ، ظنوا إسبانيا بلداً همجياً تنتظر من يخلصها . وعين الملك البالغ من العمر سبعة عشر عاماً هذه الديدان الطبية في أعلى المناصب . ولم تحف المجالس التشريعية الإقليمية المختلفة التي يسيطر عليها صغار النبلاء ، نفورها وهندم رضاها

عن ملك أجنبي ، ورفض المجلس التشريعي في قشتالة أن يعترف له باللقب ، ثم اعترف به على كره منه حاكماً ، تشترك معه في الحكم أمه المعتوهة جوانا ، وجعله يفهم أنه لا بد من أن يتعلم الإسبانية ، ويعيش في إسبانيا ، والأيعين مزيداً من الأجناب في أى منصب ، وقدمت المجالس للتشريعية طلبات مماثلة ، ووسط مظاهر الإذلال التي تعرض لها شارل تلقى أنباء بأنه انتخب إمبراطوراً ، وأن ألمانيا كانت تدعوه للعضور لكي يتوج : وعند ما سأل المجلس التشريعي في بلدة الوليسد (وكانت وقتذاك للعاصمة) أن يحول الرحلة منى بالمثل والخبية ، وساد هرج همدد حياته ، وحصل آخر الأمر على المال من المجلس التشريعي في كورونا وأمرع إلى الفلاندرز ، ولكي يجعل الأمور محفوفة بالمخاطر أضعافاً مضاعفة أرسل نواباً *corregidores* لحماية مصالحه في المدن ، وترك مرييه السابق أدريان كاردينال أترخت نائباً له في إسبانيا ،

وثارت البلديات الأسبانية واحدة وراء الأخرى في « ثورة أعضاء الكومون » ونفوا النواب الـ *corregidores* وقتلوا بعض النواب الذين صوتوا بالموافقة على منح أموال لشارل ، وتحالفوا فيما يعرف باسم *Santa Comunidad* الذي تعهد بالإشراف على الملك ، وانضم النبلاء ورجال الكنيسة وأوساط الناس إلى الحركة ونظموا في أفيللا (أغسطس سنة ١٥٢٠) الـ *Santa Junta* أو الاتحاد المقدس ليكون بمثابة حكومة مركزية . وطالبوا بضرورة اشتراك المجالس التشريعية مع المجالس المائكية في اختيار نائب الملك ، وعدم شن حرب بغير موافقة المجالس التشريعية ، وألا يحكم المدينة النواب بل يحكمها قضاة ، أو عمد يختارهم المواطنون (٢٩) ، ودافع أنطونيو دى أكونيا أسقف سمورة علنا عن قيام جمهورية ، وحول أتباعه من رجال الاكايروس إلى محاربين ثوريين ، وقدم موارد أسقفية للثورة . وعين جوان دى باديللا ، وهو نهبيل من طليطلة ، قائدا لقوات الثوار ، فقادها لتستولى على نورديسيلاس ، وأخذ جوانا لا لوكا رهينة ،

وحشها على أن توقع وثيقة ، غلغ فيها شارل ، وتعين نفسها ملكة ، وكانت عاقلة في جنونها ، فرفضت .

ولم يكن لدى أدريان ما يكفي من الجند لقمع الثورة ، فاستعانت بشارل وطلب منه العودة ، والتي تبعة قيام الثورة صراحة على تحكيم الملك وحكمه للغيابي . ولم يحضر شارل ، ولكنه وجد هو أو مستشاروه سهيلا لإشاعة الانقسام والانتصار ، فقد حذر النبلاء أن الثورة كانت تهيدا لطبقات أصحاب الأملاك وللتاج على السواء ، والحق أن الطبقات العامة ، التي ظلمت منذ عهد بعيد بالأجور الثابتة ، والعمل سخرة ، وتحريم الاتحاد ، كانت قد امتولت من قبل على السلطة في عدة مدن ، وفي بلنسية والمنطقة المجاورة لها قبض الجرمانيا Germania أو إخوة أبناء الطوائف الحرفية على الزمام ، وسيطروا على بلخان للعمال ، وكانت هذه الدكتاتورية البروليتارية نقية على غير العادة ، وفرضت على آلاف المغاربة الذين ظلوا في المقاطعة أن يختاروا بين التعميد والموت ، وقتل آلاف من الذين رفضوا في عناد (٣٠) ، وثار العامة في ماجوركا ، الذين عاملهم سادتهم كالعبيد ، ثورة مسلحة ، وخلعوا الحاكم المعين من قبل الملك ، وذبحوا كل نهيل لم يستطع أن يفلت منهم ، وتطلت كثير من المدن عن روابطها مع الإقطاعيين ومستحققاتها لهم ، وفي مدريد وسجونزا ووادي الحجارة أقصت الحكومة البلدية الجديدة كل النبلاء والأعيان من المناصب ، وقتل الأشرافه هنا وهناك ، وفرض الاتحاد Junta ضرائب على أملاك النبلاء السابق إعفاؤها ، وأصبح للثب عاماً ، وأحرق العامة قصور النبلاء وذبح النبلاء العامة ، وانتشر الصراع بين الطبقات في أرجاء إسبانيا .

وقضت الثورة على نفسها بالتوسع في أهدافها ، توسعاً جاوز حدود طاقاتها ، وانقلب عليها النبلاء ، وحشدوا قواتهم ، وتعاونوا مع قوات الملك ، واستولوا على بلنسية ، وأطاحوا بالحكومة البروليتارية ، بعد أيام سقط فيها

قتلى من الجائنين (١٥٢١) ، وانقسم جيش الثوار ، عندما بلغت الأزمة ذروتها ، إلى فرقتين متنافستين بقيادة باديلادون بدرو جيرون ، وانقسمت الجماعة السياسية إلى أحزاب ، يناصب بعضها بعضاً العداء ، وواصلت كل مقاطعة ثورتها ، دون تأزيم مع باقى المقاطعات .

وانطلق جيرون ، وانضم إلى الملاكين الذين استولوا من جديد على تورديسلاس وجوانا . أما جيش باديلادون الذى تضاعف عدد جنوده فقد هزم هزيمة منكرة فى فيلالار ، وأعدم باديلادون . وعندما عاد شارل إلى إسبانيا (يوليو سنة ١٥٢٢) ومعه ٤٠٠٠ جندى ألماني ، كان النبلاء قد فازوا بالنصر ، وقد أضعف النبلاء والعامه بعضهم بعضاً إلى حد أنه استطاع أن يتغلب على البلديات والطوائف الحرفية ، ويروض المجالس التشريعية ، ويوطد أركان ملكية تكاد تكون مطلقة . وقد قمت الحركة الديمقراطية تماماً بحيث ظل كل العامة الإسبان خائفين خاضعين ، حتى القرن التاسع عشر . ونخفف شارل سلطته بالدمائة ، وأحاط نفسه بالنبلاء ، وتعلم الحديث بلغة إسبانية سليمة ، وسرت إسبانيا عندما علق قائلاً إن الإيطالية هى اللغة اللاتفة لكى تتحدث بها النساء ، والألمانية هى لغة الأعداء ، والفرنسية لغة الأصدقاء ، والإسبانية لغة الرب (٣١) .

٢ - البروتستانت الإسبان

لم تكن هنا إلا قوة واحدة تستطيع أن تتحدى شارل - هى الكنيسة - وكان نصيراً للكاثوليكية ، ولكنه مناهض للبابوية : وسعى ، مثل فرديناند الكاثوليكي ، إلى جعل الكنيسة الإسبانية مستقلة عن البابوات ونجح فى هذا إلى حد أن التعيينات فى مناصب الكنيسة ودخول الكنيسة إبان حكمه كانت فى يديه ، واستخدمت لرفع شأن السياسة الحكومية : ولم تكن هناك حاجة للإصلاح الدينى فى إسبانيا ، كما هو الحال فى فرنسا ؛ لكى تتبع الكنيسة

للدولة . ومع ذلك فإن الحماسة للعقيدة المحافظة الإسبانية ، إبان نصف مدة حكمه ، التي قضاها في مملكته ، استحثته إلى حد أنه في سنواته الأخيرة لم يكن هناك أمر (باستثناء قوة آل هابسبرج) يهيمه أكثر من قمع الهرطقة . وبينما حاول البابوات أن يخففوا من وطأة محكمة التفتيش فإن شارل أيدها حتى وفاته * وكان مقتنعاً بأن الهرطقة في الأراضي المنخفضة كانت تؤدي بها إلى الفوضى والحرب الأهلية ، وصمم على أن يمنع حدوث مثل هذا التطور في أسبانيا

وأخذت محكمة التفتيش الإسبانية سورة غضبها ، ولكنها مدت رقعة اختصاصها القضائي في عهد شارل . فاضطلمت بعبء الرقابة على المصنفات ، وقامت بتفتيش كل مخزن للكتب ، وأمرت بإحراق الكتب الموصومة بالهرطقة (٣٢) . واستقصت حالات الانحراف الجنسي وعاقبت عليها : ووضعت قواعد نقاء الدم Limpieza ، التي أغلقت كل طرق التمييز أمام ذرية المتحولين إلى غير دينهم Conversos وكل من عاقبتهم المحكمة . وكانت تنظر إلى المتصوفة نظرة قاسية ، لأن بعض هؤلاء ادعوا أن صلاتهم المباشرة بالله أعفقتهم من حضور الصلاة في الكنيسة ، وأضنى آخرون على حالات وجدهم الصوفي طعماً جنسياً مشبوهاً ، وأعلن للواعظ العلماني بدرورويز دي الكراز أن الجماع هو اتحاد بالرب حقاً ، وقال الأخ الراهب فرانسيسكو أورتيغ مفسراً أنه عند ما يرقد مع زميلة متصوفة جميلة فإنه لا يرتكب خطيئة من خطايا الجلس ، بل ينعم بمتعة روحية (٣٣) * وعاملت محكمة التفتيش برفق هؤلاء المتنورين Alumbrados واحتفظت بأقصى إجراءاتها ضد البروتستانت في إسبانيا :

وكما حدث في شمالي أوروبا وقعت مناوشة إرازمية قبل معركة البروتستانت ، وهتف بعض رجال الكنيسة المتحررين استحساناً لانتقادات علماء الإنسانيات لأخطاء رجال الإكليروس ، ولكن إكسيمينيس وآخرين

كانوا قد قوموا من قبل المظالم البارزة أكثر من غيرها ، قبل مجي شارل .
ولعل اللوثرية كانت قد تطلت أرض إسبانيا مع الألمان والبلجيكيين المتكلمين
بالفلمنكية في الحاشية الملكية . وأدانت محكمة التفتيش ألمانيا في بلمسية عام
١٥٢٤ ، لأنه جاهر بالتعاطف مع لوثر ، وحكم على فلمنكى بالسجن مدى
الحياة عام ١٥٢٨ ، لتشككه في المطهر وصكوك الغفران ، وأحرق في المحرقة
فرانسييسكو دى سان رومان ، أول من عرف من اللوثرين الإسبان عام
١٥٤٢ ، بينما كان المشاهدون المتحمسون يطعنونه بسيوفهم : واعتمق جوان
ديازاف كوينكا ، الكالفيلية في جينيف ، فاندفع أخوه ألفونسو من إيطاليا
ليحاوله مرة أخرى إلى للعقيدة المحافظة ، وعند ما فشل الفونسو عمل على قتله
(١٥٤٦) (٣٤) وسجن جوان جيل ، أو أجيديو ، وهو كبير قساوسة متعلم في
أشبيلية ، لمدة عام بسبب وعظه ضد عبادة الصور والصلاة للقديسين وفاعلية
الأعمال الصالحات في الفوز بالخلاص . ونهشت عظامه بعد وفاته وأحرق ،
وواصل رفيقه كبير القساوسة كونستانتينو بونس ديلافوييتى ، دعابته ،
ومات في سجون محكمة التفتيش . وأحرق أربعة عشر من زملاء كونستانتينو ،
ومنهم أربعة رهبان وثلاثة نساء ، وحكم على عدد كبير بعقوبات مختلفة ،
ودك البيت الذى اجتمعوا فيه حتى سوى بالأرض .

وتطورت جماعة نصف بروتستانتية أخرى في بلد الوليد ، وهنا تورط
نبلاء من ذوى النفوذ ورجال دين من أصحاب الرتب الرفيعة : ووثنى بهم
لمحكمة التفتيش ، وقبض عليهم جميعاً تقريباً وحكم عليهم بالإدانة ، وحاول
البعض مغادرة إسبانيا فقبض عليهم وأعيدوا . وكان شارل الخامس وقتذاك
يستحم في يوستى ، فأوصى بعدم إظهار أية رحمة في معاملتهم ، وقطع رأس
النائبين وإحراق من يرفضون التوبة . وفي يوم أحد الثالث الموافق ٢١ مايو
سنة ١٥٥٩ أعدم أربعة عشر من المحكوم عليهم أمام جمع متهايل (٣٥) ، وتراجع
الجميع عما قالوا إلا واحداً ، وعوملوا برفق ، وقطعت رؤوسهم ، أما أنطوليو

دى هرزويلو الذى رفض التوبة فقد أحرق حياً . وسمح لزوجته ليونور دى ميزنيروس البالغة من العمر ثلاثة وعشرين عاماً بالسجن مدى الحياة : وبعد أن أمضت عشر سنوات فى السجن ، عدلت عن انكارها لما قالت ، وجاهرت بهرطقتها ، وطابت أن تحرق حية مثل زوجها فأجيببت إلى ملتسمها (٣٦) . وعرض ستة وعشرون آخرون من المتهمين للحرق أحياء فى اليوم الثامن من أكتوبر سنة ١٥٥٩ ، أمام حشد مكون من ٢٠٠٠٠ شخص ، يرأسه فيليب الذى : وحرقت ضحيتان وهما حينان وخنق عشرة :

وكان بارتلوى دى كارانزا ، رئيس أساقفة طليطلة ورئيس أساقفة إسبانيا ، أشهر فريسة وقعت فى براثن محكمة التفتيش فى هذه الفترة . وكان باعتباره من الدومينيكان قد قام بدشاط كبير فى مطاردة الهرطقة والإيقاع بهم ، وعينه شارل مبعوثاً له فى مجلس ترنت ، وأرسله إلى إنجلترا لحضور زواج فيليب والملكة ماري . وعندما انتخب رئيساً للأساقفة (١٥٥٧) كان الاختيار بالإجماع ما عدا صوته . ولكن بعض « البروتستانت » الذين قبض عليهم فى بلد الوليد شهدوا بأن كارانزا كان قد تعاطف سرأ مع آرائهم ، ووجد أنه كان قد راسل المصلح الدينى الإيبانى الإيطالى جوان دى فالديس ، واتهمه عالم للاهوت ذو النفوذ ملشيور كانو بأنه كان يعضد العقيدة اللوثرية فى التزكية بالإيمان : ولم يقبض عليه إلا بعد سنتين من ارتفاع شأنه ووصوله إلى أعلى منصب كنسى فى إسبانيا ، ونستطيع أن نحكم من هذا على مدى قوة محكمة التفتيش . وظل سبعة عشر عاماً معتقلاً فى سجن أو غيره ، بينما كانت تصرفاته فى حياته ورسائله تتعرض للفحص والاستقصاء فى طليطلة وروما . وأعلن جريجورى الثالث عشر أنه « مشبه فيه بشدة » بالهرطقة وأمره بأن ينكر ستة عشر ادعاء ، وأوقفه لمد خمس سنوات عن مباشرة وظيفته : وتقبل كارانزا الحكم فى ذلة ، وحاول أن

يوذى الكفارات التي فرضت عليه ، ولكنه مات في خلال خمسة أسابيع بعد أن أنهكه السجن والإذلال (١٥٧٦) •

وبموته زال خطر البروتستانتية عن إسبانيا ، وحدث أن أعدم حوالى ٢٠٠ شخص بين عامى ١٥٥١ و ١٦٠٠ ، لما نسب إليهم من هرطقات بروتستانتية - أى بواقع أربعة أشخاص كل عام . وقد تجمد طبع الناس ، الذى كان قوامه من كراهية المغاربة واليهود ، التي تأصلت جذورها قروناً طويلة ، في عقيدة محافظة لا تتزعزع ، وامتزجت الكاثوليكية وحب الوطن ، ووجدت محكمة التفتيش أن من اليسير أن تسحق ، في خلال جبل أو جبلين ، المغامرة الإسبانية العابرة التي اتسمت بفكر مستقل .

٣ - الإمبراطور يموت : ١٥٥٦ - ٥٨

قام شارل الخامس فى الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٥٦ بالدخول إلى إسبانيا لآخر مرة . واستغنى فى برجوس عن خدمات معظم الذين كانوا قد عملوا معه ومنحهم مكافآت ، وودع شقيقته ، مارى الهنغارية واليونورا ، أرملة فرانسيس الأول ، وأبدىا رغبتهما فى مشاركته اعتزاله فى الدير ، ولكن القواعد منعهما ، فاتخذتا لهما مسكنا فى موضع لا يبعد كثيراً عن هذا الشقيق الذى يبدو أنه لم يكن هناك من يحبه وقتذاك سواهما . وبعد أن أقيمت له عدة احتفالات فى الطريق ، وصل قرية جوانديلا فى وادى هلازنسيا ، على مسيرة نحو ١٢٠ ميلا غربى مدريد . ولبث هناك عدة شهور ، زيثا أكمل العمال الحجرات التي أمر بتجهيزها وتأثيرها فى دير يوستى (سانت جوستوس) على مسيرة ستة أميال . وعندما قام بالمرحلة الأخيرة من رحلته (٣ فبراير سنة ١٥٥٧) ، لم ينتقل إلى خلوة فى دير بل إلى قصر رينى فسيح ، اتسع لإقامة المقربين من تابعيه الخمسين . وابتهج الرهبان بوجود ضيف عظيم مثله ، بيد أنهم اكتأبوا عندما

وجدوا أنه ليس لديه النية في أن يشاركهم حميتهم ونظامهم ، فقد كان يأكل ويشرب كميات كبيرة ، كما كان يفعل من قبل - أى بإفراط ٥ وكانت عجات السردين وسجق الاسترمدورا وفضائر ثعبان السمك ، ولحم الحجل المملح والديوك الخصية السمينية^٦ وأنهار من النهيد والجمعة ، تختفى في كرشه الإمبراطورى ، واضطر أطباؤه إلى أن يصفوا له كميات كبيرة من السنامكى والراوند للتخلص من الزيادة في وزنه :

وبدلاً من أن يتلو شارل تساييحه وأوراده ومزاميره كان يقرأ رسائل من ابنته أو يعلى رسائل له ، وكان يعرض عليه النصيحة في كل وجه من وجوه الحرب واللاهوت والحكم ٥ وأصبح في العام الأخير من عمره متعصباً متطرفاً قاسياً ، وأوصى بتوقيع عقوبات وحشية « لاستئصال جذور ، المرطقة ، وأسف لأنه كان قد سمح للوثر بالهرب منه في ورمس ، وأمر يجلد أى امرأة مائة جلدة إذا اقتربت من أسوار الدير قاب قوسين أو أدنى (٣٧) ٥ وراجع وصيته لكى ينص فيها على إقامة ٣٠٠٠٠ قداس من أجل طمأنينة روحه : ويجب ألا نحكم عليه من أعماله في أيام الشيخوخة هذه ، ولعل لوثة خبل قد انتقلت إليه بالوراثة من أمه .

وفي أغسطس عام ١٥٥٨ انقلب النقرس الذى يشكو منه إلى حمى ملتبهة . وعاودنه هذه بصورة متقطعة ، وأخذت تشتد يوماً بعد يوم ، وظل شهراً يتعذب بكل آلام النزاع الأخير قبل أن تزهر روحه (٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٨) : وفي عام ١٥٧٤ أمر فيليب بنقل الجثثة إلى الاسكوربال حيث يرقد تحت نصب تذكارى فخيم .

وكان شارل الخامس أكبر فاشل في عصره ، بل إن فضائله كانت أحياناً بؤساً وشقاء للإنسانية . ومنح إيطاليا السلام ، ولكن لم يتم هذا إلا بعد مرور عقد من الزمان ، تعرضت فيه للتخريب ، وبإخضاعها

هي والبابوية لإسبانيا ، وجف عود للنهضة الإيطالية تحت رئاسته للكثيية ، وهزم فرانسيس وأسره ، ولكن ضاعت منه في مدريد فرصة ملكية ليبرم معه معاهدة كانت حرية بأن تنقذ ماء كل الوجوه ومائة ألف روج ، وعاون في إعادة سليمان إلى بلاده في فيينا ، وصد برباروسا في البحر الأبيض المتوسط ، وقوى مركز آل هابسبورج ، ولكنه أضعف الإمبراطورية ، وفقد اللورين وسلم بورغنديا ، وأحبط أمراء ألمانيا محاولة لتركيز السلطة هناك ، وكانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ عهد نسيجاً واهياً ، تنتظر نابليون ليحكم بإعدامها . وفشلت جهوده لسحق البروتستانتية في ألمانيا ، وترك الأسلوب للذي انتهجه في قمعها في الأراضي المنخفضة تراثاً محزناً لابنه ، وكان قد وجد المدن الألمانية مزدهرة وحررة ، وتركها تزرح ألماً تحت وطأة إقطاع رجعي . وعندما جاء إلى ألمانيا كانت تنبض بالحياة ، فيها أفكار ونشاط تبرز بهما أية أمة أخرى في أوروبا وعندما تنازل عن هرشه كانت ضعيفة واهنة روحياً وفكرياً ، وظلت جذباء مدى قرنين . وكانت السياسة التي انتهجها في ألمانيا وإيطاليا سبباً واهياً لما لحقهما من ضعف ، أما في إسبانيا فكان عمله هو الذي سحق حرية البلديات وقوتها ، وكان حرياً بأن يبقى إنجلترا في حظيرة الكنيسة بإقناع كاترين أن تسلم بحاجة هنرى إلى وريث ، وبدلاً من أن يفعل فلك أجبر كليمنت على اتخاذ موقف فيه تذبذب ، يودى إلى الخراب .

ومع ذلك فإن استبصارنا المتأخر هو الذى يرى أخطاه وجسامتها ، وفى وسع حسنا التاريخي أن يصفح عنها باعتبارها معاصرة بجدورها فى قيود بيئته العقلية وفى أوام العصر العاتية . وكان أقدر سياسى بين معاصريه ، ولكنه لم يكن كذلك إلا بمعنى أنه عالج بشجاعة أعمق موضوعات النزاع فى أوسع مدى وصلت إليه . وكان رجلاً عظيماً حطت من شأنه مشكلات عصره وحطمته .

ونفذت إلى حكمه الطويل حركتان أساسيتان : وكانت أعظمهما نمو القومية في عهد ملكيات تنزع إلى المركزية ، وفي هذه لم يكن له فيها نصيب . وأعظمها من الناحية الدرامية ثورة دينية ، حفزت إليها الانقسامات والمصالح القومية والإقليمية : وقبعت شمالى ألمانيا واسكنديفاوة اللوثرية ، أما جنوب ألمانيا وسويسرة والأراضى المنخفضة فقد انقسمت إلى طائفتين بروتستانتية وكاثوليكية ، وأصحت إسكوتلندة كالفيلمية مشيخية ، وإنجلترا كاثوليكية إنجيليكانية أو بيوريتانية كالفيلمية ، وظلت إيرلندة وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال موالية لباوية بعيدة أو مهدبة . ومع ذلك نشأ تكامل وان ، وسط ذلك الانقسام المزدوج : فقد وجدت الولايات المستقلة المعترزة بنفسها أنها في حاجة إلى بعضها البعض ، لضمان استقلالها ، كما لم يحدث من قبل ، وأنها مرتبطة بصورة متزايدة في نسيج اقتصادى ، وأنها تؤلف مسرحاً رحيباً لمناهج سياسية متشابهة العلاقات ، وحروب وقانون بأدب وفن . كانت أوروبا التى عرفها شبابنا تتخذ شكلها .

المراجع NOTES

مراجع فصل ٢١ من الجزء الرابع والعشرين

- | | |
|--|---|
| <p style="text-align: center;">CHAPTER XXI</p> <ol style="list-style-type: none"> 1. Cath. En. III, 196. 2. Beza in Schaff, <i>Swiss Ref</i> 302. 4. Calvin <i>Institutes</i>, Preface, 20.2, 39.40. 5. <i>Institutes</i>, I, viii, 1. 6. <i>Ibid.</i>, II, v., 19. 7. Ephesians, i, 3-7. 8. <i>Institutes</i>, III, xxi-xxii. 9. Romans, ix, 15. 10. <i>Institutes</i>, II, xxi, 7. 11. Consensus Genevensis in Schaff. <i>Swiss Ref.</i>, 554. 12. <i>Institutes</i>, III, xxi, 1. 13. <i>Ibid.</i> 14. III, xxiii, 7. 15. IV, i, 10. 16. IV, i, 4. 17. Allen, <i>Political Thought</i>, 61; Hearnshaw, <i>Thinkers of the Renaissance and the Reformation</i>, 211. 18. <i>Institutes</i>, IV, xlx, 3. 19. III, xxi, 1. 20. Schaff, 558. 21. <i>Institutes</i>, III, ix, 4. 22. <i>Ibid.</i> 23. III, ix, 6. 24. For : La Tour, IV, 32, and <i>Camb. Mod. Hy</i>, II, 258 ; against : Cath. En., III, 196a. 25. <i>Camb. Mod. Hy</i>, II, 360. 26. Robinson, <i>Readings</i>, 299. 27. Schaff, 361. | <ol style="list-style-type: none"> 28. <i>Ibid.</i>, 414. 29. 412. 30. 426. 31. 437. 32. Robinson, <i>Readings</i>, 300. 33. La Tour, IV, 178. 34. Villari, <i>Savonarola</i>, 491. 35. Schaff, 492. 36. Beard, <i>The Reformation</i>, 250. 37. <i>Ibid.</i>, Schaff, 491. 38. <i>Ibid.</i>, 492. 39. O'Brien, <i>Economic Effects</i>, 101. 40. As by Weber, Max, <i>The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism</i>, <i>passim</i>; Barnes <i>Economic Hy of the Western world</i>, 201.2 ; and O'Brien, 12^A. 41. <i>Institutes</i>, III, vii, 5. 42. Cf. O'Brien, 100. 43. <i>Ibid.</i>, 20. 44. Tawney, 119. 45. Barnes, <i>Economic History</i>, 201. 46. Schaff, 644. 47. Beard, <i>The Reformation</i>, 252 ; Mulr, <i>John Knox</i>, 108. 48. Smith, <i>Reformation</i>, 174. 49. Schaff 519. 50. <i>Ibid.</i>, 839. 51. La Tour, IV, 206. 52. Schaff, 739. 53. La Tour, IV, 200 ; Schaff, 594. |
|--|---|

54. Schaff, 618.
55. Ibid., 502.
56. Robertson, J.M. *Freethought*, I, 443-4.
57. Servetus, *De Trinitatis erroribus*, i, 94b. in Bainton, *Hunted, Heretic*, 48.
58. Servetus, *ibid.*, i, 34; Newman, L, I., *Jewish Influence on Christian Reform Movements*, 584.
59. Bainton, *Hunted Heretic*, 144.
60. Ibid.
61. *ibid.*, 147.
62. Schaff, 733.
63. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 64.
64. Schaff, 770.
65. *Ibid.*, 764, 773; Bainton, 191.
66. Bainton, 188.
67. Schaff, 777.
68. *Ibid.*, 778.
69. Bainton, 185.
70. *Ibid.*, 209-11; Schaff, 710, 781-4.
71. Schaff, 784.
72. Walker, *John Calvin*, 425.
73. Schaff, 707-8.
74. *Ibid.*
75. 709.
76. In Allen, *Political Thought*,
77. Castellio in Allen, 90-4; Haydn, *Counter-Renaissance*, 104.
78. In Allen, 98.
79. *Time* magazine, Feb, 22, 1954.
80. Schaff 652n.
1. In Lacroix, *Prostitution*; II 1142.
2. *Ibid.*, 1141.
3. 1130.
4. Taylor, R., *Leonardo*, 444.
5. Sichel, *Catherine de' Medici and the French Reformation*, 38.
6. Erasmus, *Colloquies*, II, 54.
7. Erasmus, *Epistles*, II, 468.
8. Michelet, III, 175.
9. E.g., Aretino, *La cortigiana*, in *Dialogues*, 228.
10. Batiffol, *Century of the Renaissance*, 44.
11. Lacroix, *Prostitution*, II, 1131'
12. Cellini, *Autobiography*, II, 10.
13. Guizot, *History of France*, III, 81.
14. *Ibid.*, Michelet, III, 218.
15. Michelet, III, 148.
16. Sichel, *Women and Men of the French Renaissance*, 87.
17. *Ibid.*
18. Michelet, III, 135.
19. Sichel, *Women*, 193.
20. Faguet, *Literary History of France*, 281.
21. Margaret, Queen of Navarre, *Heptameron*, xli,
22. In Maulde, 354.
23. Margaret, *Heptameron*, 36.
24. In Maulde, 53.
25. *Ibid.*, 297
26. In Sichel, *Women*, 15
27. *Ibid.*, 371.
28. 180.
29. Boyd, *French Renaissance*, 25.
30. Sichel, *Catherine de' Medici and the French Reformation*, 138.
31. Sichel, *Women*, 104.
32. Michelet, III, 136.
33. *Darb. Mod. Hy*, I, 659.
34. *Ibid.*

35. Lacroix, *Prostitution*, II, 1247.
 36. Margaret, *Heptameron*, Tale 22.
 37. *Ibid.*, xlii.
 38. In Guizot, III, 187.
 39. *Ibid.*, 196.
 40. 197.
 41. Røeder, *Catherine de' Medici*, 54.
 42. La Tour, II, 237 f.
 43. Michelet, III, 216.
 44. Guizot, III, 216.
 45. Schaff, *Swiss Reformation*, 320.
 46. *Ibid.*, 320 ; La Tour, II, 556-7.
 47. Sichel, *Women*, 18.
 48. Guizot, III, 220.
 49. La Tour, II, 612.
 50. Micheler, III, 319 ; Guizot, III, 229 ; *Camb Mod. Hy*, II, 289.
 51. Guizot, III, 15.
 52. *Ibid.*, 73.
 53. *Ibid.*, 91 ; Michelet III, 239.
 54. Guizot, III, 95.
 55. *Ibid.*, 91.
 56. Michelet, III, 244.
 57. Robertson, W., *Charles* 538.
 58. Guizot, III, 105-6.
 59. *Ibid.*, 116.
 60. *Camb. Mod. Hy*, III, 105.
 61. Guizot, III, 129 ; Robertson, *Charles V*, II, 57-60.
 62. Michelet, III, 316 ; *Camb. Mod. Hy*, II, 77.
 63. Janssen, VI, 358.
 64. Michelet, III, 293-4.
 65. Hackett, *Francis I*, 428.
 66. Brantôme in Guizot, III, 192.
 67. Sichel, *Catherine*, 51.
 68. D'Orliac, *The Moon Mistress*, 186.
 69. Janssen, VI, 359.
 70. Michelet, III, 366.
 71. Guizot, III, 281.
 72. Pastor, XII, 486.
 73. Batiffol, 175.
 74. Robertson, *Charles V*, II, 351.
 75. Guizot, III, 261.
- CHAPTER XXIII
1. Pollard, *Henry VIII*, 39.
 2. Froude, *Erasmus*, 142.
 3. Chambers, *Thomas More*, 99.
 4. Erasmus, *Epistles* I, 457.
 5. Froude, *Henry VIII*, I, 30 ; Ep. 447 in Froude, *Erasmus*, 107.
 6. Seebohm, *Oxford Reformers* 261-6.
 7. Erasmus, *Epistles*, II, 546.
 8. Guicciardini, VIII, 126.
 9. Pollard, 67.
 10. Creighton, *Cardinal Wolsey*,
 11. Gasquet, *Henry VIII and the English Monasteries*, I, 69.
 12. Robinson, J. H., *Readings*, 303.
 13. Burnet, *History of the Reformation*, I, 6.
 14. Chambers, *More*, 158; Hugghes, *Reformation*, I, 80.
 15. *Ibid.*
 16. Creighton, *Wolsey*, 59.
 17. Burnet, I, 15.
 18. Lingard, IV, 192.
 19. Robinson, *Readings*, 303.
 20. Pollard, 110.
 21. Robinson, l. c.
 22. Lingard, IV, 193 ; Chamb-

- ers, *More*, 173-4 ; Hughes, 1, 109.
23. Froude, *Henry VIII*, 1, 60 ; but cf. Hughes, 1, 58 f.
24. Hughes, 1, 103n.
25. Belloc, *How the Reformation Happened*, 117.
26. Seebohm, 203-46.
27. Coulton, *Panorama*, 718.
28. Froude, *Henry VIII*, 11, 114-5.
29. Hughes, 1, 49-50.
30. Froude, 1, 350.
31. Hughes, 1, 50-66.
32. Oasquet, *Monasteries*, 11, 237 ; Trevelyan, *English Social Hy*, 73.
33. *Ibid.*
34. Hughes, 1, 57-8.
35. Coulton, *Panorama*, 554.
36. Hughes, 1, 150.
37. *Ibid.*, 127-9.
38. 202.
39. Smith, *Luther*, 193.
40. Coulton, *Life in the Middle Ages*, 11, 143 ; Gasquet, *Eve*, 213.
41. *Camb. Mod. Hy*, 1, 640.
42. Beard, *Reformation*, 305.
43. *Ibid.*
44. Hughes, 1, 146.
45. Froude, 1, 319, 336.
46. Burnet, 1, 16.
47. Gasquet, *Monasteries*, 1, 85-8.
48. Froude, 1, 81.
49. Burnet, 1, 26.
50. Hughes, 1, 67-70.
51. Pollard, 174.
52. Burnet, 1, 27.
53. Pollard, 76, 176.
54. Froude, 1, 74n.
55. Pollard, 183.
56. *Ibid.*, 135.
57. Froude, *Divorce of Catherine of Aragon*, 47.
58. Pastor, X, 241.
59. Froude, *Divorce*, 47.
60. *Camb. Mod. Hy*, 11, 431.
61. Pastor, X, 244.
62. Pollard, 207.
63. *Ibid.*, 208.
64. Pastor. X, 257-8 ; Hughes ; 1, 175-9 ; Acton, 139.
65. Hughes, 1, 176.
66. Pastor, X, 267.
67. Pollard, 225.
68. Burnet, 1, 55.
69. Froude, *Reign, of Elizabeth III*, 259.
70. Froude, *Divorce*, 190.
71. Hughes, 1, 181.
72. Oavendish, *Life of Wotsey*, in Froude, *Henry VIII*, 111, 115.
73. Creighton, *Wolsey*, 186.
74. Pollard, 223-4.
75. Creighton, 185.
76. Burnet, 1, 61.
77. Creighton, 194.
78. Froude, *Divorce*, 138.
79. Creighton, 205.

CHAPTER XXIV

1. Froude, *Divorce*, 166, 81.
2. Pollard, 250-1.
3. Trevelyan, *Social Hy*, 102.
4. Pollard, 237.
5. Froude, *Henry VIII*, 1, 128-35.
6. *Ibid.*, 139.
7. 162.
8. Sichel, *Women*, 176.
9. Lingard, IV, 273.

10. Prescott, H. F., *Mary Tudor*, 38.
 11. Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters*, 77.
 12. Froude, *Henry VIII*, I, 218.
 13. *Ibid.*, 265.
 14. Pollard, 187.
 15. *Ibid.*, 300.
 16. Gasquet, *Monasteries*, I, 122, 129, 134 f.
 17. Pollard, 304-5.
 18. Chambers, *More*, 323. 326; Lingard. IV, 19.
 19. Froude, *Henry VIII*, II, 82.
 20. Burnet, I, 123 5.
 21. Erasmus, *Epistles*, II, 186.
 22. Pollard, 305; Froude, *Council of Trent*, 116-7.
 23. Chambers, *More*, 334.
 24. Prescott. *Mary Tudor*, 60.
 25. Roper, *More*, 46.
 26. Hughes, I, 345.
 27. Cf., e.g., Chambers, *More*,
 28. Erasmus, *Epistles*, II, 427.
 29. Jusscrand, *Wayfaring Life*,
 30. Froude, *Erasmus*, 103-7 ; Chamber, *More*, 75.
 31. Chapiro, 36.
 32. Erasmus, *Epistles*, II, 423.
 33. Chambers,
4. *More, Utopia*, 168.
 35. *Ibid.*, 213.
 36. 247.
 37. *Ibid.*
 38. 303.
 39. 322-5.
 40. 323.
 41. 320.
 42. 335.
 43. 290-1.
 44. 215, 347, 209.
 45. 178-9.
 46. 343-4.
 47. Froude, *Henry VIII*, I, 347.
 48. Chambers, *More*, 276.
 49. *Ibid.*, 281.
 50. Cf. Coulton, *Panorama* 709.
 51. More, *English Works*, 586, in Taylor, *Thought and Expression*, II, 68.
 52. Roper, 89.
 53. *Ibid.*, 109.
 54. Hearnshaw, *Thinkers of the Renaissance*, 146.
 55. Roper, 126.
 56. Chambers, *More*, 349.
 57. Froude, *Henry VIII*, II, 95.
 58. Erasmus, Letters of Aug. 24 and 31, 1535.
 59. Roper, 127.
 60. Chambers, 277.
 61. Burnet, I, 143.
 62. Presoti, *Mary Tudor*, 50 ; Ponard 304.
 63. Froude, *Henry VIII*, II, 142.
 94. Burnet, I, 143.
 65. Prescott, *Mary*, 70.
 66. Pollard, 343.
 67. *Ibid.*
 68. Froude, *Henry VIII*, II, 159.
 69. Lingard, V, 37,
 70. Froude, II, 171.
 71. Pollard, 346.
 72. *Ibid.*, 305.
 73. Froude, *Henry VIII*, III, 26n,
 74. *Ibid.*, II, 204.
- CHAPTER XXV
1. C. R. Beazley in Traill, *Social England*, III, 49.
 2. Gasquet, *Eve*, 397-0.
 3. Montesquieu, *Spirit of Laws*, xii, 10.
 4. Froude, *Henry VIII*, II, 116.

5. *Ibid.*, 240.
6. Pollard, 337; Gasquet, *Monasteries*, I, 254-336.
7. Pollard, 339.
8. Froude, II, 119-26.
9. Ashley, *Economic Hy*, II, 213.
10. Gasquet, I, 341-3.
11. *Ibid.*, 291-5.
12. Froude, II, 240.
13. Gasquet, II, 82.
14. *Ibid.*, II, 82.
15. Froude, II, 56.
16. Gasquet, I, 363; II, 33, 323.
17. *Ibid.*, II, 336-7, 438.
18. Hughes, I, 328.
19. Gasquet, I, 447-8.
20. Traill, III, 129.
21. Salzman, *English Industries*, 232; *Camb. Mod. Hy*, II, 467.
22. Lecky, *Rationalism*, II, 126; Ashley, II, 316; Trevelyan, *Social Hy*, 112.
23. Traill, III, 128.
24. D'Alton, E. A., *Hy of Ireland*, II, 382-7; Joyce, *Short Hy of Ireland*, 317.
25. D'Alton, 530 f.; Froude, *Henry VIII*, III, 166.
26. Pollard, 438.
27. Froude, III, 280.
28. Pocock in *English Historical Review*, Vol. X, p. 421.
29. Froude, III, 280.
30. *Id.*, I, 353.
31. *Id.*, 23-4; Pollard, 399-1.
32. Lingard, V, 73-4; Pollard, 400; Froude, III, 104.
33. Froude, *Edward VI*, 68.
34. Ashley, II, 351.
35. Froude, *Edward VI*, 69.
36. Froude, *Henry VIII*, I, 52-5; II, 137; Traill, III, 250; Marx, *Capital*, I, 806.
37. Trevelyan, *Social Hy*, 137.
38. Froude, *Henry VIII*, I, 16n.
39. Rogers, J., *Six Centuries of Work and Wages*, 78.
40. Hughes, I, 29.
41. Traill, III, 127.
42. Hughes, I, 159.
43. Lingard, V, 61.
44. Pollard, 403.
45. Lingard, V, 76.
46. Lees-Milne, *Tudor Renaissance*, 21.
47. Froude, *Henry VIII*, III, 281-2.
48. *Ibid.*, 402.
49. *Camb. Mod. Hy*, II, 459; Traill, III, 65.
50. In Coulton, *Medieval Village*, who disagrees. Cf. Froude, *Henry VIII*, I, 43.
51. Rogers, 79 f.

CHAPTER XXVI

1. Stow's *Chronicle*, in Froude, *Edward VI*, 21.
2. *Ibid.*, 34.
3. Hughes, II, 162; *Camb. Mod. Hy*, II, 400-1.
4. Rogers, 89.
5. Froude, *Edward*, 165.
6. *ibid.*, 183; Prescott, *Mary Tudor*, 25.
7. Hughes, II, 192-3.
8. Robertson, *Freethought*, I, 459.
9. Froude, *Edward*, 98 101
10. *Ibid.*, 163.
11. *Camb. Mod. Hy*, II, 502.
12. Froude, *Edward*, 156.

13. Ibid., 278.
14. Ibid.
15. 163.
16. 176; Lingard, V, 228.
17. Froude, 176.
18. Ibid., 209.
19. *Camb. Mod. Hy*, II, 301.
20. Froude, 226.
21. Cf. Prescott. *Mary Tudor*, 17.
22. En. Brit., XIV, 1001.
23. Chapuys in Prescott, 50, 54.
24. Ibid.
25. En. Brit., XIV, 1000b.
26. Prescott, 122.
27. Ibid., 209.
28. Pastor, XIV, 399.
29. Froude, *Mary Tudor*, 44.
30. Prescott, 191-2.
31. Ibid., 194.
32. 196.
33. Froude, *Mary Tudor*, 66.
34. Hughes, I, 18.
35. Froude, 56.
36. Ibid., 50.
37. 56.
38. Prescott, 285.
39. Ibid., 274.
40. 266.
41. 284.
42. 315.
43. Froude, 325.
44. Prescott, 325.
45. Lingard, V, 230.
46. Prescott, 206.
47. Ibid., 302.
48. 304.
49. Pastor, XIV, 360.
50. Froude 119.
51. Prescott, 307.
52. *Camb. Mod. Hy*, II, 543.
53. Froude, 110.
54. Prescott, 311.
55. Foxe, *Acts and Monuments*, I, 231 f; Maitland, S. R., *Essays on the Reformation*, 409; Smith, *Reformation*, 586, Lee, Sidney, *Dictionary of National Biography*, XX, 146.
56. Hughes, II, 258-9.
57. Froude, *Mary Tudor*, 199.
58. Lingard, V, 231.
59. Pastor, XIV, 370.
60. Froude, 202.
61. Ibid., 233.
62. Foxe, VIII, 82-3.
63. Ibid., 88.
64. 90.
65. Froude, 235.
66. Beard, *Reformation*, 182.
67. Hughes, II, 198.
68. Hume, *Spain: Its Greatness and Decay*, 117.
69. Prescott, 332.
70. Ibid., 381.
71. 390.

CHAPTER XXVII

1. Cf. Buckle, *Hy of Civilization*, II, ch. II.
2. Ibid., I, 150; Belloc, *How the Reformation Happened*, 188.
3. Ibid., 189.
4. Lang, *Hy of Scotland*, 425.
5. Froude, *Elizabeth*, I, 73.
6. Knox, *Hy of the Reformation*, Introd. by W.C. Dickinson, xvii.
7. Lang, I, 300.
8. Ibid., 476.
9. Froude, *Henry VIII*, III, 298.

10. *Ibid.*, 295, 300.
 11. Knox, *History*, I, 76.
 12. *Ibid.*, 78.
 13. 8.
 14. 55.
 15. Lang, I, 484.
 16. Knox, I, 84-5.
 17. Muir, *Knox*, 119.
 18. *Ibid.*, 133.
 19. 120.
 20. 202.
 21. Froude, *Elizabeth*, I, 257.
 22. Allen, *Political Thought*, 110.
 23. Knox, *History*, Introd., lxxiii; Muir, 67.
 24. Knox, I, 194 and note 2.
 25. Knox, Introd., xiv; cf. Muir, 300.
 26. Muir, 157.
 27. Lang, II, 37.
 28. Knox, II, 18.
 29. *Ibid.*, 4.
 30. I, 6.
 31. Knox, Introd., xli.
 32. *Ibid.*, xxxix.
 33. Knox, *Works*, IV, 365, 373-7.
 34. *Ibid.*, 418-20.
 35. Knox, *Book of Discipline*, in Allen, *Political Thought*, 113n.
 36. *Ibid.*, 113; Lecky, *Rationalism*, II, 16.
 37. Knox, Introd., xlii, and Allen, 113.
 38. In Muir, 142.
 39. *Ibid.*, 148-9.
 40. Lang, II, 45.
 41. Knox, I, 161-2.
 42. *Ibid.*
 43. 163.
 44. Lang, II, 51-3.
 45. Knox, I, 164.
 46. *Ibid.*, 171-2.
 47. 192; *Lancet*, II, 54-5.
 48. Knox, I, 191.
 49. Knox, II, Appendix VI.
- CHAPTER XXVIII
1. *Camb. Mod. Hy.*, II, 602; *En. Brit.*, VII, 210a.
 2. Watson, P. B., *Swedish Revolution under Gustavus Vasa*, 123.
 3. *Ibid.*, 162.
 4. 169.
 5. Horn, *Literature of the Scandinavian North*, 147.
 6. In Lednicki, *Life and Culture of Poland*, 107.
 7. Kesten, *Copernicus*, 144.
 8. *Camb. Hy of Poland*, I, 322-4.
 9. *Ibid.*, 329.
 10. Lützow, *Bohemia*, 206n.
 11. Tawney, 75.
 12. Blok, II, 332.
 13. *Camb. Mod Hy.*, II, 63; Taine, *Lectures on Art* 272.
 14. Pirenne, H., *Belgian Democracy*, 218.
 15. Motley, J. L., *Rise of the Dutch Republic*, I, 101.
 16. *Smith Reformation*, 240.
 17. Blok, II, 314.
 18. In Kautsky, 283.
 19. *Smith*, 244.
 20. Kautsky, 285 f.; Ranke, 75 f.
 21. Motley, I 222-5.
 22. *Smith*, 245.
 23. Draper, J. W., *Intellectual Development of Europe*, II, 226.

24. Smith, 245.
 25. Armstrong, *Charles, V*, II, 382-3; Robertson, *Charles V*, II, 137; Michelet, III, 293.
 26. *Ibid.*, 363.
 27. 349.
 28. Robinson, *Readings*, 317-9.
 29. Altamira, *Hy of Spanish Civilization*, 135.
 30. Hume, *Spanish People*, 222-3.
 31. Vernadsky, O., *Kievau Russia*, 243.
 32. Wilkins, *Spanish Protestantism in the 16th Century*, 19.
 33. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 8-12.
 34. Wilkins, 26; *Camb. Mod. Hy*, I, 403.
 35. Lea, IV, 431-8.
 36. *Ibid.*, 441.
 37. Prescott, W. H. in Robertson, *Charles V*, II, 648*
-